ياسوناري كاواباتا

ذراع واحدة

وقصص أخرى

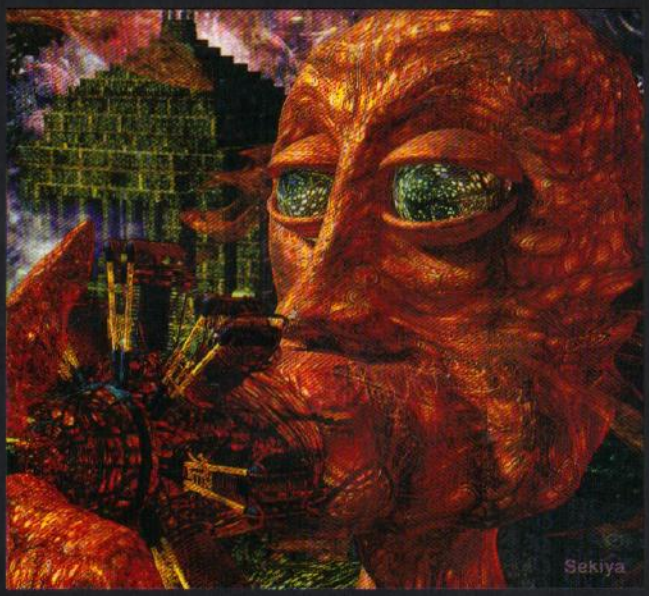

ترجمة: كامل يوسف حسين

دار الثقافة والإعلام الشارقة

ذراع واحدة

وقصص أخرى

ياسوناري كاواباتا

ذراع واحدة

وقصص أخرى

ترجمة

كامل يوسف حسين

إصدارات دائرة الثقافة والإعلام، حكومة الشارقة 2005م

الطبعة الأولى 2005
حقوق النشر والطبع محفوظة
الناشر: دائرة الثقافة والإعلام
حكومة الشارقة ـ دولة الإمارات العربية المتحدة
ص. ب: 5119 الشارقة
هاتف: 5671116 6 971+
براق: 5662126 6 971+
بريد اليكتروني: sdci@sdci.gov.ae

٨٩٥.٦٣٠١ ذراع واحدة وقصص أخرى/ ياسوناري كاواباتا، ترجمة كامل
ك ي. ذ يوسف حسين.- الشارقة: دائرة الثقافة والإعلام، ٢٠٠٥
٢٦٤ ص؛ ٢١سم.- ردمك ٧-٢٣٨-٠٤-٩٩٤٨
١- القصص اليابانية القصيرة أ- العنوان
ب - كامل يوسف حسين (مترجم)

مقدمة المترجم

يعد ياسوناري كاواباتا الأديب الياباني الذي تُرجم له أكبر عدد من الأعمال يحظى به مبدع ياباني إلى اللغة العربية، فقد ترجمت له أعمال تبلغ، بالكتاب الماثل بين يدي القارىء، أحد عشر عملاً، هي على التوالي: حزن وجمال، البحيرة، ضجيج الجبل، الجميلات النائمات، بلاد الثلوج، راقصة إيزو، سرب الطيور البيضاء، العاصمة القديمة، لاعب الجو، وقصص بحجم راحة اليد.

بقدر ما أعلم، فإنه لم يقترب من هذا الرقم القياسي للترجمات إلى اللغة العربية من الأدباء اليابانيين إلا يوكيو ميشيما، الذي ترجمت له ثمانية كتب إلى لغة الضاد، هي على التوالي: عطش الحب، البحار الذي لفظه البحر، اعترافات

قناع، السيدة دي ساد، ورباعيته «بحر الخصب»، المكونة من الروايات التالية: ثلج الربيع، الجياد الهاربة، معبد الفجر، سقوط الملاك.

على الرغم من أن هذا يبدو، لأول وهلة، انجازاً في جهود الترجمة إلى العربية، إلا أن تواضعه البالغ يبدو لنا جلياً إذا تذكرنا أن أعمال ميشيما الكاملة تقع في ثلاثين مجلداً تضم مئة عمل، أما أعمال كاواباتا المترجمة إلى الانجليزية والمصادر والمراجع المتعلقة بهذه الأعمال فيمكن الحصول عليها من خلال أي محرك بحث قوي على الانترنت، وعناوينها فحسب تقع في ست وعشرين صفحة

الأمر لا يقف عند هذا الحد، فنظرة واحدة إلى أعمال كاواباتا المترجمة إلى اللغة العربية كفيلة بأن تلفت نظرنا إلى حقيقة، طالما وقفنا حيالها بالدهشة والتساول.

في الطبعة العربية من رواية «البحيرة»، على سبيل المثال، لنا نجد إلا اثنى عشر سطراً أوردها الناشر على الغلاف الخلفي للرواية، على سبيل التعريف بكاواباتا.

في حالة «راقصة إيزو» سنجد الأمر نفسه، مع فارق بسيط، هو أن الناشر كان في هذه الحالة أكثر كرماً، فأورد اثنين وعشرين سطراً، على سبيل التعريف بالمؤلف.

في رواية «بلاد الثلوج»، سنجد تصديراً بقلم المترجمة لطيفة الدليمي ومقدمة للناقد إدوارد سدنشتكر.

في كتاب «مختارات من الأدب الياباني المعاصر»، سنجد ثلاث صفحات عن كاواباتا. وفي مجموعة «الليمون»، التي تضم قصصاً من اليابان والصين، سنجد صفحة وبضعة أسطر في معرض التعريف بكاواباتا، الذي تضم المجموعة إحدى قصصه.

ينطبق هذا الطابع الموجز في التعريف، الذي يوشك أن يكون غياباً أو شبه غياب، على باقي الأعمال الصادرة باللغة العربية لأول أديب ياباني يفوز بجائزة نوبل للأدب.

هكذا، فإن كل ما لدينا، من الناحية العملية، عن كاواباتا لا يعدو أن يكون لوحة شديدة الايجاز عن مسيرته، أقرب إلى رصد سريع لمحطات على طريق انتاجه لأعماله، ويتم هذا الرصد فيما يوشك أن يكون قائمة زمنية فحسب.

المحصلة النهائية، إذن، هي أن ياسوناري كاواباتا يطل علينا، عبر هذا كله، لغزاً محيراً، لاسبيل إلى فهمه. وقد كان الوعي بذلك هو الذي دفع مترجمة «بلاد الثلوج» إلى أن تجعل تصديرها للترجمة بعنوان دال هو «كاواباتا.. الحسي أم الناسك؟».

الواقع ان القارىء العربي يجد نفسه، فيما يتعلق بعالم ياسوناري كاواباتا الابداعي، أمام غابة حقيقية من علامات الاستفهام، مردها محدودية ما نعرفه عن الأديب الياباني الكبير، وغياب أي محاولة حقيقية لتحليل جوانب عالمه الابداعي وفهمها.

المشكلة الحقيقية في علامات الاستفهام هذه أنها ما إن تُطرح حتى يبدو بوضوح أن لها بداية، أما النهاية فأمر متعلق بالمزيد من الجهد في معرفة هذا الكاتب الكبير.

هل كان كاواباتا رجل تحديث أم داعية للقديم؟ أكان حقاً عاشقاً للسلام أم داعية حرب يمضي العديد من أيامه في قواعد فيالق الهجوم الخاص التي تضم الطيارين الانتحاريين الذين عرفوا بالكاميكازي مباركاً أعمالهم؟ أكان منندداً بالانتحار على نحو ما يبين من انتقاده المرير لأوساموداز اي؟ أم كان من المحبذين له كأداة لمواجهة المستحيل على نحو ما يبين من اقدامه على الانتحار باستنشاق الغاز في ١٦ ابريل ١٩٧٢؟ أكان داعية لرفض انغماس الأدباء في السياسة على نحو ما حاول طوال عمره؟ أم كان من المناصرين لهذا الانغماس كما يبين من الجهد المذهل الذي بذله في مناصرة مرشح للفوز بمنصب حاكم طوكيو في العام الأخير من حياته؟ أكان من عشاق الجمال الخالص أم من القائلين بأن الجمال الخالص لا وجود له في عالم البشر؟ أكان رجل إيغال في الرحيل وراء مغاليق عالم الشهوة الملون بالغموض أم كان رجل الزهد الذي يرى استحالة لقاء العاشقين بحكم طبيعة العشق ذاته؟

تلك ليست إلا قبضة من علامات الاستفهام التي وصفناها حالاً بأنها غابة حقيقية، والتي يتعين أن نتصدى لها، إذا أردنا أن نحقق حداً أدنى من الاقتراب من كاواباتا وعالمه الابداعي.

مع أننا ندرك تمام الادراك أن مثل هذه المهمة مكانها

الطبيعي كتاب بكامله، يخصص لأديب اليابان الكبير، فقد بادرنا في تقديمنا للطبعة الأولى لكتاب «قصص بحجم راحة اليد» من ترجمتنا الصادرة عن دار شرقيات بالقاهرة لمحاولة انجاز ست مهام فرعية، هي على التوالي:

أ - رسم لوحة خارجية عن حياة كاواباتا ومسيرته الابداعية.

ب - القاء نظرة على جوهر عالمه الروائي.

ج - تدقيق الجزئية الخاصة بمحاولة تجسير العلاقة بين البشر والطبيعة.

د - القاء الضوء على ما يسميه النقاد بالفصل الحتمي بين الشخوص عند كاواباتا.

هـ - محاولة فهم مكان كاواباتا بين التحديث وتكريس الأعراف القديمة.

و - تحقيق حد أدنى من الاضاءة لصلة القصص التي يضمها الكتاب ومجمل ابداع كاواباتا.

في مرحلة لاحقة، عدنا في مقدمة الطبعة الثانية لذلك الكتاب، الصادرة عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت، فألقينا المزيد من الضوء على رحلة كاواباتا الابداعية، وأشرنا في تحليلنا، بأوسع المعاني، إلى أربع مراحل في تلك الرحلة، هي:

١٠ - سنوات البدء التي تمتد من الأعمال الأولى، بما في ذلك الكتابات المستلهمة من شبه جزيرة ايزو، بما في ذلك اهتمامات كاواباتا بالسينما وكتابته لعدد من سيناريوهات الافلام التجريبية البارزة.

٢ - سنوات أساكوسا وبلاد الثلج والحرب.

٣ - سنوات ما بعد الحرب.

٤ - السنوات الأخيرة والرحيل.

من المحقق أننا لا نسعى هنا إلى تكرار ما أوردناه في أي من هاتين المقدمتين، فمن شاء فليعد إليهما في كتاب «قصص بحجم راحة اليد»، الذي نأمل في اصدار طبعة ثالثة منه قريباً.

فلنكتف هنا، إذن، بأداء مهمتين محددتين، نأمل أن نقطع عبرهما مشواراً أبعد في تعريف القارىء العربي بابداع كاواباتا، على أمل أن يأتي حين من الدهر يقدم فيه باحث عربي شاب، أكثر موهبة وأقل تعرضاً للحصار النابع من ضيق الوقت وغسق العمر، فيقدم كتاباً هوالأول من نوعه في لغتنا العربية عن حياة كاواباتا وابداعه.

إلى أن يطل مثل هذا الكتاب، الذي آمل أن تراه عيناي في وقت ليس بالبعيد، دعنا ننجز هنا المهمتين التاليتين:

١ - رسم لوحة خارجية أكثر دقة لكاواباتا.

٢- تحديد مكان مجموعة «ذراع واحدة» من مجمل ابداع كاواباتا وتقديم قراءة مقترحة يمكن أن ينسج القارىء على منوالها لأربع قطع مندمجة في المجموعة، هي على التوالي:

أ - ذراع واحدة.

ب - الصمت.

ج - يوميورا.

د - طبيعة.

إذا بادرنا إلى الانطلاق معاً، في اطار أداء المهمة الأولى، التي حددناها لأنفسنا هنا، وهي رسم لوحة خارجية أكثر دقة لكاواباتا، فقد يكون من المفيد أن نحمل معنا زاداً في هذه الرحلة، قبل استهلالها، ما يشير إليه، الباحث الأميركي دونالد كين في كتابه بعنوان «خمسة روائيين يابانيين محدثين» الصادر عن مطبعة جامعة كولومبيا عام ٢٠٠٣، من أن كاواباتا على امتداد مسار حياته العملية، خلافاً لما يفضل البعض طرحه من تصنيف لكاواباتا في إطار حصري وضيق، قد كتب بأساليب مختلفة عن موضوعات متباينة.

يشير كين كذلك إلى أن كاواباتا، على العكس من تانيزاكي وميشيما بل وآبي، لم يكتب قصاً تاريخياً، وهو أمر مدهش بالنسبة لكاتب كان ملتزماً أشد الالتزام بالتقاليد اليابانية.

خلافاً لتانيزاكي وميشيما كذلك، فإن كاواباتا كان في وقت

من الأوقات متحدثاً باسم حركة أدبية طليعية، هي حركة «الحسيون الجدد»، ولم يتخل عن أساليبها الفنية، حتى نهاية حياته العملية.

بهذا المعنى، فإن التناقض الذي لا تخطئه العين بين كاوباتا الذي أوغل في تأبين الحزن والجمال، بحسب عنوان روايته الشهيرة التي ترجمها د. سهيل ادريس إلى اللغة العربية، والتي تنتمي إلى المراحل الأخيرة من ابداعه، وبين كاواباتا الذي كتب السيناريو للفيلم الطليعي الأول في السينما اليابانية، أو بين كاواباتا الحريص على الحفاظ على التقاليد اليابانية وكاواباتا الحريص على استكشاف الشوارع المدمرة - هذا التناقض يمنح كتاباته تعقيداً يجعله ممثلاً حقيقياً للأدب الياباني، ويجعل حصوله على جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٦٨ شيئاً يقوم على جدارة واستحقاق لا موضع للتشكيك فيهما.

يضع «القاموس الأبجدي للأدب الياباني» من تصنيف سينيتشي هيساماتسو الصادر عن دار كودانشا إنترناشيونال، في صفحة ٢٧٠ منه، أقدامنا على بداية الطريق إلى مصافحة معرفية مع الحقائق الأساسية حول حياة كاواباتا وابداعه.

ولد كاواباتا في أوساكا بغربي اليابان، في ١١ يونيو ١٨٩٩، ونشأ في هذه المدينة اليابانية العريقة، ذات التقاليد التجارية والمهنية، التي تمتد غائرة في أزمان بعيدة.

ومن المحقق أن قلائل من الأدباء اليابانيين هم الذين نشأوا

في ظروف أكثر تعاسة من تلك التي نشأ فيها كاواباتا، وصحبته طويلاً، بحيث أن شهود الجنازات أصبح جزءاً روتينياً من حياته، مما دفع ميشيما، الذي تصدّر كاواباتا جنازته، إلى أن يدعو كاواباتا بلقب «سوشيكي نو ميجين»، أي «سيد الجنازات»، وقد كان هذا أيضاً هو عنوان أحد الأعمال المبكرة التي أصدرها كاواباتا في ١٩٢٣ .

فقد كاوابات والديه كليهما وهو في العام الثاني من عمره، ولحقت بهما جدته بعد فترة قصيرة، وتبعتها أخته الوحيدة، وتوِّج هذا كله في الرابعة عشرة من عمره بفقد جده المريض والضرير، بعد أن كان قد تولى رعايته منذ العام السابع من عمره.

كان من الطبيعي أن تمهد أحزان السنوات الأولى من العمر الطريق أمام مناخ الكآبة العميقة، التي اتسمت بها أعمال كاواباتا في مرحلة النضج، ويكشف لنا عمل ينتمي إلى أعماله الأولى هو «يوميات عامي السادس عشر»، والذي سجَّل فيه جهوده اليائسة لمساعدة جده الموشك على الرحيل ومعاناته في غمار ذلك - تكشف النقاب عن لماحية فذة ورؤية واقعية ليس من السهل تصور صدورهما عن فتى في مثل هذا العمر.

يصف هذا العمل اثنى عشر يوماً من مايو عام ١٩١٤، أي قبل أسبوع واحد من رحيل الجد عن عالمنا. ويشير كاواباتا في الخاتمة التي أضافها إليه لدى نشره للمرة الأولى في ١٩٢٥ إلى إنه قد عثر على المخطوط الذي كان قد نسيه تمام النسيان في مخزن لأحد أعمامه.

في هذه الخاتمة يعقِّب كاواباتا على العمل بقوله: «واجهت العواطف الصادقة المنتمية إلى ماض منسى، لكن الجد الذي وصفته كان أشد قبحاً من الجد الذي احتفظت به ذاكرتي، فعلى امتداد عشر سنوات مضى ذهني على الدوام في تطهير صورة جدي وصقلها».

كان من الطبيعي أن يثير هذا العمل بعنفوانه وصدقه الانفعالي وأسلوبه المميز اهتمام الكثيرين. وقد ذهب بعض الباحثين عقب تمحيص هذه اليوميات من حيث الأسلوب، إلى الاعتقاد بأن هذا العمل جرى تأليفه في عام نشره، أي في ١٩٢٥، وليس قبل ذلك، كما تؤكد الخاتمة التي كتبها كاواباتا له.

يسوق هؤلاء الباحثون، ضمن نقاط أخرى، حجة جديرة بالتوقف عندها طويلاً، في معرض التدليل على صحة ما يذهبون إليه، فهم يشيرون إلى أن أسلوب «يوميات عامي السادس عشر»، خلافاً للنماذج الأخرى من كتابات كاواباتا في صدر الشباب تخلو من التجميل والزخرفة المعتمدين على الأسلوب، اللذين يتوقعهما المرء من فتى عاشق للكتاب، لم يتجاوز عمره عقداً من الزمن ونصف العقد.

لكن بغض النظر عن تاريخ تأليف هذه اليوميات، فإنها في حقيقة أمرها استحضار فذ للعلاقة بين الفتى وجده المحتضر، والحب - والاشمئزاز - اللذان يثيرهما المريض العاجز في نفس الفتى يتم نقلهما إلينا، بقوة واقتدار، من خلال عملية اختيار التفاصيل.

ربما يثير بعض جوانب عملية اختيار التفاصيل هذه شعوراً بالدهشة لدى لقارىء العربي، الذي لم يسبق له الاطلاع على نماذج من أعمال كاواباتا، وربما أشهر فقرة في هذه اليوميات، والتي تعكس معنى ما أشرنا إليه من اختيار التفاصيل هي تلك التي يعود فيها الفتى إلى الدار، فيجد أن جده الذي كفّ بصره، وغدا عاجزاً عن التحرك اعتماداً على نفسه، ينتظر بصبر نافد عودته إلى الدار، ويطلب منه جلب المبولة الزجاجية، ومساعدته على التبول بوضع عضوه فيها.

هكذا نقرأ ما يقوله الفتى في اليوميات:

«لم يكن أمامي خيار إلا تعريته والقيام بما طلبه مني، على الرغم من أن ذلك لم يوافق ميلي الفطري.

(أهو في المبولة؟ هل الأمر على ما يرام؟ سأبدأ الآن. موافق؟). ألم يكن بوسعه الشعور بجسمه؟

(آه.آه. هذا مؤلم. أوه. هذا مؤلم على نحو فظيع). كان التبول يؤلمه.وكان تنفسه مجهداً له إلى حد أنه بدا وكأنه سيكف عنه في أي لحظة، ولكن من أعماق المبولة الزجاجية انبعث صوت كصوت ماء صاف ينساب في غدير أحد الأودية.

(أوه. هذا مؤلم). بدا أن الألم يفوق ما يمكنه تحمله. فيما كنت استمع لصوته، أحسست بالدموع تفيض من عيني.

كان الماء قد وصل إلى حد الغليان، فأعطيته بعض الشاي، الشاشي الخشن. اضطررت لاسناده من أجل كل رشفة

يشربها. الوجه بارز العظام،الشعر الأشيب الذي عاث فيه الصلع فساداً. اليدان المرتعشتان اللتان لاتعدوان أن تكون عظاماً وجلدا. تفاحة آدم في عنقه المهزول وهي تعلو وتهبط مع كل رشفة. ثلاث أكواب من الشاي».

من الواضح أنه من المتعذر تصديق أن فتىً متأثر بعمق بالأدب عتيق الطراز يمكنه أن يكتب بهذه البساطة عن احتضار أقرب الناس إليه. لكن بعض التفاصيل، مثل الأمل الذي يعرب عنه في أنه إذا واصل كتابة اليوميات إلي أن تبلغ مئة صفحة، فإن جده سيسترد عافيته، تبدو شديدة الصدق.

قُدِّر لكاواباتا، بعد رحيل جده، الانتقال إلى مدرسة متوسطة داخلية، بقى في إطار نظامها الصارم، حتى مغادرته لأوساكا لمواصلة تعليمه في طوكيو، في مدرسة مخصصة للنخبة من أبناء عصره.

في ١٩٢٠، التحق كاواباتا بالجامعة الامبراطورية في طوكيو، لدراسة الأدب الياباني. وفي العام التالي، ساعد في الاصدار السادس لمجلة «شينتشو» وقد تعرف، في غضون ذلك، على الأديب الكبير كيكوتشي كان في ١٩٢٣، ومن ثم أصبح عضواً في هيئة تحريرها، وحظى برعاية كيكوتشي كان الأدبية له، وهي الرعاية التي أسبغها كاواباتا، فيما بعد، على عدد من أبرز الكتاب، وفي مقدمتهم يوكيو ميشيما.

تلك هي المرحلة التي أصدر فيها كاواباتا أولى قصصه،

وذلك في ١٩٢١ تحت عنوان «رؤية لمهرجان ياسوكوني»، وقد عكست مزاجاً نفسياً مختلفاً تماماً عن «يوميات عامي السادس عشر».

تدور هذه القصة حول فارسة في سيرك ومجموعة أصدقائها، وهي تروي بطريقة حداثية، والحوارات متشظية، وفي بعض الأحيان خفية المعنى. وقد جعل كاواباتا القصة صعبة القراءة عن عمد.

يرى النقاد أن هذا العمل، باعتباره قصة، يتسم بعدم النضج، ولكن أسلوبه الخشن على غرار عمل بول موران الصادر عام ١٩٢٢ بعنوان «حلول الليل» اجتذب الاهتمام، وقد أُشيد كذلك برفع المؤلف يده عن التدخل في الشخصيات، وهو أمر لا يميز هذا الأسلوب الحداثي وحده، وإنما يتسم به مجمل أعمال كاواباتا كذلك.

لدى تخرج كاواباتا من الجامعة، في ١٩٢٤، انضم إلي كانوكا تيبي ويوكو ميتسو ريتشي وآخرين في تأسيس مجلة «بونجي جيداي» (العصر الذهبي)، التي أصبحت لسان حال المجموعة التي اشتهرت باسم «الحسيون الجدد». وقد عارضت هذه المجموعة، وفي مقدمة أعضائها كاواباتا وريتشي، النزعة الواقعية، التي كانت سائدة في ذلك الوقت، وسعت إلى الاطلال على الحياة من منظور جديد، مختلف تماماً عن السائد، وابداع أعمال جديدة تماماً، من حيث الأسلوب.

خلافاً لكل الاشارات الموجزة باللغة العربية، فيما يتعلق بأعمال كاواباتا، التي اطلعنا عليها، والتي أدهشنا أنها تجمع على أن كاواباتا قد أصدر عمله المبكر، الجميل، الموسوم «راقصة إيزو» في ١٩٢٥، فإن هذا العمل قد صدر عام ١٩٢٦، ولم يجلب له الشهرة فحسب، وإنما ظل العمل الأكثر اقتراناً باسمه حتى اليوم، على نحو يفوق الروايات الثلاث التي أشادت بها لجنة الأكاديمية السويدية، في حيثيات قرارها منحه جائزة نوبل للأدب.

كان كاواباتا قد تعرض لحالة من الاكتئاب بتأثير فتاة كان يعتزم الزواج بها لكنها نكثت بعهدها له، فمضى في جولة للتسرية عن نفسه في شبه جزيرة إيزو، في خريف ١٩١٨، والتقى بمجموعة من القائمين بالترفيه عن الجماهير بتقديم العروض والاستعراضات، وتأثّر كثيراً بالطواعية التي قبلوه بها في صفوفهم، وأسعده أن يستمع إليهم من دون أن يروه وهم يتحدثون عنه باعتباره «شاباً لطيفاً».

في «راقصة إيزو»، يجتذب الراوية إلى فتاة تقرع الطبول، ويفكر في أن يطلب منها أن تقضي الليل في غرفته، ولكنه بالمصادفة يلمحها وهي تخرج عاريةً من بخار نبع حار في الهواء الطلق، فيدرك الحقيقة البسيطة، وهي أنها لاتزال طفلة في حقيقة الأمر، على الرغم من ملابسها وطريقة تصفيف شعرها التي توحي بنضجها.

خلافاً لما نتوقع، فإن هذا الاكتشاف أبعد ما يكون عن إثارة

الشعور بخيبة الأمل لدى الراوية، ذلك أن يحرره من الضوابط التي كانت مفروضة عليه، فينطلق سعيداً برفقة هذه الفرقة الاستعراضية الجوالة إلى شيمودا، في طرف شبه جزيرة ايزو، حيث يودّع الفرقة في نهاية المطاف. وعلى متن السفينة التي تقله في طريق عودته إلى طوكيو، يأخذ الراوية في البكاء، ولكن ليس بفعل الحزن.

في ١٩٢٩، أصدر كاواباتا، عملاً آخر مسلسلاً في صحيفة «أساهي شيمون» بعنوان «أساكوزا كوناي - ران»، أي «عصابة حي أساكوزا الأرجوانية».

وفي هذا العمل، الذي تأخرت ترجمته الانجليزية كثيراً إلى أن أصدرتها مطبعة جامعة كاليفورنيا في مايو ٢٠٠٥، نجد الراوية يجوب شوارع حي أساكوزا، الذي كان في عشرينيات القرن العشرين يعادل ما كانه حي مونمارتر لباريس في تسعينيات القرن التاسع عشر.

هكذا يمضي الراوية ليراقب بدقة نافذة كل تفاصيل حي الترفيه العجيب هذا، بما يحفل به من شحاذين وعاهرات في سن المراهقة وراقصين ورواد.

عبر أسلوب حداثي متوهج، تتناهي إلينا الطاقة الفجة المنبعثة من حي أساكوزا، على نحو ما يراه الراوية المتجول في شوارع الحي، مع تركيز خاص على الشابات اللواتي لا يترددن، بصراحة ووضوح، في اطلاع الراوية الفضولي على تفاصيل طريقة حياتهن.

يعد أكثر أعمال كاوباتا إيغالا في التجريب، في اطار تصورات جماعة «الحسيون الجدد»، هو «الفانتازيات البلورية» الصادر عام ١٩٣١، الذي لم يقدّر له الاكتمال قط، شأن معظم أعمال كاواباتا.

في هذا العمل، يعتمد كاواباتا أسلوب تيار الوعي، الذي ربط اليابانيون بينه وبين جيمس جويس في المقام الأول. وبعد عدة سنوات كشف كاواباتا النقاب عن انه لم يقرأ الترجمة اليابانية لرواية «عوليس» فقط، وإنما ابتاع نسخة من النص الانجليزي للرواية، وعكف على مقارنته بالترجمة اليابانية.

على الرغم من أن تأثير جيمس جويس على كاواباتا لم يقدر له الاستمرار، إلا أنه كان تأثيراً يعتد به في «الفانتازيات البلورية»، حيث يبرز كاواباتا بين شولتين تأملات الشخصيات غير المنطوقة.

في الوقت نفسه، يبدو أن الفقرات المسترسلة في هذا النص تعكس تأثير بروست، سواء بصورة مباشرة، أو عبر الروائي يوكوميتسو، صديق كاواباتا ورفيق مسيرته في هذه المرحلة.

على الرغم من أن هذا العمل لا يشبه أي شيء آخر كتبه كاواباتا في وقت لاحق من حياته العملية، إلا أن الصور التي يحفل بها والاستخدام اللغوي يعكسان دأباً يستقطب الانتباه.

من المهم عند هذا المنعطف أن نهتم بما يلفت نظرنا إليه

«دليل الأدب العالمي الحديث» من أن كاواباتا قد أدرك وجه التشابه بين الانتقال من موضع إلى آخر في التقاليد الشعرية اليابانية وفي الأساليب الأوروبية الحديثة، وأن كاواباتا نجح في استيعاب هذه الأساليب، عبر المزيد من التأمل والتدقيق.

كما سبقت لنا الاشارة في مقدمتي ترجمتنا لكتاب «قصص بحجم راحة اليد»، فإن كاواباتا قد كتب في إطار هذا القالب الابداعي، الذي يعد أقرب ما يكون إلى قالب القصة بالغة القصر في التقاليد الغربية، وذلك من عام ١٩٢١ حتى رحيله عن عالمنا في ١٩٧٢، حيث أبدع ١٤٦ عملاً مما أطلق عليه باليابانية اسم «تانا جوكورو نو شوسيتسو»، قدمنا معظمها في ذلك العمل، ونأمل أن يتاح لنا تقديم بقيتها للقارىء العربي.

قد يفيدنا هنا أن نشير إلى أعمال لكاواباتا ربما لم يقدّر للقارىء العربي أن يعرف بمجرد وجودها، دع جانباً أن تنقل بمعجزة ما إلى لغته، ومن هذه الأعمال «رسائل إلى أبويّ»، التي عكف كاواباتا على كتابتها بصورة متقطعة فيما بين ١٩٣٢ و١٩٣٤ . وهي موجهة إلى الأبوين اللذين لم يحظ كاواباتا بهما قط، حيث يتحدث عن السر في أنه لم يرغب قط في أن ينجب أطفالاً، وذلك خوفاً من أن يرثوا عنه ما يسميه «الميل إلى أن يكونوا يتامى على حد تعبيره، وهو ما يقول إنه قد عانى منه أشد المعاناة، ولا يتردد في القول إنه كان أكثر ارتياحاً مع الحيوانات منه مع البشر.

قرابة ختام الرسالة الأخيرة في المجموعة، عاد إلى إحدى ذكريات طفولته، فبينما كان جده يرقد في فراشه محتضراً، بادر الفتى إلى الهرب من الدار الكئيبة ليلة إثر أخرى. وقد واصلت الفكرة المتعلقة بقسوته الظاهرة في تركه العجوز المحتضر وحيداً تعذيبه، على امتداد سنوات طويلة.

تختتم هذه الرسائل بوصف موت صديق لكاواباتا من المبدعين التشكيليين، ويقتصر قلب القارىء ما يقوله كاواباتا من أنه بيدين اكتسبتا الخبرة علي مر السنين أغمض عيني صديقه، بعد رحيله إلى البعيد.

بعد أشهر قلائل من انتهاء مجموعة الخطابات، نشر كاوباتا عملاً لا أحسب أن القارىء العربي يعرف بوجوده هو «جوجوكا» أي «قصيدة غنائية» وذلك في ١٩٣٢ .

ربما يستحق هذا العمل الاشارة إليه، في المقام الأول، لان بنيته تكاد تكون سوريالية، فهو مكرس لتأملات في الموت، ولكن بأسلوب غير معهود في اليابان.

في ١٩٣٤، كتب كاواباتا يقول عن «قصيدة غنائية» إن هذا العمل يعد عملاً أثيراً لديه، من بين أعماله التي أنجزها مؤخراً، فهو في آن بمثابة خلاصة لفكرة حتى هذا الوقت واستشراف لآفاق أعماله المستقبلية.

في اعتقادي أنه إذا قُدِّر لكتاب عن حياة كاواباتا وابداعه أن يصدر باللغة العربية ذات يوم ، فإنه سيتعين على مؤلفه أن

يتوقف طويلاً عند «قصيرة غنائية».

من حسن حظ هذا المؤلف، الذي لايزال بظهر الغيب، أن «قصيدة غنائية» عمل مترجم إلى الانجليزية بقلم فرانسيس ماتاي ومنشور في مجلة «مونيمنتا نيبونيك»، المجلد ٢٦، بالعددين الثالث والرابع الصادرين عام ١٩٧١م.

في هذا العمل سنرى اهتماماً قوياً من كاواباتا بالبوذية، وبالمسيحية أيضاً، بالشرق، وبالغرب كذلك، حيث أن كاواباتا كان أبعد ما يكون عن العودة إلى ماضي اليابان، والأساليب الفنية المستخدمة في هذا العمل هي نفسها أساليب الأدب الأوروبي الحديث، على نحو ما وظفها جيمس جويس ومعاصروه الآخرون الذين قراءهم كاواباتا بمزيد من الاهتمام، بل إن أدق التفاصيل مستمدة من عالم غير شرقي.

هنا، بالضبط، لابد من ملاحظة أن كاواباتا واصل الانتقال جيئة وذهاباً بين عالمي الشرق والغرب، فهو لم يفصح أبداً عن ذلك الاعجاب غير المشروط بالغرب، الذي نجده عن جونتشيرو تانيزاكي، على سبيل المثال، في أعماله المبكرة، ولكنه بالمثل لم يرفض الغرب.

بهذا المعنى فإن تطور كاواباتا لم يكن بحال عودة إلى الشرق بعد افتتان أولى بالحداثة الغربية.

ولعل أقرب مثل لكاواباتا يمكن أن نضربه في هذا الصدد هو الرسالم الياباني الشهير كوجا هاروي، الذي استخدم في

مستهل حياته الابداعية مجموعة ألوان مماثلة لتلك التي نجدها عند بول كلي، وانتقل إلى ما يمكن أن نصفه بالألوان الشرقية، ثم عاد من جديد إلى الألوان الغربية، ثم أفصح عن اهتمام متجدد بالتقاليد الفنية الشرقية قبيل وفاته.

هذه المناقشة ذات أهمية كبيرة، بالنسبة لنا، كما سنرى حالاً، في غمار تصدينا للمهمة الثانية التي نحاول انجازها في هذه المقدمة والمتعلقة بتحديد مكان المجموعة التي تضمها دفتا هذا الكتاب في مجمل أعمال كاواباتا.

من الناحية العملية، وعلى الرغم من اصدار كاواباتا للعديد من القصص القصيرة، فإنه لم يكمل أياً من رواياته الأساسية حتى ما بعد الحرب العالمية الثانية، حيث كانت هذه الأعمال تتكامل ببطء شديد، فرواية «بلاد الثلوج» أطلت على القراء للمرة الأولى في صورة قصة قصيرة، ونُشر قسم ثان منها في نوفمبر ١٩٣٥، بينما أخذت شكلها النهائي في ١٩٤٧ .

في مرحلة ما بعد الحرب، أصدر كاواباتا سلسلة من الأعمال المتميزة، من أبرزها «سرب الطيور البيضاء» (١٩٥١) و«حزن وجمال» ١٩٦٣)، وقد فصّلنا القول في هذه الأعمال في مقدمتي كتاب «قصص بحجم راحة اليد».

في ١٩٤٨، أصبح كاواباتا رئيساً لفرع نادي اتحاد الكتاب العالمي في اليابان. وفي ١٩٥٨ غدا نائب رئيس الاتحاد، وفي ١٩٦٠ نال جائزة عن مجمل انجازاته الأدبية من الحكومة

الفرنسية. وفي ١٩٦٨ نال جائزة نوبل للأدب، وذلك تقديراً لـ «تمكنه من ناصية فن القص، الذي يعبر من خلاله، وبحساسية بالغة، عن جوهر العقل الياباني»، وذلك وفق ما جاء في حيثيات قرار لجنة الأكاديمية الملكية السويدية.

كما نعرف جميعاً، فإن كاواباتا، الذي سبق له أن عانى من الأرق والإدمان على عقاقير مكافحة متاعب الأرق وعولج منه، قد أصيب في العام الأخير من حياته بمرض ذهني، وأقدم على الانتحار باستنشاق الغاز في شقته الصغيرة التي كان يستخدمها للكتابة في مدينة زوشي القريبة من كاماكورا بغربي اليابان، وذلك في ١٦ ابريل ١٩٧٢، وإن كان هناك من يجادل في انتحاره، في ضوء أنه لم يترك مذكرةً تفيد بذلك، كما أنه عُرف عنه انتقاده للانتحار والمنتحرين، باعتبار أنه أبعد ما يكون عن الاستنارة، وأنهم أبعد ما يكونون عن البطولة.

إذا انتقلنا إلى المهمة الثانية، التي نتصدى لها في هذه المقدمة، وهي المتعلقة بالقاء الضوء على مكان القطع التي يضمها هذا الكتاب في مجمل أعمال كاواباتا، لتبين لنا مدى أهمية المناقشة التي تناولنا طرفاً منها قبل قليل، والمتعلقة بتأثر كاواباتا بالأساليب الفنية الحداثية الغربية، من دون أن يتناقض ذلك مع عمق الجذور التي تضربها أعماله في التقاليد الابداعية الشرقية.

الذين تابعوا، بحب وتعاطف، الجهود التي بذلناها للتعريف بالأدب الياباني، في اطار مشروع يقع في خمسة آلاف صفحة،

يعرفون أننا درجنا على أن نقدم للقارىء العربي كتاباً لم يعرفهم من قبل، أو كتاباً سبق أن عرفهم ولكننا نتصدى لهم من زواياً مجهولة تماماً في عالمنا العربي.

في حالة ياسوناري كاواباتا، فإن من الواضح أنه الكاتب الياباني المعروف أكثر من غيره للقارىء العربي، سواء من حيث فوزه بجائزة نوبل للأدب، أوبحكم العدد الكبير من أعماله الذي ترجم إلى اللغة العربية.

من هنا فقد قدمنا في كتاب «قصص بحجم راحة اليد» لوناً من الابداع لم يعرفه القارىء العربي من قبل في تقاليده اليابانية. وقد أدهشنا أن يأتي الحماس لهذا اللون الابداعي من القراء الشبان، في المقام الأول، وهو ما كان وراء نفاد الطبعتين الأولى والثانية من هذا الكتاب، ونأمل أن نقدم للقارىء طبعة ثالثة تضم المزيد من هذه النوعية الفردية من الابداع الأدبي، الذي بلغ ياسوناري كاواباتا من شدة الولع به حداً جعله لا يتوقف عن الكتابة في اطاره منذ عام ١٩٢١ إلى رحيله عام ١٩٧٢ .

هنا نجد أنفسنا بين دفتي هذا الكتاب على موعد مع أعمال تتسم بأنها، في غالبيتها الكاسحة، تعكس تأثر كاواباتا بالأساليب الفنية الحداثية الغربية، وفي مقدمتها السوريالية والدادائية والتكعيبية.

لكي أوضح مدى أهمية هذا الانتماء الذي تضرب هذه

الأعمال جذورها فيه، فإنني لابد لي من العودة بشكل أو بآخر إلى المناقشة التي أشرت إليها قبلاً.

الواقع أنه حين يتحدث أحد عن كاواباتا، فإن أذهان الكثيرين تنصرف إلى عالم بعينه، عالم غنائي، ليريكي إن شئت، يحفل بالمعابد، السرادقات القديمة، براعم الكرز المتفتحة في الربيع الينابيع الحارة فتيات الجيشا والحسناوات اليابانيات التقليديات اللواتي يعزفن على آلة الشامسين ويغنين برقة وعذوبة أغنية «شعر حالك السواد». وبعبارة أخرى، فإنه عالم انداح إلى النسيان، لكي لا نقول إلى العدم، ولم يعد له وجود، لا في الواقع الياباني ولا في الأدب الياباني.

هذه الصورة عن كاواباتا ليست لي، وكل علاقتي بها هو أنني قدمتها هنا بطريقة واضحة، موجزة، وصارمة.

إنك ستجدها، بتفاصيلها الكاملة، على سبيل المثال، في مقال شهير بعنوان «ياسوناري كاواباتا (١٨٩٩ - ١٩٧٢) التقاليد في مواجهة الحداثة»، يقع في الصفحات ٣٧٥ - ٣٧٩ من عدد مجلة «ورلد لتراتشر تودای» المخصص للأدب الياباني الصادر في صيف ١٩٨٨ ويحمل رقم ٣ في المجلد رقم ٦٢.

في هذا المقال، الذي كتبه سيدني ديفيري براون، الباحث بجامعة أوكلاهوما الأميركية، نجد تشديداً على أن كاواباتا هو ابن عصره، وانه بصفته تلك يعلي من شأن موضوعات على

حساب موضوعات أخرى، وانه معني بتراجع ثقافة قديمة بأكثر مما هو مهتم ببروز مجتمع جديد أو اقتصاد جديد.

يحرص كاتب المقال على أن يؤكد لنا أن عالم كاواباتا هو عالم خاص، قوامه الثقافة والجمال، عالم ينتمي إلى ما يعرف بالمدرسة الغنائية في الكتابة اليابانية، فهو يرفض بصورة واعية ما يعرف بالمدرسة البروليتارية، التي كان لها حضورها الكبير خلال دراسته الجامعية في عشرينيات القرن العشرين، وهو يتجنب التعليق على المشكلات الاجتماعية والسياسية، على الأقل في أعماله الأدبية، على امتداد حياته العملية.

ليس براون وحده هو الذي يرى عالم كاواباتا بهذا المنظار، وإنما نجد أنفسنا حيال مثل هذه الرؤية في واحد من أكثر النصوص اليابانية شهرة على الاطلاق، وهو نص المحاضرة التي ألقاها الروائي الياباني كينزابورو أوى في حفل تلقيه جائزة نوبل للأدب، حيث يقول قُبيل ختام محاضرته التي تحمل عنوان «اليابان والغامض وأنا»، التي منحت عنوانها لكتاب صادر عن دار كودانشا إنترناشيونال عام ١٩٩٥ إن كاواباتا يحدّد هويته في خطاب قبوله الجائزة نفسها، الذي حمل عنوان «اليابان والجميل وأنا» لا باعتباره ينتمي بصورة جوهرية إلى تقاليد فلسفة الزن والحساسية الجمالية التي تسود الأدب الكلاسيكي للشرق فحسب، وانما هو يحرص على التمييز بين الخواء كسمة من سمات أعماله وبين النزعة العدمية المنتمية إلى الغرب.

لست أريد خوض غمار مناقشة ما إذا كانت هذه الطروحات يواكبها الصواب من عدمه، فمن الواضح أن ما مكان مثل هذه المناقشة ليس المقدمة الماثلة بين أيدينا هنا.

لكنني أريد أن أشدِّد على أنه حتى إذا قبلنا بالتسليم بأن عالم كاواباتا هو عالم التقاليد القديمة، فإنه قد شاد صرح هذا العالم بآلة من الأساليب الفنية ذات الصلة الوثيقة بالحداثة.

مرة أخرى فإن هذه الالتفاتة ليست لي، وإنما هي للباحث الأميركي الكبير دونالد كين، الذي يشدد في صفحة ٣٢ من كتابه «خمسة روائيين يابانيين محدثين» على أن كاواباتا قد حرص على أن يؤكد في سلسلة من المقالات كتبها لحركة «الحسيون الجدد» في مستهل حياته العملية على أن الجدة هي كل شيء، وأعرب عن ضجره من أنماط التعبير المكرسة في التقاليد الأدبية اليابانية.

فلنقرأ معاً هذه الفقرة الدالة من مقال مبكر لكاواباتا، حيث يقول: «تتقد عيوننا بالرغبة في معرفة المجهول. والتحيات التي نتبادلها فيما بيننا هي تعبيرات عن الابتهاج لقدرتنا على مناقشة كل ما هو جديد. وإذا كان رجل يقول: (صباح الخير)، فيرد عليه آخر (صباح الخير)، فإن الأمر مضجر. وقد سئمنا من عدم تغير الأدب، كما تطل الشمس اليوم من الشرق تماماً كما أطلت بالأمس. ومن المثير للاهتمام بصفة أكبر بالنسبة لرجل أن يقول: (القرد الوليد يسير متدليا

من بطن أمه)، ويرد آخر: (طيور البلشون البيضاء لها فوائم طويلة حقاً. أليس كذلك؟.

أياً كان الأمر،فإن الطابع الخلافي لهذا النقاش هو، على وجه الدقة، الذي يؤكد الأهمية الاستثنائية للقصص التي نقدمها للقارىء العربي هنا.

هذه القصص، في معظمها، تعكس مجموعة من الخواص المهمة، في اعتقادنا أن أبرزها ما يلي:

١ - أنها تعكس توظيفاً مدهشاً للأساليب الفنية الحداثية في القص، وفي مقدمتها السوريالية.

٢ - أن نعتها مستقطرة على نحو مدهش، فهي تحشد أقصى قدر من المعاني في أقل كلمات ممكنة، في رفض للنزوع إلى الاستطراد والاسترسال الذي سنجده في العديد من أعمال الأدب الياباني في المرحلة التي شهدت ابداع هذه المجموعة.

٣ - إنها غالباً تعالج العلاقة بين اللغة والوجود، الكلمات والماضي، انتزاع الوجود وفقدان امتلاك المرء لذاته التاريخية.

٤ - إنها تردد أصداء جانب من كتابات كاواباتا التي تنتمي إلى وقت سابق، ولكن في قوالب مختلفة بشكل أو بآخر. وبمعنى ما فإن المؤلف يتطلع عبرها إلى الوراء، مستجيباً لماضيه، حتى فيما هو يستجيب لنداءات مستقبله.

٥ - إن التأمل في الموت يوشك أن يشكل خطاً ناظماً في معظم قطع المجموعة، وهو أمر لا يمكن أن يكون مدهشاً للقراء، حيث أن العديد من أعمال كاواباتا المبكرة منها والأخيرة على السواء لا تعدو أن تكون تأملاً في الموت بشكل أو بآخر.

في هذا الاطار العريض من الخصائص والسمات المميزة لأعمال هذه المجموعة، دعنا ننتقل إلى ما سبق لنا أن وعدنا به القارىء، وهو تقديم قراءة في أربعة أعمال مما تضمه المجموعة تشكل منهاجاً يمكن أن يعتمده القارىء مع باقي أعمال المجموعة.

أولاً - ذراع واحدة:

من ناحية التصنيف، فإن هذا العمل هو «نوڤيللا» أي رواية قصيرة، أو قصة طويلة، ومن المهم إلى أبعد الحدود أن يدرك القارىء الظروف التي كتبت فيها، لكي يتاح له تفهم العالم الخلفي الذي نبعت منه.

عندما انتهى كاواباتا من إصدار روايته «العاصمة القديمة» في صورة حلقات متتابعة في ١٩٦١، أمضى وقتاً طويلاً في محاولة تدارك المفارقات القائمة في حبكتها، وكتب في خاتمة العمل مشيراً إلى أن ادمانه العقاقير التي تساعد على التغلب على الأرق قد أصبح شديداً خلال الفترة التي عكف فيها على

تأليف الرواية. ومن المفترض أن هذا الإدمان يفسر العيوب العديدة التي تظهر في نص الرواية، وهي العيوب التي لم يكن بالوسع تداركها جميعها.

بعيد إكمال «العاصمة القديمة»،توقف كاواباتا عن تناول عقاقير معالجة الأرق، ولكن الأعراض الانسحابية كانت من الشدة بحيث أنه تعرض لغيبوبة، دامت عشرة أيام في المستشفى الذي كان يعالج به.

بينما كان كاواباتا لايزال يعاني من التأثيرات السلبية المواكبة لمرحلة ما بعد التخلص من الادمان مباشرة، كتب في عامي ١٩٦٣ و١٩٦٤ «ذراع واحدة» التي لايتردد دونالد كين في وصفها بأنها آخر عمل مهم من أعمال القص التي تركها لنا كاواباتا.

كما سنرى حالاً، فإن هذه الرواية القصيرة تستهل بصورة مفزعة حقاً بالكلمات التالية: «قالت الفتاة: (بمقدوري اعارتك إحدى ذراعيَّ الليلة). إنتزعت ذراعها اليمنى من كتفها، وبيدها اليسرى أراحتها على ركبتي».

في هذه الرواية القصيرة المدهشة، نجد أن الرواية - في إحدى المرات النادرة التي يستخدم خلالها كاواباتا ضمير المتكلم في السرد منذ «راقصة إيزو». يدخل في حوار ممتد مع الذراع، حتى بينما تتداعى إلى ذهنه ذكريات النساء الأخريات، اللواتي كان قد عرفهن، وقد حرّكتها من مرقدها المصادفات التي يواجهها.

يرقد الراوية وذراع الفتاة معاً بسلام بعض الوقت، لكنه يقرر فجأة آخر قرار يمكن أن يخطر ببالنا، وهو إلصاق ذراع الفتاة بجسمه.

هكذا فإنه لايتردد في القول: «في غيبوبة، نزعت ذراعي اليمنى، وأحللت ذراع الفتاة محلها».

خلافاً لكل توقعاتنا، فإن صاحبنا الراوية يغفو في نوم هادىء، لكنه - بالطبع - عندما يستيقظ يوشك أن يقفز من موضعه فزعاً لرؤية ذراعه ممددة على الفراش، فنراه يبادر مسرعاً إلى انتزاع ذراع الفتاة، ليحل محلها ذراعه.

ذلك لا يمنعه، في نهاية المطاف، من أن يحنو على ذراع الفتاة، فيعانقها، ويقبلها، وقد استبد به الحنين إلى الفتاة.

على الرغم من أن الراوية في الثلاثينيات من عمره، وليس بالرجل الموغل في مسيرة السنين، فإن الموقف الذي يبديه نحو ذراع الفتاة وقدرته على رصد عذريتها، حتى من استدارة كتفها فحسب، كل ذلك يعيد إلى الذهن العجوز إيجوتشي، البطل العتيد لرواية كاواباتا «بيت الجميلات النائمات» التي أبدى جابرييل جارسيا ماركيز إعجابه الشديد بها، وتمنى لو كان مؤلفها.

سنلاحظ، على الفور تقريباً، أن الذراع - خلافاً للشابات اللواتي يتم تحديرهن في «بيت الجميلات النائمات» بمقدورها الحديث، بل والتعبير بوضوح عما تحبه وما تكرهه.

ورغبة الراوية في جعل جمالها العذري جزءاً من ذاته هي رغبة لاسبيل إلى تحقيقها، وهو ينتزع ذراعها، كأنما في غمار الانزعاج من تدنيسه للجمال. غير أنه، في نهاية المطاف، يتشبث بها، متمنياً أن تصبح الذراع الفتاة ذاتها.

يعرب دونالد كين في كتابه «فجر إلى الغرب» عن اعتقاده بأنه ربما لن يقدّر لنا أبداً اكتشاف القصد من رواية «ذراع واحدة» على وجه الدقة، ويشير إلى أنه ربما لم يكن في ذهن كاواباتا معنى واحد بعينه عندما عكف على كتابتها، بل ربما كان تحت تأثير عقاقير مكافحة الأرق عندما كتبها. ولكن من الممكن قراءة هذا العمل من أجل تأمل لحظات الإدراك الرهيبة التي تتخلله، حتى وإن لم يسبر المرء غور المعنى المقصود من ورائه.

ما يقوله كين هنا هو، بالطبع، موضع مناقشة، في أفضل الأحوال، لكننا تهمنا اشارته إلى أن: «التكنيك المستخدم هو تكنيك السوريالية، وهو ما يشكل عودة من جانب كاواباتا إلى تجارب مرحلته الأكثر تبكيراً».

من المهم أيضاً أن تتذكر أنه بُعيد قيام كاواباتا بنشر «ذراع واحدة»، وضعها الناقد ساساكي كييتشي موضع المقارنة مع لوحات مارك شاجال، وأشار إلى أن الفانتازيا التي تضمها تجعل هذه البلورة لموضوعات كاواباتا المرتبطة به جذابة بشكل خاص.

من منظورنا، فإنه ربما كان من أهم خواص هذه الرواية القصيرة قابليتها للتفسير على أكثر من مستوى، وعبر أكثر من تصور.

لهذا، على وجه الدقة، فإنه ليس من الغريب أن نجد بروفيسور جوين بوردمان بيترسن تخرج علينا بتفسيرات مختلفة لهذه الرواية القصيرة، في الفصل الثالث المخصص لكاواباتا من كتابها «القمر في الماء - فهم تانيزاكي، كاواباتا وميشيما» الصادر عن مطبعة جامعة هاواي في هونولولو عام ١٩٩٢.

ترى بروفيسور بيترسن أن رواية «ذراع واحدة» أو «كاتا-أودي» باليابانية قد تبدو، لأول وهلة، مندرجة مع الاهتمامات المبكرة من جانب جماعة «الحسيون الجدد» بحالات الهلوسة، غير أن الهلوسة هنا ليست، في حقيقة الأمر، إلا أداة لنقل المعاني المرتبطة تقليدياً بعالم كاواباتا الابداعي.

تستند بروفيسور بيترسن إلى عشر سنوات كاملة أمضتها في اليابان، قضت جانباً ليس باليسير منها في محاولة فهم عالم كاوباتا الابداعي، في مبادرتها إلى القول إن هذه الرواية القصيرة يمكن قراءتها، على أحد المستويات، باعتبارها تلاعباً بالتعبير الاستهلالي: «بمقدوري إعارتك إحدى ذراعيّ الليلة».

وهي تشير إلى أن الرواية تمض لتشمل إشارات غير مألوفة

إلى «العهد الجديد»، في مفارقة للعبارات البوذية التي يوردها كاواباتا عادة. وهي تورد أمثلة من واقع النص للإيحاء بأن الكلمات يمكن أنت نطبق على رجل أو امرأة على السواء.

وتستدرك، على الفور، مشيرة إلى أن هذه العناصر لابد من التعامل معها بما يتناغم مع الفقرة الاستهلالية للنص: «قالت الفتاة: (بمقدوري إعارتك إحدى ذراعيّ الليلة). انتزعت ذراعها اليمنى من كتفها. وبيدها اليسرى أراحتها على ركبتي».

ترى بروفيسور بينرسن أنه ها هنا، في هذه الأسطر على وجه الدقة، تكمن الإيماءات الملتبسة، التي تعتبر جوهرية بالنسبة لتفسير الأحداث اللاحقة.

وهي تقترح أنه ربما كانت ها هنا ايماءة إلى قصة البوذيساتفا كانون، التي تدور حول «تأجير» ذراعيها في وقت الحاجة، وتقول إن هذا الاقتراح، على الأقل، سيكون أقرب إلى رواية كاواباتا القصيرة من فظائع مسرح الكابوكي، مثل قدوم هولة ايباراكي لاستعادة ذراعها من محارب كان قد قام ببترها.

تمضي بروفيسور بيترسن في تفسيرها، الذي يستحق الاهتمام على الرغم مما يكتنفه من تعقيد وغموض، فتشير إلى أن الايماءات المتكررة إلى اشارات اليسار واليمين تعيد إلى الذهن الرمزية البوذية الباطنية، ويتم تطوير هذه التلميحات

بصورة إضافية في غمار استخدام كاواباتا للمجموعات الخمس، كما في عدد الأنوار، وتلميحات رمزية وضعية الأيدي، الأمر الذي يضع، في نهاية المطاف، «ذراع واحدة» في السياق الفلسفي المعتاد لكاواباتا.

تنتقل بروفيسور جوين بيترسون في محاولة تفسيرها لأبعاد رواية «ذراع واحدة» إلى مستوى آخر، فتقول في صفحة ١٧٩ من كتابها إن مناخ هذا العمل بما فيه من ضباب وظلام مع التماعات لونية - قرمزية، ارجوانية وأرجوانية شاحبة - يضم عالماً حلميا، فيما يقوم الراوية بحمل الذراع الأثيرة إلى غرفته الموحشة.

هنا تبرز الذراع باعتبارها ايماءة إلى البعد الحزين والبعيد عن الاكتمال الذي يعانيه رجل تطبق عليه الوحشة، وهو معنى يتم ابرازه بصفة خاصة في الحوار مع الذراع، وفي الطريقة التي من خلالها تغدو حضوراً، فتاة تحادث الرواية، تتلمسه، ولبعض الوقت تكمله.

استدارة كتفها، بعد تثبيتها محل ذراع الراوية، تجعله يفكر في استدارة نهديها، وثمة سكينة تسود عندما يتدفق دمها في عروقه، وهو يستمتع بنوم «عذب».

على الرغم من ذلك، فإن الراوية يستيقظ صارخاً على ملمس ذراعه اليمنى (المنفصلة عنه) الذي تجزع منه النفس. وبسرعة ينتزع الذراع المستعارة، ويطيح بها بعيداً عنه، ويحل محلها طرفه الصحيح.

غير أنه يحس بهذه الايماءة كما لو كانت عملية قتل، ويصاحب الانفصال شعور بالحزن، يجعله الاحساس بالفقدان ظاهراً للعيان في الذراع المنحاة جانباً، التي تقبع الآن شاحبة وهامدة.

تعرب بروفيسور بيترسن عن اعتقاده بأن الطبيعة الجنسية للحلم والواقع في «ذراع واحدة» لا تكون أبداً بعيداً عن السطح، ومع ذلك فإنها تتم معالجتها على الدوام برهافة قصيدة «واكا» و«رينجا» وبجمال شكلاني، يعيد إلى الأذهان أدوات حفل الشاي في رواية «سرب الطيور البيضاء».

طبيعة ملمس لحم الفتاة يتم نقلها بالاشارة إلى ملمس برعم في مزهرية زجاجية، واستحالة الحلم تتجلي في السقوط السابق لأوانه لبتلات البرعم.

ثمة ايروتيكية رهيفة في الطريقة التي تلتف بها أصابع الفتاة حول السداة والمدقة (لاحظ أن اللغة اليابانية لاتميز بين أعضاء التذكير والتأنيث في النبات).

يجد القارىء احساساً يابانياً عارماً بالجمال يتوالى، مراراً وتكراراً، على نحو ما نجد في الخط الرشيق لعنق الفتاة. وتلمح الظلمة إلى الفعل الجنسي، بينما تربط الألفاظ المجانسة جناساً تاماً ظلام الليل بالعالم خارج النافذة وبعلاقة الراوية بالفتاة التي يحمل ذراعها.

تعبر الكلمات الأخيرة، برهافة بالغة، عن الفعل الجنسي

من خلال عبارة تقليدية: «لو أن ندى المرأة يهل من بين أظافرها الطويلة وأطراف أصابعها!».

من المهم هنا ملاحظة المفارقة التي كان يمكن أن تنشأ لو أن يوكيو ميشيما هو الذي كانت بين يديه ذراعان منفصلتان وأفكار عن نهدين ورجل في غرفة تغمرها الوحشة، فمن المتصور أنه كان يمكن أن يقدم لنا عملاً حافلاً بسفك الدماء.

أما كاواباتا فإنه يحافظ على نغمته المرهفة، حيث تتناهى إلينا عبر العمل الذي يقدمه لنا أصوات مراوغة كتلك التي تتردد في رواية «ضجيج الجبل»، وأصوات غامضة كدوي الأرض في «بلاد الثلج».

في «ذراع واحدة»، كما في أعمال أخرى لكاواباتا، تستخدم جماليات يابانية وصور في عمق القمر في الماء لإثراء مشاعر كاواباتا الحادة بالعلاقات والأحاسيس.

بالمثل فإن صور كاواباتا المتعلقة بالفصول تتجاوز صور الأدب في المرحلة الهايانية وشعر الهايكو، لتحدث تأثيرها على الصعيدين الجمالي والنفسي، حتى في أكثر المشاهد حداثة.

ثانياً - الصمت:

ربما يمكن أن نحقق مقاربة أولية مفيدة، أقرب إلى مصافحة أولى منها إلى أي شيء آخر، مع قصة «الصمت» التي

تضمها هذه المجموعة إذا ألقينا نظرة على ما يقوله عنها مترجمها من اليابانية إلى الانجليزية، وهو المترجم والباحث مايكل إميريتش.

وهو يقول في هذا الصدد: «تركتني قراءتي الأولى لقصة (الصمت) مذهولاً، فياله من تعبير حاد عن جماليات كاواباتا وتفكيره.. عن(اللاشيء) الذي يناقشه.. عن الكثير جداً مما يقبع في صميم روائع تنتمي إلى مرحلة ما بعد الحرب مثل رواية (لاعب الجو).. عن معنى حبة الكستناء الساقطة التي يختار شينجوا ألا يأتي على ذكرها لزوجته في رواية (ضجيج الجبل) والحضور الذي لا يغيب في زواجهما لـ (الفراغ) الذي يتركه صمته. لقد كان قصة (الصمت) محورية في مجمل أعمال كاواباتا.

لاشك أن المعاني الحافلة التي ينقلها لنا مايكل إميريتش هنا تبرر طول هذا المقتطف الذي نقلتاه عنه.

لكننا نريد أن نلتقط منه طرف الخيط لنمضي به شوطاً أبعد، فلا شك أن الكثيرين منا يعرفون أن نقاد الأدب الياباني يميلون إلى التشديد على حقيقة انجذاب كاواباتا، في أواخر أيامه، إلى العنصر الذي يطلق عليه باليابانية اسم «ماكاي» (أو عالم الشياطين) والجنون والاستخدام الملغز للتصوير القاطع، ومع ذلك فإن كلاً من روايته القصيرة «ذراع واحدة» وقصة «الصمت» يمكن أن توصفا بأنهما نموذجان مثاليان لأعماله على نحو ما هي معروفة في اليابان.

إذا كان مايكل إميريتش لم يتردد في الاعتراف بذهوله حيال قصة «الصمت»، فإنني بدوري لا أتردد في الاقرار بالذهول الذي اجتاحني حيالها، ولكن لأسباب مختلفة كل الاختلاف عن تلك التي أوردها إميريتش.

سر هذا الذهول الذي اعتراني حيال «الصمت» يرجع في المقام الأول إلى طابعها الرؤيوي والاستشرافي، الذي لا يمكنك معه إلا أن تتساءل عما إذا لم تكن هنا بازاء حالة فريدة من حالات الاطلال في أفق الغيب.

في قصة «الصمت»، نحن على موعد مع كاتب شاب يستقل سيارة أجرة من كاماكورا، حيث يقيم، إلى زوشي المجاورة. وهناك يزور كاتباً آخر، رجلاً موغلاً في العمر، كفَّ عن الكلام وعن الكتابة، وأسلم عنانه للصمت، فمضى به في وحشة أيامه موغلاً.

لقد كان كاواباتا يقيم في كاماكورا، وكانت له شقة صغيرة في زوشي، اعتاد أن يمضي إليها، ليعكف على كتابة مخطوطاته فيها.

كم نعلم جميعاً، فإنه في شقة زوشي الصغيرة هذه انتحر كاواباتا باستنشاق الغاز في ١٦ ابريل ١٩٧٢، من دون أن يترك مذكرة انتحار أو ملاحظة تشير من قريب أو من بعيد إلى حقيقة ما جرى.

ونقل مقال تأبيني شهير، نشر في أعقاب هذا اليوم

الحزين، عن كاواباتا عبارته التي تهز الوجدان هزاً: «إن موتاً صامتاً هو كلمة «لا تنتهي».

ربما لم يكن كاواباتا يعتزم الانتحار، عندما كتب «الصمت» في ١٩٥٤، لكن ذلك لا ينفي أننا نلمح، فيما بين سطور القصة، أنه قد استشرف بالفعل قدوم نوع مختلف من الصمت إلى عالمه، الصمت المقترن بالشهرة، الصمت المرتبط بالمرض، الصمت الذي يداهم كاتباً ينفق وقته في جعل الكتابة شيئاً ممكناً بالنسبة للآخرين، وقد استشرف مقدم هذا الصمت لان كرمه حيال الآخرين كان، في نهاية المطاف، نابعاً من الشعور بالمسؤولية، لانه هو نفسه أخذ على كاهله عبء الصمت، وقد لا نبالغ إذا قلنا إن هذه المجموعة الماثلة بين يديّ القارىء تنهض من رحاب الصمت.

ثالثاً: يوميورا:

كان الناقد الياباني إيتو ساي هو الذي أشار إلى أن كاواباتا كتب قصة «يوميورا» بحسبانها تكملة لعمله المبكر الشهير «راقصة ايزو».

مضى إيتو ساي إلى القول إن المرأة التي تظهر عند باب المؤلف الموغل في العمر في «يوميورا» هي نفسها الراقصة الصبيانية، التي رأيناها في العمل الأقدم عهداً، وقد غدت الآن امرأة مكتملة النضج.

إذا كان من المعتقد أن «راقصة إيزو» هي عمل منتزع من أحداث حقيقية، فإن السؤال الذي يفرض نفسه، على الفور تقريباً، هو: هل قصة «يوميورا» تضم بدورها نوعاً من الحقيقة المموهه في إهابها؟ بتعبير آخر يمكننا التساؤل: «هل يوميورا عمل شخصي بصفة خاصة؟

من المحقق أن الكثيرمن القراء سيترددون في الاستمرار في طرح هذه النوعية من علامات الاستفهام، دع جانباً محاولة التصدي للبحث عن إجابات عنها، وذلك من منطلق أنها تضرب جذورها في أرض التكهنات.

ليكن، ولكن مثل هؤلاء القراء عليهم أن يتذكروا الحقيقة البسيطة المتمثلة في أن كاواباتا نفسه هو الذي أدرج كلا من «راقصة إيزو» «و«يوميورا» في مجموعة من الأعمال المفضلة لديه نُشرت بين دفتي كتاب قبيل فوزه بجائزة نوبل للأدب في ١٩٦٨.

من المهم أن ننتبه إلى أن ذلك الكتاب كان يضم عدداً محدوداً للغاية من القصص القصيرة، بحيث أنه يبدو من المنطقي تماماً افتراض أن كاواباتا كان مولعاً بصورة استثنائية بهاتين القصتين، من منطلق انهما مترابطتان بطريقة أو بأخرى في اطار عالمه العاطفي، أو ربما أن الصلة التي تصل بينهما هي المشار إليها على وجه التحديد، وهي أن «يوميورا» ليست إلا امتداد عبر هوة زمنية لـ «راقصة ايزو».

رابعاً - طبيعة:

سبقت لنا الإشارة إلى عمل كاواباتا الذي يحمل عنوان «يوميات عامي السادس عشر». وكل من أتيح له الالمام بهذا العمل لابد له من أن يعرف أن هناك تماساً مدهشاً بين هذا العمل وبين العمل الذي يحمل عنوان «طبيعة» المندرج في مجموعتنا هذه.

سيعود كاواباتا، على امتداد مشواره الابداعي الطويل، مراراً وتكراراً إلى تلك الأيام القليلة التي سبقت رحيل جده عن عالمنا. ولكن ما من موضع في كتاباته سيفوق ذلك النص المبكر الذي اقتطفنا منه مقطعاً في هذه المقدمة يساعد فيه الحفيد جده المتألم على التبول.

ومن المحقق أن القارىء توقف، من تلقاء نفسه، عند تلك المفارقة الوحشية في ذلك المقتطف بين صوت تدفق بول العجوز المحتضر وبين صوت انسياب مياه الغدير النقي المتدفق في الوادي في ذهن الحفيد، في تأكيد لحدة التجربة وزخمها.

«يوميات عامي السادس عشر» عمل يرسم بتفصيل بالغ الدقة الحياة التي عاشها كاواباتا في انتظار وفاة جده الضرير، الذي أخذ منه المرض، حيث تابعنا قيامه باطعام الجد المحتضر، مساعدته على العناية بنفسه، الهرب من الدار مفعماً بالغضب والضيق والحنق والعودة إليه ركضاً، ومفعماً بالحزن.

ربما كان من الممكن قراءة «طبيعة» باعتبارها التنقيح الذي قام به كاواباتا، الأكثر إيغالاً في مسيرة العمر، في مرحلة ما بعد الحرب، لذلك العمل المبكر للغاية.

في «طبيعة» نحن على موعد مع محاولة لوضع شبح قديم في مقره الأخير، بعد أن هام طويلاً في خواء وحشي، وكل ما هنالك أن بناء قصة «طبيعة» هو شيء أكثر تعقيداً.

ينبع جانب من هذا التعقيد من أن الرجل المحتضر هو الآن جد شخص آخر، والراوية لا يعرف شيئاً إلا ما يقال له.

لقد كتب كاواباتا في خاتمته لـ «يوميات عامي السادس عشر» في ١٩٥٠ يقول إن ما أدهشه أشد الدهشة فيما هو يتطلع إلى الوراء عبر هذا العمل كان «اللغز المتمثل في كوني عاجزاً عن تذكر هذه الأمور، وذلك على الرغم من أنني عايشتها يوما». وهذا اللغز منغمس بعمق في قصة طبيعة.

يقيني أن القارىء قادر على الانطلاق من القراءات التي قدمتها لهذه الأعمال الأربعة لانجاز قراءات مناظرة لباقي قطع المجموعة، وربما على الوصول إلى ما يتجاوزها عمقاً وتبصراً.

.. وبعد، فهذا كتاب يجمع بين العمق والقدرة على الامتاع والوصول بنا إلى مشارف الرؤية الواضحة لجوانب مدهشة في الطبيعة الانسانية وصلتها بالكون الرحب بكل ما فيه ومن فيه، ومن هنا تنبع ثقتي من أنه قادر على مخاطبة من أحبوا

ترجمتي لكتاب «قصص بحجم راحة اليد»، وهم في غالبيتهم الكاسحة من الشباب القادر على الانجاز والابداع. فلعلهم يتابعون، بحب وتعاطف، ما أحاول تقديمه على هذه الصفحات.

كامل يوسف حسين

ذراع واحدة

قالت الفتاة:

- بمقدوري إعارتك إحدى ذراعيَّ الليلة.

انتزعت ذراعها اليمنى من كتفها، وبيدها اليسرى أراحتها على ركبتي.

- شكراً لك.

قلتها، وتطلعت إلى ركبتي، وقد نفذ دفء الذراع إليها.

- سأضع الخاتم في أحد أصابعها، لأذكرك بأنها ذراعي.

ابتسمت، ورفعت ذراعها اليسرى إلى صدري، قائلة:

- أرجوك!

كان من الصعب عليها، وهي بذراع واحدة، أن تنزع الخاتم.

- أهو خاتم خطبة؟

- كلا، إنه تذكار من أمي.

كان خاتماً فضياً، مرصعاً بماسات صغيرة.

- ربما يبدو كخاتم خطبة، لكني لا أهتم بذلك، وإنما أتجمل به، ثم إنني عندما أنزعه يبدو الأمر كما لو كنت أفارق أمي.

رفعت الذراع عن ركبتي، ونزعت الخاتم من اصبع ذراعها الأخرى، ووضعته في إصبع ذراعها المائل أمامي.

- أهذا هو الإصبع المقصود؟

أومأت برأسها، قائلة:

- أجل، لسوف تبدو ذراعاً صناعية، ما لم ينثن المرفق والأصابع. لن يروقك ذلك. دعني أجعلها تنثني من أجلك.

أخذت ذراعها اليمنى من ركبتي، وضغطت شفتيها برفق عليها، ثم ضغطتهما إلى أشاجع الأصابع.

- الآن، ستتحرك.

استعدت الذراع، قائلاً:

- شكراً لك، أو تظنين أنها ستتكلم؟ هل ستكلمني؟

- إنها لا تقوم إلا بما تفعله الذراع. لئن تحدثت ، فإني سيراودني الخوف من استعادتها ثانية. ولكن حاول القيام

بذلك، على أية حال، ذلك أنها ينبغي على الأقل أن تسمع ما تقوله، إذا أحسنت معاملتها.

- سأحسن معاملتها.

قالت، وهي تمس ذراعها اليمنى بذراعها اليسرى، كأنما تمنحها روحاً خاصة بها:

- سأراكِ ثانية. أنتِ له، ولكن الليلة فحسب.

حينما تطلعت إليّ، بدا أنها تتجلد لتحبس دموعها.

قالت:

- لا أحسب أنك ستستبدلها بذراعك، ولكن لن يكون هناك ضير من هذا، فقم به!

- شكراً لك.

دسست ذراعها في معطفي، وخرجت إلى الشوارع، التي عمها الضباب، خشيت أنني سأبدو غريب الهيئة، إذا ركبت سيارة أجرة، أو حافلة، سيتحول الأمر إلى فضيحة، إذا قُدِّر للذراع التي انفصلت الآن عن جسم الفتاة، أن تصرخ أو تنخرط في البكاء.

ضممتها إلى صدري، باتجاه الجنب، وقد التفت يدي اليمنى حول الاستدارة عند مفصل الكتف. أخفاها المعطف الواقعي من المطر، وكان عليّ أن أمس المعطف بين الفينة والأخرى بيدي اليسرى للتيقن من أن الذراع لاتزال هناك. ربما كنت أتأكد

لامن وجود الذراع، وإنما من سعادتي.

كانت الفتاة قد نزعت الذراع عند الموضع الذي أحببته. وكان موضعاً لدنًا، وملتفاً - أتراه كان في أعلى الذراع أم عند بداية الكتف؟ كانت الاستدارة من النوع الذي ينتمي إلى فتاة غربية، جميلة، الأمر الذي يعد نادراً في فتاة يابانية. كانت في الفتاة ذاتها، استدارة بديعة، متألقة، مثل جسم كروي يتوهج بضوء خافت، موحٍ بالانتعاش. وعندما تفقد الفتاة طهارتها، فإن هذه الاستدارة الرهيفة تذوي، وتغدو مترهلة. تجعلني استدارة الذراع وهي شيء لا يدوم طويلاً، في حياة الفتاة الجميلة، أحس بالتفاف جسمها. لن يكون نهداها كبيرين، وإنما هما نهدان خفران، لا يتجاوزان ما يملأ الكفين، بضان، تعلق لدونتهما بالكف التي تمسهما. وكان بمقدوري أن استشعر في استدارة ذراعها ساقيها، فيما هي تغذّ السير. ستمضي بهما في خفة، مثلما طائر صغير، أو فراشة تتقافز من زهرة إلى أخرى. وسيكون اللحن المراوغ ذاته على طرف لسانها، عندما تمنح قبلة.

كان قد حان ذلك الموسم، الذي يتم فيه الانتقال إلى ارتداء فساتين بلا أكمام، وقد حظيت كتف الفتاة، التي عُريت حديثاً، بلون البشرة التي لم تعتد على لذعة الهواء المباشرة. وكانت تتمتع بوهج برعم تندى في كنف الربيع، ولم يصوّحه الصيف بعد. وكنت قد ابتعت، في ذلك الصباح، زهرة مجنولية مبرعمة، ووضعتها في مزهرية زجاجية. وكانت استدارة ذراع

الفتاة تشبه البرعم الأبيض الكبير. وكانت قصة فستانها مترامية إلى الخلف، على نحو يفوق معظم الفساتين التي لا أذرع لها. وقد عُري مفصل الكتف، والكتف ذاتها. وتألق الفستان، المتخذ من الحرير قاتم الخضرة، الذي يوشك أن يكون أسود اللون، بألق ناعم، لدن. وتجلت الفتاة في منحدر الكتفين المستدير من الثوب، ذلك المنحدر الذي رسم موجة رقيقة مع انتفاخ الظهر. وإذ يُنظر بشكل مائل من الخلف إلى اللحم، من الكتفين المستديرين إلى الجيد الأتلع، الرقيق، فإن هذا اللحم يبدو كما لو كان قد وصل إلى نقطة توقف فجائية، عند قاعدة الشعر المرفوع إلى أعلى، وقد بدا الشعر الفاحم كما لو كان يلقي ظلاً متوهجاً على استدارة الكتفين.

كانت قد أحست بأنني أعتقد أنها جميلة، وهكذا أعارتني ذراعها اليمنى، من أجل الاستدارة القابعة هناك عند الكتفين.

وإذ أخفيت الذراع بحرص تحت معطفي الواقي من المطر، فقد بدت أكثر برودة من يدي. كنت أشعر بدوار من تسابق دقات قلبي. وأعرف أن يدي ستكون دافئة. أردت أن يظل الدفء على حاله، دفء الفتاة ذاتها، ونقلت البرودة الخفيفة في يدي إليَّ لذة الذراع. كانت كنهديها، لم يمسها رجل بعد.

ازداد الضباب كثافة، وأنذر الليل بانهمار المطر، وبلّل شعري المكشوف. كان بمقدوري سماع صوت المذياع، المنبعث من الغرفة الخلفية بصيدلية مغلقة. أعلن أن ثلاث طائرات عجزت عن الهبوط، في الضباط، فراحت تحلق فوق المطار تحليقاً

دائرياً، لمدة نصف ساعة، ومضى إلى لفت أنظار المستمتعين إلى الحقيقة القائلة بأن ساعات الحائط يُحتمل، في الليالي الرطبة، أن يجافيها الصواب في تحديد الوقت، وأن النوابض، في مثل هذه الليالي، تميل إلى الانكسار، إذا ضُغطت بأكثر مما ينبغي. تطلعت بناظري، باحثاً عن أنوار الطائرات المحلقة، لكنني لم أستطع مشاهدتها، فلم تكن هناك سماء. غزت الرطوبة الضاغطة أذني لتحدث صوتاً مبللاً، كصوت تقلب حشود من ديدان الأرض، وقفت أمام الصيدلية، في انتظار المزيد من النواهي. علمت أنه في مثل هذه الليالي، فإن الحيوانات المفترسة في حديقة الحيوانات، الأسود والنمور والفهود وما إليها، تزأر غاضبة في وجه الرطوبة، وأننا سنسمعها الآن. ودوى ضجيج، كأنه ضجيج الأرض، ثم علمت أن النساء الحوامل، والأشخاص المكتئبين ينبغي أن يأووا إلى فراشهم مبكرين، في مثل هذه الليالي، وأن النساء اللاتي مسحن بشراتهن بالعطور مباشرة يجدن، فيما بعد، أن من الصعوبة إزالتها.

ابتدعت عن زئير الضواري، وطاردني التحذير، المتعلق بالعطور، فقد أشعرني ذلك الزئير الغاضب بالقلق، وواصلت المسير، خشية أن ينتقل شعوري بعدم الارتياح إلى ذراع الفتاة. لم تكن الفتاة من الحوامل ولا المكتئبين، لكنه بدا لي أنها الليلة يتعين عليها، وهي بذراع واحدة فقط، أن تأخذ بنصيحة المذياع، وأن تأوي إلى الفراش مسرعة. وعلقت الأمل على أنها

ستنعم بالطمأنينة في نومها.

فيما رحت أغذّ السير عبر الطريق، ضممت يدي اليسرى إلى معطفي الواقي من المطر. دوّى صوت بوق سيارة. مسّ شيء ما جانبي، فانثنيت مبتعداً، ربما أخاف البوق الذراع، فقد تشنجت الأصابع.

قلت:

- لا تخافي، كانت السيارة بعيدة، وما كان بوسع قائدها أن يتبين الطريق، ولذلك أطلق العنان للبوق.

ولأنني كنت أمسك بشيء مهم، بالنسبة لي، فقد تطلعت إلى الجانبين، وكان صوت بوق السيارة بعيداً للغاية، حتى أنني ظننت أنه من المحتم أن شخصاً آخر هو المقصود به. نظرت في الاتجاه الذي انبعث منه، لكنني لم أستطع رؤية أحد. لم يكن بمقدوري إلا رؤية الأضواء الأمامية، وقد اتسع نطاقها، لتستحيل إلى بقعة مضببة من الأرجوان الخابي، وهو ضوء غريب بالنسبة للمصابيح الأمامية للسيارات. وقفت على الحاجز الحجري، عند حافة الطريق، بعدما عبرته، وتابعت السيارة بناظريَّ، وهي تمضي منطلقة، كانت أمرأة ترتدي ثوباً قرمزياً هي التي تقودها. بدا لي أنها قد التفتت نحوي، وانحنت. أردت أن انطلق مبتعداً، خشية أن تكون الفتاة قد جاءت في طلب ذراعها، ثم تذكرت أنه ما كان بوسعها أن تقود السيارة بذراع واحدة فقط. ولكن ألم تر المرأة التي تقود

السيارة ما أحمله؟ ألم تشعر بالأمر من خلال حدسها الأنثوي؟ سيتعين عليّ الحرص على ألا ألتقي بإحدى بنات جنسها، قبل أن أبلغ شقتي. كانت الأضواء الخلفية أرجوانية خافتة كذلك. لم أعد أرى السيارة. في الضباب المتشح بالرماد طفت بقعة أرجوانية شاحبة، وانطلقت إلى البعيد.

غمغمت محدِّثا نفسي:

- إنها تنطلق بالسيارة دونما هدف، لا هدف على الاطلاق، اللهم إلا العكوف على القيادة. وبينما هي تنطلق بالسيارة ستختفي. وماذا كان ذاك الذي قبع في المقعد الخلفي؟

لا شيء، فيما يبدو. ترى أكان الشعور البالغ بالتوتر الذي سببه لي الخواء راجعاً إلى أنني أمضي حاملاً ذراع الفتاة؟ كانت السيارة التي تقودها تحمل ضباب الليل البارد الدبق. إذا لم يكن هذا الضوء الضارب إلى الأرجوان منبعثاً من جسمها فمن أين جاء؟ أترى من المستطاع أن الذراع التي أخفيتها قد لفّت في الخواء امرأة تقود سيارتها وحيدة في مثل هذه الليلة؟ أتراها أومأت من سيارتها إلى ذراع الفتاة؟ ربما كانت في مثل هذه الليلة ملائكة وأشباح بالخارج تحمي النساء. ربما لم تكن قد استقلت سيارة وإنما استقلت ضياء أرجوانياً. لم تكن انطلاقتها بلا هدف، وإنما راحت تتجسس على سري.

شققت طريقي، عائداً إلى شقتي، من دون لقاءات أخرى. وقفت مرهفاً السمع خارج الباب. انداح نور حشرة حباحب فوق

رأسي، واختفى. كان اقوى وأكبر من ان يكون لُحباحب. فارتددت منكمشاً، تدافعت اضواء عديدة أخرى كالحُباحب مبتعدة، واختفت قبل أن يتمكن الضباب الجاثم من امتصاصها. ترى هل اندفع وهج مستنقعي، نذير موت من نوع ما، ليستبقني منتظراً مقدمي؟ لكنني أدركت عندئذ أنها لا تعدو أن تكون سرباً من الفراشات الصغيرة، واذ انعكس الضوء على الأجنحة عند الباب توهجت كالحباحب، كانت أكبر من الحُباحب، ولكنها مقارنة بالفراشات كانت من الصغر بحيث يخلط المرء بينها.

تجنبت المصعد، وانسللت خلسة، صاعداً الدرج الضيق إلى الطابق الثالث، وقد صادفت صعوبة في فتح الباب، حيث لم أكن أعسر، وكلما بذلت المزيد من الجهد في المحاولة تفاقم ارتعاش يدي، كأنما في غمار فزع ما بعد اقتراف جريمة. لسوف ينتظرني شيء ما في الغرفة، التي اقطنها في عزلة. ألم تكن العزلة حضوراً؟ ومع وجود ذراع الفتاة، فانني لم أعد وحدي، وهكذا، فربما كانت عزلتي تنتظر لتتربص بي الدوائر.

قلت، وقد اخرجت ذراع الفتاة، عندما فتحت الباب أخيراً:

- تفضلي، مرحباً بك في حجرتي، سأضيء المصباح.

بدت الذراع وكأنها تقول:

- هل تخاف من شيء؟ أهناك شيء ما هنا؟

- أو تظنين أنه قد يكون هناك شيء ما؟

- أنني أشم شيئاً ما.

- تشمين؟ لابد أنك تشمين رائحتي، ألا ترين آثار ظلي هنالك في الظلمة؟ أمعني النظر! ربما كان ظلي ينتظر عودتي.

- أنها رائحةٌ طيبةٌ.

- آه، إنها زهرة المجنولية.

قلتها، وقد ومضت الفكرة في ذهني. أسعدني أنها ليست رائحة وحدتي العتيقة. برغم مجنولية يناسب ضيفتي الفاتنة. كنت قد أخذت في التعود على الظلام، وحتى في الظلام المطبق كنت أعرف موضع كل شيء.

- دعني أضيء المصباح!

إذ ندت هذه الكلمات عن ذراع، فقد بدت ملاحظة غريبة. أضافت:

- إنني لم أزر حجرتك من قبل.

- أشكرك، سيسعدني ذلك، لم يحدث أن أضاء أحد سواي المصابيح هنا من قبل قط.

أمسكت بالذراع، قبالة مفتاح الإنارة، قرب الباب، ضاغطاً، فأُنيرت المصابيح الخمسة كلها دفعة واحدة: في السقف، على المنضدة، قرب الفراش، في المطبخ وفي الحمام. لم أظنها يمكن أن تكون بمثل هذا التألق.

كانت زهرة المجنولية على قدر هائل من التفتح. وكانت ذلك

الصباح في مرحلة التبرعم، وما كان يمكن إلا أن تكون قد شرعت لتوها في التفتح، ومع ذلك، فقد تناثرت السدات على المائدة. أمر غريب، رحت أنظر بمزيد من التمعن إلى السدات على نحويفوق نظري إلى الزهرة البيضاء. التقطت واحدة أو اثنتين منها، وحدقت فيهما. شرعت ذراع الفتاة، الممددة على المائدة في التحرك. وقد بدت الأصابع مثل الديدان المسنمة، وجمعت السدات في راحتها، مضيت لإلقائها في سلة المهملات.

- يالها من رائحة نفاذة! إنها تغوص إلى قرارة بشرتي. ساعدني!

- لابد أنك متعبة، فلم تكن الرحلة سهلة. عليك بالراحة قليلاً!

قلتها، ووضعت الذراع في الفراش، وجلست إلى جوارها، ورحت أمسدها في رفق.

- كم هذا جميل! إنني أحبه.

لابد أن الذراع تتحدث عن الشرشف: فقد طبعت الزهور بثلاثة ألوان فيه على أرضية لازوردية، مما جعله متوهجاً بالحياة، بالنسبة لرجل يحيا وحيداً.

- إذن هنا نبيت ليلتنا. سأنعم بالهدوء البالغ.

- آه؟

- سأكون إلى جانبك، ولن أكون كذلك.

أمسكت اليد في رفق بيدي. تألقت الأظافر، المصقولة في عناية، بلون أحمر وردي خافت.

إزاء أظافري القصيرة الغليظة، بدت أظافرها متمتعة بجمال غريب، كأنها ما كانت تنتمي إلى كائن بشري. بأطراف أصابع كتلك ربما تتجاوز المرأة الانسانية المحض. أم تراها كانت تتبع الأنوثة ذاتها؟ قوقعة مضيئة مما قبع داخلها. بتلة تستحم في ندى الصباح - رحت أفكر في أوجه الشبه الواضحة. ومع ذلك لم أستطع التفكير في قوقعة أو بتلة يحاكي لونهما أو شكلهما أظافرها. لم يكن هناك ما يمكن أن يوضع موضع المقارنة مع أظافر الفتاة. كانت أكثر شفافية من قوقعة رقيقة، من بتلة رهيفة. بدا أنها تمسك بقطرة ندى، تنتمي إلى رحاب المأساة. وكل يوم وكل ليلة تصب طاقاتها إلى صقل هذا الجمال المأساوي. تغلغل الجمال في عزلتي. ربما حوَّل توقي وعزلتي أظافرها إلى ندى.

أرحت أصبعها الأصغر على الأصبع السبابة في يدي الطليقة، وفيما رحت أحدِّق في الأظفر الطويل، الملموم، تحسسته بإبهامي، لمس أصبعي أعلى أصبعها، الذي يحميه الأظفر فانثنى الإصبع، والمرفق أيضاً.

تساءلت:

- هل يدغدغك إصبعي؟ لابد أن الأمر كذلك.

كنت قد تحدثت، متخلياً عن حذري. عرفت أن الأطراف العليا لأصابع المرأة تكون حساسة، عندما تكون الأظافر طويلة. وهكذا، فقد أبلغت ذراع الفتاة بأنني قد عرفت نساء أخريات.

سبق لي أن علمت من أمرأة لم تكن أكبر بكثير من الفتاة التي أعارتني ذراعها، وإن فاقتها نضجاً وخبرة بالرجال، أن أطراف الأصابع، التي تخفيها الأظافر على هذا النحو، تكون غالباً بالغة الحساسية؛ إذ تعتاد المرأة على لمس الأشياء لا بأطراف أصابعها، وإنما بالأظافر، وبالتالي يثور إحساس بالدغدغة عندما يمس شيء هذه الأطراف.

كنت قد أبديت دهشتي إزا هذا الاكتشاف، ومضت هي قائلة:

- لنقل إنك تطبخ، أو تتناول طعامك، ومس شيء أصابعك، فإنك تجد نفسك وقد تقوّس كتفاك، إذ يبدو هذا الشيء بالغ القذارة.

أترى كان الطعام هو الذي بدا مفتقراً للنظافة أم طرف الأظفر؟ أياً كان ما يلمس أصابعها، فقد كان حرياً به أن يجعلها تتلوى تقززاً من افتقاره إلى النظافة. أما نظافتها هي فقد كانت تترك وراءها قطرة ندى مأساوية، هنالك تحت ظل الأظفر الممتد. وما كان بوسع المرء أن يفترض أنه لكل اصبع من الاصابع العشرة ستكون هناك قطرة ندى منفصلة.

كان من الطبيعي أن أرغب، على نحو متزايد، في مس

أطراف الأصابع تلك، لكني كبحت جماح رغبتي. احتجزتني عزلتي. كانت امرأة لا يتوقع إلا أن تبقى مواضع لينة محدودة في جسمها.

في جسم الفتاة، التي أعارتني الذراع، فإن هذه المواضع ستكون بلاحصر. ربما في غمار مداعبة أطراف أصابع مثل هذه الفتاة، فإنني لن أشعر بالذنب، وإنما بالعاطفة الغامرة، لكنها لم تعرني الذراع لمثل هذا العبث، ويتعين عليّ ألا أحيل إيماءتها الودية إلى ملهاة.

- النافذة.

قلتها، من دون أن أقصد أن النافذة ذاتها مفتوحة، وإنما أن الستار ليس مسدلاً.

تساءلت ذراع الفتاة:

- هل سيختلس أي شيء النظر؟

- رجل ما أو امرأة. ما من شيء عدا ذلك.

- ما من بشري سيراني. لئن رآني أي شيء فسوف يكون ذاتاً، هي ذاتك.

- ذات؟ وما تلك؟ وأين هي؟

قالت الذراع، كأنما هي تغني لتواسي من يسمعها.

- بعيداً. الناس يمضون ضاربين في الأرض، بحثاً عن ذوات، في البعيد.

بدا لي أن الذراع والفتاة نفسها بينهما من البعد ما بين السماء والأرض. هل سيكون بمقدور الذراع العودة إلى الفتاة البعيدة كل هذا البعد؟ هل سيكون بوسعي أن أصحبها عائداً عبر هذه المسافة الهائلة؟ رقدت الذراع في سكينة وكلها ثقة بي، فهل ترقد الفتاة بالقدر ذاته من الثقة التي تغمرها الطمأنينة؟ ألن تكون هناك ضراوة كابوس؟ ألم يبد أنها تتجلد لتكبح جماح الدموع وهي تفارق الذراع؟ ها هي الذراع الآن في حجرتي التي لم تزرها الفتاة.

ضببّت الرطوبة النافذة، فغدت كأنما امتدت عليها بطن ضفدع طين. بدا الضباب وكأنه يحتجز المطر في منتصف الهواء، وفقد الليل خارج النافذة بعده، فيما التف في بعد لا نهاية له. لم تكن هناك أسقف تلوح للعيان، ولا أبواق سيارات تتناهى للآذان.

- سأسدل الستار على النافذة.

قلتها، ومددت يدي إلى الستار. كان رطباً بدوره. لاح وجهي في النافذة، أقل إيحاء بالايغال في العمر من حقيقة أعوامي الثلاثة والثلاثين، غير أنني لم أتردد في إسدال الستار. فاختفى محياي.

فجأة، تذكرت نافذة. في الطابق التاسع من أحد الفنادق، كانت طفلتان صغيرتان تلهوان، وقد ارتدتا تنورتين حمراوين، واسعتين، ولاحتا من النافذة. طفلتان ترتديان ملابس

متشابهة، ربما كانتا توأماً غريباً.

راحتا تلطمان الزجاج، وتدفعانه بكتفيهما، وتزيج إحداهما الأخرى. عكفت أمهما على النسج بالابرة، وقد أدارت ظهرها للنافذة. ولو أن لوح زجاج النافذة الكبير قدر له أن ينكسر أو يتخلخل، لسقطتا من الطابع التاسع. وقد كنت أنا وحدي من ظنهما عرضة للخطر، فقد كانت أمهما بعيدة عن الاكتراث تماماً، فقد كان الزجاج في حقيقة أمره بالغ المتانة، بحيث انتفي أي مجال للخطر.

- إنه جميل.

قالتها الذراع في الفراش، خلال ارتدادي عن النافذة. ربما كانت تتحدث عن الستار، الذي كان يحمل التصميم الزهري ذاته، الذي يميز الشرشف.

- آه؟ لكنه نصل من الشمس، وهو يوشك على التهاوي.

قلتها، وجلست على الفراش، ووضعت الذراع على ركبتي. أضفت:

- هذا هو الجميل. أعظم جمالاً من أي شيء آخر.

أمسكت براحة اليد في راحة يدي اليمنى، وبالكتف في يدي اليسرى، وثنيت المرفق مرة فأخرى.

قالت الذراع، كأنها تبتسم في رقة:

- تأدب! أتراك تعبث؟

- كلا، على الاطلاق.

رفت ابتسامة على الذراع، وعبرتها، كالضوء الخافت. كانت هي ذاتها، على وجه الدقة، الابتسامة المتألقة، التي رفت على وجنتي الفتاة.

عرفت الابتسامة. كانت تضع مرفقيها على المائدة وتطوي يديها طياً خفيفاً، وتريح ذقنها أو وجنتها عليهما. كان من شأن هذا الوضع أن يكون بعيداً عن الجاذبية، في حالة فتاة شابة، لكنما أحاطت به سمة جذابة، على نحو رشيق، جعلت تعبيراً مثل «مرفقان على المائدة» يبدو شيئاً غير مناسب، استدارة الكتفين، الأصابع، الذقن، الوجنتان، الأذنان، الجيد الأتلع، الشعر، كل ذلك ينسجم في حركة واحدة متسقة. وإذ تستخدم الشوكة والسكين بحذق، وتثني أصبعيها السبابة والأصغر قليلاً، ترفعهما بخفة من وقت لآخر. يجتاز الطعام الشفتين الدقيقتين، وتبتلعه - ليس من أمامي على مائدة العشاء شخصاً، وإنما موسيقي جذابة من اليدين والمحيا والحلق. توهج نور ابتسامتها، عبر بشرة ذراعها.

بدت الذراع وكأنها تبتسم، لأنني فيما كنت أثنيها راحت موجات رقيقة للغاية تنساب فوق العضلات المتماسكة، الرقيقة، لتعبث بموجات من النور والظل فوق البشرة الناعمة. وقبل ذلك، عندما لمست أطراف الأصابع تحت الأظافر الطويلة، لفت نظري النور المنساب فوق الذراع، وأعيدها إلى ما كانت عليه. توقفت عن ذلك، ورحت أحدِّق فيها، بينما هي

ممددة على ركبتي. كانت أضواء وظلال جديدة لا تزال تمر فوقها.

- تسألينني عما إذا كنت أعبث. ألا تدركين أن لديَّ الإذن بأن أضعك مكان ذراعي؟

- إنني أدرك ذلك.

- أخشى على نحو ما القيام بذلك؟

- آه؟

- أتسمحين لي بذلك؟

- أرجوك!

سمعتها، وهي تمنحني الاذن بذلك، ورحت أتساءل عما إذا كان بمقدوري تقبله.

- قوليها من جديد. قولي؛ أرجوك!

- أرجوك! أرجوك!

تذكرت. تناهي إليّ صوتها شبيهاً بصوت امرأة كانت قد قررت أن تمنحني نفسها، امرأة لم تكن في جمال الفتاة التي أعارتني الذراع. ربما كان ثمة ما هو غريب قليلاً بشأنها.

كانت تلك المرأة قد قالت وهي تحدِّق في: «أرجوك!» وكنت قد أرخيت أصابعي على جفنيها، وأغمضتهما. تردد صوتها مرتجفاً:

- بكى يسوع. وعندئذ قالت اليهود: انظروا كم أحبها!

كان ضمير المؤنث خطأ صحته ضمير المذكر. كانت تلك قصة لعازر الميت.

وربما لأنها امرأة فقد تذكرت الأمر على نحو خاطىء، وربما قامت بذلك الابدال عن عمد.

هزتني تلك الكلمات الناتئة عن الموقف الذي كنا فيه. رحت أحدِّق فيها، متسائلاً عما إذا كانت الدموع ستنهل من العينين المغمضتين.

فتحتهما، ورفعت كتفيها، فأعدتها إلى موضعها بذراعي، رافعاً إياها.

- إنك تؤلمني!

قالتها، وهي تضع يدها على مؤخرة رأسها.

كانت هناك بقعة صغيرة من الدم على الوسادة البيضاء، باعدت مابين خصلات الشعر ولثمت بقعة الدم المنداحة على رأسها.

نزعت دبابيس شعرها كافة، وقالت:

- لا بأس، إنني أنزف بسهولة، عند أدنى لمسة.

كان دبوس شعر قد اخترق جلدها، وبدا أن ثمة رعدة توشك أن تجتاح كتفيها لكنها كبحت جماح نفسها.

على الرغم من أنني أعتقد أنني أتفهم ما تشعر به المرأة، عندما تمنح نفسها للرجل، إلا أنه لا يزال هناك شيء يكتنفه الغموض، حول هذا الحدث. ترى ما الذي يعنيه بالنسبة لها؟ لماذا ترغب في القيام به؟ ولماذا تأخذ بزمام المبادرة؟ لم أستطع أن أتقبل بشكل حقيقي قط الاستسلام، على الرغم من معرفتي بأن جسم كل امرأة قد خُلق لهذا الاستسلام. ويبدو لي الآن، بعد هذا العمر، أن الأمر تكسوه الغرابة. والطريقة التي تشق بها النساء على اختلافهن الدرب إليه، غير متماثلة إذا شئت القول، أو ربما متشابهة، أو حتى متطابقة. أليس ذلك غريباً؟ ربما الغرابة التي أجدها في الأمر بكامله لا تعدو أن تكون فضول شاب أقل إيغالاً في العمر، وربما يأس رجل علت به السنون، أوربما لم تكن إلا ضعفاً روحياً أعاني منه.

لم يكن ألمها المبرح أمراً مألوفاً بالنسبة لكل النساء في غمار الاستسلام، ولم يحدث لها ذلك، إلا في تلك المرة الوحيدة. قطع الخيط الفضي، وتهشم الطبق الذهبي.

- أرجوك!

قالتها الذراع، وهكذا ذكرتني بالفتاة الأخرى. ولكن هل تشابه الصوتان في حقيقة الأمر؟ ألم يترددا على نحو مشابه لأن الكلمات كانت هي ذاتها في الحالتين؟ هل حققت الذراع استقلالاً بذلك الجزء من الجسم الذي انفصلت عنه؟ ألم تكن الكلمات هي ذاتها فعل منح الذات والاستعداد لأي شيء دونما كابح أو مسؤولية أو شعور بالندم؟ بدا لي أنني لو قبلت الدعوة،

ووضعت الذراع محل ذراعي، لجلبت ألماً لا سبيل إلى وصفه للفتاة.

رحت أحدِّق في الذراع الممددة على ركبتي. كان هناك ظل في باطن المرفق. بدا كأنما بوسعي امتصاصه. ضغطت الذراع على شفتي كي ألملم الظل.

- ذلك يدغدغني. تأدب!

قالتها الذراع، وهي حول عنقي، محاولة تجنب شفتّي.

- تقولين ذلك في اللحظة التي أوشكت فيها على تحقيق نهلة طيبة.

- وما الذي كنت تنهله؟

لم أحر رداً.

- ما الذي كنت تنهله؟

- عبق الضوء؟ عبق البشرة.

لاح الضباب أشد كثافة، حتى أوراق زهرة المجنولية بدت رطبة. ما هي التحذيرات الأخرى التي ستصدر عن المذياع؟ شرعت في الاتجاه نحو مذياعي، الموضوع على المائدة، ثم توقفت. بدا أن الاصغاء إليه والذراع ملتفة حول عنقي أكثر مما هو ممكن تماماً. ولكني تشككت في أنني سأسمع شيئاً من هذا القبيل، بسبب الأغصان المبتلة، وبسبب قوائم صغار الطير وأجنحتها التي طالها البلل، فإنها تهاوت إلى الأرض، وهي

عاجزة عن التحليق. على السيارات المارة عبر الحدائق الحرص على عدم دهسها. وإذا هبت ريح دافئة، فإن الضباب ربما يتغير لونه. وأنواع الضباب غريبة الألوان ضارة صحياً، ومن هنا يتعين على المستمعين أن يوصدوا أبوابهم، إذا ما تحول لون الضباب إلى الأحمر الوردي أو الأرجواني.

غمغمت:

- يتحول اللون، ويغدو أحمر ورديا أو أرجوانياً.

جذبت الستار، وتطلعت إلى الخارج. بدا أن الضباب يطبق من الأعالي بثقل خاو. ترى هل يرجع إلى الريح السر في أن ظلاماً غير كثيف بدا وكأنه يتحرك مختلفاً عن سواد الليل المألوف؟ لاح غلظ الضباب بلا انتهاء، ومع ذلك راح شيء مخيف يضطرب ويلتف حول ذاته، فيما وراء الضباب.

تذكرت أنه في وقت سابق، وفيما كنت في طريق العودة إلى الدار بالذراع المستعارة، أقبلت من الضباب على نحو يصعب تمييزه أضواء السيارة الأمامية والخلفية، وقد انطلقت بها المرأة التي ارتدت الزي القرمزي، مجال مضطرب من الأرجوان الخابي بدا الآن وكأنه يقترب مني، سارعت بالابتعاد عن الستار.

- دعينا ندلف إلى الفراش، نحن أيضاً.

بدا لي لو أنه ما من أحد غيرنا في الدنيا مستيقظ، فقد كانت اليقظة شيئاً رهيباً.

نحيت الذراع من عنقي، ووضعتها على المائدة، وبدلت ملابسي، فارتديت كيمونو ليلياً جديداً، من قماش قطني مطبوع. راحت الذراع ترقبني، فيما كنت أبدل ملابسي. استشعرت الخجل، خلال تعرضي للمراقبة، فلم يسبق لامرأة أن راقبتني من قبل قط، وأنا أنزع ملابسي في غرفتي.

دلفت إلى الفراش، وقد أمسكت الذراع بيدي. رقدت مواجهاً إياها، وجلبتها في خفة نحو صدري. فقبعت ساكنة.

كان بمقدوري أن أسمع، على نحو متقطع، ضجة خافتة صادرة عن المطر، صوتاً واهناً للغاية، كأنما الضباب لم يتحول إلى مطر، وإنما كان هو نفسه يشكل القطرات. غدت الأصابع التي أطبقت عليها يدي تحت الغطاء أكثر دفئاً، ومنحتني أعظم شعور بالسكينة، من جراء الحقيقة القائلة بأن الدفء الذي وصلت إليه لم يبلغ درجة حرارتي.

- هل داهمك النعاس؟

ردت الذراع:

- لا.

- لقد عمَّك الهدوء للغاية، فحسبت أن النعاس قد داهمك.

- ما الذي تريد مني القيام به؟

فتحت الكيمونو، الذي أرتديته، وضممت الذراع إلى صدري، فتغلغل الفارق في الحرارة إلى أعماقي. وفي غمار الليل

المؤجِّج للرغبة على نحو ما والبارد على نحو آخر، بدت نعومة البشرة شيئاً بهيجاً.

كانت الأنوار لاتزال مضاءة، فقد نسيت القيام بإطفائها، حينما دلفت إلى الفراش.

- الأنوار.

نهضت، فسقطت الذراع من صدري.

سارعت بالتقاطها، شرعت في الاتجاه نحو الباب قائلاً:

- هل ستقومين باطفاء الأنوار؟ أتنامين في الظلام؟ أم وسط الانوار المضاءة؟

لم تحر الذراع رداً. من المؤكد أنها تعرف الرد. لماذا لم ترد؟ لم أكن على علم بالعادات، التي درجت الفتاة على اتباعها ليلاً، رحت أقارن بين الصورتين، صورتها وهي راقدة في الظلام، وصورتها والأنوار مضاءة، ووصلت إلى أنها الليلة وهي بدون ذراعها، ستضيئ الأنوار. وعلى نحو ما أردت بدوري أن أضيئها، رغبت في أن أحدّق في الذراع، أردت البقاء مستيقظاً، ومراقبة الذراع بعد أن تغفو، لكن الاصابع امتدت لاطفاء الأنوار من خلال الزر الموجود إلى جوار الباب.

عدت إلى الفراش، ورقدت في الظلام، والذراع بجانبي. رقدت هناك في صمت بانتظار أن تغفو. ولكنها سواء لعدم رضائها أو لخوفها من الظلام تمددت إلى جانبي، وفي التو

راحت الأصابع الخمسة تتسلق صدري. إنثنى المرفق من تلقاء ذاته، واحتضنتني الذراع.

كان ثمة نبض رقيق عند رسغ الفتاة. تمددت الذراع فوق قلبي، بحيث تردد النبضان أحدهما بإزاء الآخر. كان نبضها في البداية أبطأ هوناً من نبضي، ثم تردد النبضان معاً، ثم لم يعد بمقدوري الشعور إلا بنبضي. ولم أدر أيهما أسرع من الآخر وأيهما هو المتواني.

ربما من شأن هذا التوحد في النبض والوجيب أن يدوم فترة قصيرة، إذا ما حاولت إحلال الذراع محل ذراعي. أم ترى دهم النعاس الذراع؟ لقد سمعت امرأة تقول ذات مرة إن النساء يكن أقل سعادة في حميا النشوة منهن في الرقاد في سلام إلى جوار رجالهن، ولكن لم يحدث أن رقدت امرأة من قبل قط إلى جواري في سلام يفوق سلام هذه الذراع.

كنت مدركاً لوجيب قلبي، بسبب تردد النبض فوقه. وبين نبضة وأخرى كان شيء ما يسرع مبتعداً ثم يقبل على عجل عائداً من جديد. فيما رحت أصغي إلى الوجيب بدت المسافة وكأنها تزيد. وأياً كان بعد المدى الذي يذهب إليه ذلك الشيء، وأياً كان إيغاله بعيداً على نحو لا متناه. فإنه لا يلتقي شيئاً في إيغاله ذاك. وكانت النبضة التالية تستدعيه مستعيدة إياه. كان حرياً بي أن أخاف، لكنني لم أكن كذلك. ومع ذلك فقد تلمست بيدي موضع زر إضاءة النور إلى جوار وسادتي.

قبل أن أضيء النور، أعدت ترتيب الغطاء، في هدوء، واصلت الذراع نومها، من دون أن تدرك ما يجري. بدت عصابة رقيقة من أكثر درجات البياض شحوباً وهي تحيط بصدري العاري، ناهضة من اللحم ذاته، كأنها الوهج، الذي يسبق بزوغ شمس دافئة وليدة.

أضأت النور، ووضعت يديَّ على الأصابع والكتف، واجتذبت الذراع باستقامة، قلبتها بهدوء في يديَّ، محدِّقاً في تلاعب الضوء والظل، من الاستدارة عند الكتف على انقباض وتمدد الساعد، الانقباض من جديد عند استدارة المرفق الرقيقة، والانخفاض الواهن داخل المرفق، والاستدارة الآخذة في الدقة عن الرسغ، وراحة اليد وظهرها، وصولاً إلى الأصابع.

- ستكون لي.

لم أكن واعياً بهاتين الكلمتين، فيما كنت أدمدم بهما، وفي غيبوبة نزعت ذراعي اليمنى وأحللت ذراع الفتاة محلها.

ندّت شهقة خفيفة، وليس بمقدوري أن أحدد ما إذا كانت قد صدرت عني أو عن الذراع. وأحسست بتقلص في كتفي، وهكذا علمت بالتغيير.

كانت ذراع الفتاة، التي غدت ذراعي الآن ترتجف، وتمتد ممسكة بالهواء، ثنيتها، وقربتها من فمي.

- هل يؤلمك هذا؟ هل تشعرين بالألم.

- لا، على الاطلاق.

كانت الكلمات متشنجة.

اجتاحتني رعدة، كأنما أصابتني صاعقة، فألفيت الأصابع في فمي.

رحت أتحدث على نحو ما، معرباً عن سعادتي، لكن أصابع الفتاة كانت على لساني، وأياً كان ما نطقت به فإنه لم يتخذ شكل الكلمات.

- أرجوك! كل شيء على ما يرام.

أجابت بها الذراع، فتوقفت الرعدة، أضافت:

- قيل لي إن بمقدورك القيام بهذا، وعلى الرغم من ذلك...

لاحظت شيئاً. كان بمقدوري الاحساس بأصابع الفتاة في فمي، ولكن أصابع ذراعها اليمنى، التي أصبحت الآن أصابع يدي اليمنى، لم يكن بمقدورها الاحساس بشفتي أو أسناني. ومذعوراً رحت أهز يدي اليمنى، ولم أستطع الشعور بهزها. كان هناك انقطاع، توقف، بين الذراع والكتف.

رحت أغمغم:

- الدم لا يسري متدفقاً، أهو يسري أم لا؟

اجتاحني الخوف للمرة الأولى. نهضت في الفراش. كانت ذراعي قد سقطت إلى جواري، وإذ فصلت عني، فقد بدت شيئاً

لا يروق للعين مرآه. ولكن الأمر الأكثر أهمية من ذلك... أليس من شأن النبض أن يتوقف؟ كانت ذراع الفتاة دافئة، ويتردد فيها النبض، أما ذراعي فقد بدت كما لو كانت تتصلب وتأخذ البرودة بأكنافها. استخدمت ذراع الفتاة في امساك ذراعي، وتلمستها، ولكن لم يكن هناك أي شعور.

سألت الذراع قائلاً:

- أهناك نبض؟ أهي باردة.

- قليلاً، أكثر برودة بقليل مني، لقد غدوت دافئة للغاية.

كان هناك شيء أنثوي على نحو خاص في نبرة حديثها. الآن وقد ثبتت الذراع إلى كتفي، وجعلت جزءاً مني فإنها بدت أنثوية على نحو ما لم تكنه من قبل.

- لم يتوقف النبض؟

- ينبغي أن تكون أكثر ثقة مما أنت عليه.

- ثقة بماذا؟

- لقد أحللتني مكان ذراعك. أليس كذلك؟

- هل يسري الدم؟

في غالب الأحيان، عندما تتراءى لي الأحلام، وأستيقظ في جوف الليل، أهمس بهذه الكلمات لنفسي.

في هذه المرة، بالطبع، يعود ضمير المتكلم على صاحبة

الذراع الساحرة، المستقرة عند كتفي. وبدت هذه الكلمات المستمدة من الكتاب المقدس كأنما نطقها صوت خالد، في مكان خالد.

تحدثت بدوري عن الفتاة قائلاً:

- ترى هل سيجفوها مرقدها؟ هل ستتعرض للكوابيس؟ إنه ضباب من النوع الذي تضرب فيه الكوابيس، لكن الرطوبة تجعل نوبات السعال تصيب حتى الشياطين.

غطت ذراع الفتاة، التي كانت يدها لا تزال ممسكة بذراعي، أذني اليمنى.

- ذلك لمنعك من سماع الشياطين.

كانت قد أضحت الآن ذراعي اليمنى، لكن هذه الحركة بدا أنها لم تأت من تلقاء ذاتي. وإنما عفواً منها، من قلبها. ولكن الانفصال لم يكن كاملاً على هذا النحو.

- النبض. هو ذا صوته.

سمعت النبض الصادر من ذراعي اليمنى. كانت ذراع الفتاة قد جاءت إلى أذني بذراعي اليمنى في يدها، وكان رسغي قرب أذني. كانت ذراعي هي ذراع، على نحو ما قالت ذراع الفتاة، أكثر برداً بصورة ملموسة من أصابعها ومن أذني.

- سأبعد الشياطين.

تحرك الأظفر الطويل، الدقيق، لأصبعها الصغير على نحو

عابث ورقيق في أذني. هززت رأسي. أمسكت ذراعي اليسرى، ذراعي منذ البدء، برسغ ذراعي اليمنى، أي ذراع الفتاة بالفعل. وفيما ألقيت برأسي إلى الخلف، لمحت الأصبع الصغير للفتاة.

كانت أربعة أصابع من أصابع يدها تمسك بالذراع التي انتزعتها من كتفي اليمنى. الاصبع الصغير وحده - ترى هل نقول إنه هو وحده الذي سمح له بالعبث على نحو ما يهوى - قد انثنى نحو ظهر اليد. ولمس طرف الاظفر يدي اليمنى بخفة. كان الاصبع منثنياً في وضع لا يمكن أن يكون ممكناً إلا بالنسبة ليد الفتاة اللدنة، وهو وضع مستحيل بالنسبة لرجل متصلب المفاصل مثلي. ومن قاعدته ارتفع بزوايا تميل إلى اليمين. عند المفصل الأول انثنى في زاوية أخرى، ثم عند المفصل الثاني في زاوية يمنى ثانية. وهكذا شكل مربعاً، وتألف الجاب الرابع من أصبع الخاتم.

شكّل نافذة مستطيلة، عند مستوى عيني، أو بالأحرى ثقب تلصص أو عوينات، أصغر بكثير من النافذة، ولكنني على نحو ما انصرف تفكيري إلى النافذة، تلك النوعية من النوافذ التي قد تطل عبرها بنفسجة، نافذة الأصبع الأصغر، العوينات التي يؤطرها أصبع، بالغ البياض بحيث يحيطه وهج خافت، قربته من عيني، وأغمضت العين الأخرى.

سألتني الذراع:

- عرض تلصص؟ وماذا ترى؟

- غرفتي القديمة المعتمة. أنوارها الخمسة.

قبل أن أتم الجملة، كنت أهتف صارخاً على وجه التقريب:

- لا. لا. إني أراها!

- وماذا ترى؟

لقد اختفت.

- وماذا رأيت؟

- لون. أرجوان خافت، وبداخله دائرة صغيرة، خرزات صغيرة من الحمرة والذهب، تدوِّم وتدوِّم.

- أنت متعب.

أرخت ذراع الفتاة ذراعي اليمنى، ومسدّت أصابعها أجفاني.

• هل كانت خرزات الحمرة والذهب تدور في عجلة مسننة هائلة. أتراني رأيت شيئاً في تلك العجلة، شيئاً راح يمضي ويجيء.

لم أدر ما إذا كنت قد رأيت شيئاً بالفعل هناك أم أن ذلك قد خيِّل لي فحسب، توهم عابر، ليس من شأنه أن يبقى في قرار الذاكرة. لم أستطع تذكر ما عساه يمكن أن يكون.

- أكان وهماً أردت إطلاعي عليه؟

- كلا، لقد جئت لمحوه.

- للماضي ينتمي، للحنين، وللشجن.

توقفت حركة أصابعها على أجفاني.

طرحت سؤالاً غير متوقع عليها:

- عندما تسدلين شعرك هل يتهدل على كتفيك؟

- نعم. إني أغسله بماء دافىء، ولكن فيما بعد - وربما كانت تلك خاصية تميزني - أصب عليه ماءً بارداً، فأنا أحب الشعور بالماء البارد، وهو ينهل على كتفيَّ وذراعَّي، وعلى نهديَّ أيضاً.

بالطبع، الحديث هنا من جديد هو للفتاة. لم تمس كف رجل نهديها قط، ولا شك أنها ستواجه صعوبة في وصف الاحساس بانسدال الشعر البارد المبتل عليهما. هل فصلت الذراع، التي نزعت من الجسم، عن الحياء والتحشم أيضاً؟

سارعت بإمساك الاستدارة الرهيفة عند الكتف، التي غدت لي الآن، بيدي اليسري، بدا لي أن ما استقر في يدي ليس إلا استدارة نهديها، التي لم تتجاوز حدها بعد. غدت، استدارة الكتف، استدارة النهدين اللدنة.

استقرت يدها في رفق على أجفاني. تشبثت الأصابع واليد في رفق وغاصت قليلاً فيها، وبدا أن باطن الأجفان يدب إليه الدفء إزاء هذه اللمسة. غاص الدفء في قرار عيني.

قلت، في هدوء:

- الدم يسري الآن، إنه يسري.

لم تكن صيحة دهشة، كتلك التي انطلقت عندما لاحظت أن ذراعها قد حلت محل ذراعي. لم يكن هناك اختلاج ولا تقبض في ذراع الفتاة أو في كتفي. متى بدأ دمي يتدفق عبر الذراع ودمها يتدفق عبري؟ متى تبدد الانقطاع القائم عند الكتف؟ راح دم الفتاة الطاهر يتدفق، الآن، في هذه اللحظة عينها، يتدفق في عروقي، ولكن ألن يكون هناك كرب، عندما تُعاد الذراع إلى الفتاة فيتدفق دم هذا الذكر الدنس في عروقها؟ ماذا لو أن الذراع لم تلصق نفسها بكتف الفتاة؟

دمدمت قائلاً:

- لن تقع مثل هذه الخيانة.

همست الذراع:

- سيكون الأمر على ما يرام.

لم يكن هناك وعي مهتاج بأنه فيما بين الذراع وكتفي كان الدم يمضي جيئة وذهاباً. حققت يدي اليسرى التي أحاطت بكتفي اليمنى، ومست الكتف ذاتها، الكتف التي هي لي الآن، تفهماً طبيعياً لهذه الحقيقة. لقد عرفت الذراع والكتف بالأمر. وحملتهما هذه المعرفة إلى رحاب السبات.

غفوت.

طفوت على موجة هائلة، كانت هي الضباب المطبق، وقد

تحوَّل إلى لون الأرجوان، وكانت هناك تموجات خضراء شاحبة في الموضع الذي طفوت عنده من الموجة الهائلة، وهناك فحسب كانت عزلة غرفتي الرطبة على نحو مزعج قد تبددت. وبدت يدي اليسرى وقد استقرت بخفة على ذراع الفتاة اليمنى. لاح أن أصابعها قد أمسكت بسدات زهرة المجنولية. لم أستطع رؤيتها، لكني كان بمقدوري أن أشم رائحتها. كنا قد ألقينا السدات بعيداً - ترى متى وكيف قامت بتجميعها من جديد؟ لم تكن البتلات البيضاء التي لم يبعد بها العهد إلا يوماً قد تهاوت، فلماذا إذن الامساك بالسدات؟ انزلقت سيارة المرأة ذات الرداء القرمزي مبتعدة، راسمة دائرة كبيرة كنت في مركزها. بدا أن السيارة ترقب رقادنا، رقادي مع الذراع.

ربما لن نستغرق في النوم، لكنني لم يسبق لي أن عرفت من قبل قط نوماً بمثل هذا الدفء وهذه العذوبة. ولما كنت ممن يقطع القلق نومهم، فلم يقدر لي أن أحظى في السابق قط برقاد كنوم الطفل.

مسّ الأظفر الطويل، الملموم، الدقيق، راحة يدي برقة، وجعلت هذه اللمسة الخفيفة نومي أكثر عمقاً. فاختفيت.

نهضت من نومي صارخاً، إذ أوشكت على السقوط من الفراش، وخطوت مترنحاً ثلاث خطوات أو أربع.

كنت قد استيقظت على ملمس شيء تجزع النفس منه، ولم يكن هذا الشيء إلا يدي اليمنى.

ثبت إلى رشدي، ورحت أطل على الذراع في فراشي. تقطعت أنفاسي، وتسابقت دقات قلبي، واجتاحت الرعدة جسمي كله. في لحظة رأيت الذراع، وفي اللحظة التالية انتزعت ذراع الفتاة من كتفي، ووضعت ذراعي مكانها. وبدت الفعلة كجريمة قتل، تمت استجابة لدافع شيطاني مفاجىء.

انحنيت إلى جوار الفراش، وقد وضعت صدري بإزائه، ورحت أمسد قبالة قلبي الذي جف نبضه بيدي المستردة. وفيما النبض يتراجع، خيّم عليَّ حزن نابع من أغوار أعمق فأعمق بداخلي.

- أين ذراعها؟

قلتها، رافعاً رأسي.

كانت الذراع ممددة، عند أدنى الفراش، وقد طوحت وراحتها إلى أعلى، على كومة غطاء الفراش. ولم تتحرك الأصابع الممتدة، وكانت الذراع بيضاء على نحو شاحب في العتمة.

صرخت منزعجاً، وانتزعتها رافعاً إياها عالياً، واحتضنتها في احكام. عانقتها مثلما يعانق المرء طفلاً صغيراً، تغيض منه الحياة، رفعت بالأصابع إلى شفتي. آه لو أن ندى المرأة يهل من بين أظافرها الطويلة وأطراف أصابعها!

الصمت

يقال إن أوميا أكيفوسا لن ينبس ببنت شفة مجدداً أبداً، يقال إنه لن يكتب حرفاً من جديد أبداً، على الرغم من أنه روائي، ولايزال في السادسة والستين من عمره فحسب، وليس المراد بهذا أنه لن يكتب روايات بعد الآن، وإنما أنه لن يكتب حرفاً واحداً.

أصيبت يمين أكيفوسا، وغدت بلا جدوى، تماماً كلسانه، لكنني سمعت أن بمقدوره تحريك يسراه قليلاً، ولذا وجدت أن من المعقول أفتراض أن بوسعه الكتابة إذا أراد ذلك، وحتى مع التسليم بأنه سيجد من المستحيل كتابة فقرات اضافية، فإنه لا يزال يبدو من المحتمل أن بوسعه كتابة كلمات بحروف العامية اليابانية لدى رغبته في أنينجز الآخرون شيئاً ما لأجله.

وبما أنه عاجز الآن عن الحديث - ربما أنه عاجز عن الاشارة أو الإيماء بحرية - فإن كتابة أكثر حروف العامية التواء من شأنها السماح له بتوصيل أفكاره ومشاعره بطريقة يستحيل انجازها بخلاف ذلك، ومن المؤكد أن ضروب سوء الفهم ستكون أقل حدوثاً.

أياً كان غموض الكلمات، فإنها أسهل يقيناً في تفهمها من لغة الجسد المرتكبة أو الايماءات الملتبسة. وحتى إذا تم الافتراض أن اكيفوسا العجوز قد أفلح في ايضاح أنه يريد احتساء شيء ما بضم شفتيه على نحو يوحي بالامتصاص، على سبيل المثال، أو تقليد عملية رفع قدح إلى فمه، موضحاً فحسب أنه يريد ماء أو شاياً أو حليباً أو دواء، أنه يبغي أياً من هذه السوائل الأربعة، حتى ذلك من شأنه أن يكون صعباً، فكيف يميز بين الماء والشاي؟ لسوف يكون ما يريده واضحاً تمام الوضوح إذا كتب «ماء» أو «شاياً» بل ان حرف «م» أو «ش» يمكن أن ينقل الرسالة.

من الغريب، أليس كذلك؟ أن رجلاً كسب قوته، على امتداد أربعين عاماً، باستخدام الحروف والعلامات لكتابة كلمات، الآن وقد أوشك على أن يفقد كلية تقريباً تلك الحروف والعلامات وبالتالي وصل إلي تفهم القوى التي تحظى بها بأعمق المعاني وبأعظم قدر ممكن من اليقين، الآن وقد غدا بمقدوره استخدامها بمثل هذه المعرفة العميقة، من الغريب، أليس كذلك؟ أن يحرم نفسه من استخدامها، أن حرف «م»

وحده أو حرف «ش» وحده قد يساوي ما يزيد على كل الفيض، الفيض الهائل حقاً من الكلمات والحروف التي كتبها طوال عمره، ذلك الحرف الواحد قد يكون عبارة أكثر بلاغة، عملاً أكثر أهمية، وقد يحظى بقوة أكبر.

حدّثت نفسي بأنني ربما أحاول قول هذا لأكيفوسا العجوز عندما أزوره، حينما يمضي المرء بالسيارة من كاماكورا إلى زوشي، فإنه يجتاز نفقاً، وليس الطريق بالذي يدخل الكثير من البهجة على النفس، فهناك محرقة للجثث قُبيل النفق، ويتردد أن شبحاً قد ظهر هناك، مؤخراً، شبح امرأة في مقتبل العمر تستقبل السيارة التي تمر غير بعيد عن المحرقة ليلاً، هكذا يقال في القصة التي تترد في هذا الشأن.

كان النور سيظل منتشراً؛ ولذا لم يكن هناك ما يدعو للقلق، ولكنني مع ذلك سألت سائق سيارة الأجرة، الذي بدا مألوفاً، عما يعلمه عن هذا الموضوع.

قال السائق: «لم أصادفها بنفسي بعد، ولكن هناك أحد الأشخاص في شركتنا أقلها بسيارته. والأمر لايقتصر على شركتنا فحسب، وإنما هي قد استقلت سيارات أجرة تابعة لشركات أخرى كذلك، وقد رتبنا الأمر بحيث نصطحب مساعداً إذا مضينا في هذا الطريق ليلاً». ومن خلال الحكم استناداً إلى طريقته في الحديث، فإه قد كرّر هذه القصة عدداً كافياً من المرات ليجعله يشعر بالسأم من سردها.

- أين تظهر؟

- أين حقاً، إنها تظهر على الدوام في السيارات التي تعود خاوية من زوشي.

- إنها لا تظهر عندما يكون هناك أناس في السيارة؟

- طيب، ما سمعته هو أنها تظهر في السيارات التي تعود خاوية. أحسب أنها تنسل منسابة إلى السيارة قرب المحرقة. ومما ترامى إلى سمعي فالأمر ليس قوامه إنك توقف السيارة فتبادر هي إلى ركوبها كذلك، فأنت لا تعلم متى تنسل إلى السيارة، وإنما السائق يساوره شعور مفارق للمألوف، فيلتفت إلى الوراء، وإذا هنالك في السيارة تلك الشابة في مقتبل العمر، ولكن بما أنها شبح فإنها لاتنعكس على صقال المرآة التي ترصد المشهد الخلفي.

- ذلك أمر محير، أحسب أن الاشباح لا تنعكس صورها على صقال المرايا؟

- أحسب أنها لا تنعكس. يقولون إنها لا انعكاس لها، حتى إذا كان بمقدور عيون البشر رؤيتها.

- نعم، ولكنني أحسب أن عيون البشر يمكن أن تراها. أليس كذلك؟ المرايا ليست لاقطة على نحو دقيق.

هذا ماقلته. ولكن العيون المتطلعة إلى المرآة هي، بالطبع، عيون بشرية. أليس كذلك؟

قال السائق:

- لكن من رأوها ليسوا شخصاً أو اثنين فحسب.

- ماطول المسافة التي تستقل خلالها السيارة؟

- طيب. إن الخوف يستبد بك، ويبدو الأمر كما لو أنك أصابك نوع من الدوار، ولذا فأنك تشرع في الانطلاق بالسيارة مسرعاً حقاً، ثم عندما تصل إلى وسط كاماكورا، فإنك تسترخي، وعندئذ تكون قد مضت لحال سبيلها.

- لابد أنها من كاماكورا إذن، لابد أنها تريد العودة إلى دارها في كاماكورا، وهم لايعرفون من تكون.

- آه، الآن لا علم لي...

حتى إذا كان يعرف، أو إذا كان هناك بعض الحديث بين سائقي سيارات الأجرة حول من عساها تكون، فإن من المشكوك فيه أن السائق سيكون من عدم الاكتراث بحيث يحدِّث راكباً بجلية الأمر.

- إنها ترتدي كيمونو، المرأة الشبح. إنها بارعة الحسن، ولا يرجع إدراك ذلك إلى اطلال البعض من فوق أكتفاهم، أو ما إلى ذلك، فأنت لا تحدق على وجه الدقة في محيا شبح.

- هل تفوهت بأي شيء قط؟

- سمعت أنها لا تتحدث، ولسوف يكون أمراً جميلاً أن تقول شكراً على الأقل. أليس كذلك؟ ولكن، بالطبع، عندما تتحدث

الأشباح فإنها تشكو على الدوام.

قبيل دخولنا النفق، تطلعت إلى الوراء عند الجبل الذي تستقر المحرقة عليه. لقد كانت محرقة مدينة كاماكورا، وهكذا فإنه يبدو أن معظم الموتى الذين أحرقوا هناك يرغبون في العودة إلى الدور في كاماكورا. وربما سيكون من الجميل أن تكون امرأة رمزاً لكل أولئك الموتى، الذين يستقلون السيارات الخاوية ليلاً. ولكني لم أصدق القصة.

- ما كنت لأصدق أن شبحاً سيحتاج إلى سيارة أجرة. أليس بمقدور الأشباح أن تمضي إلى حيث يطيب لها وتظهر في أي مكان؟

وصلنا إلى دار أوميا أكيفوسا بعيد خروجنا من النفق.

كانت سماء الساعة الرابعة المتشحة بالسحب تضوع، على نحو خفيف، بعبق الدراق، وهو مؤشر يوحي بمقدم الربيع، ترددت للحظة عند بوابة دار أوميا.

لم يسبق لي أن زرت العجوز أكيفوسا إلا مرتين، في الشهور الثمانية التي انقضت منذ أن أصبح هو نفسه نوعاً من الشبح الحي. كانت المرة الأولى بُعيد السكتة التي أصابته. كان أكبر مني بعشرين عاماً، رجلاً أُجلّه، كاتباً شملني برعايته، وكان من الصعب عليَّ أن أراه على هذه الحال، بشعاً، وبائساً، على نحو ما غدا عليه.

لكنني كنت أعرف أنه إذا أصيب اكيفوسا بسكتة ثانية، فإن

من المحتمل أن تكون تلك هي النهاية. كنا نقيم في مدينتين متجاورتين، فزوشي وكاماكورا تقع إحداهما على مرمى حجر من الأخرى، على نحو ما نقول، وقد بدأت تثقل على ضميري الحقيقة القائلة إنني أهملت زيارته. ولم يكن عدد الناس الذين رحلوا عن هذا العالم بينما كنت أبحث امكانية زيارتهم ولكنني لم أزرهم بالقليل، بأي حال من الأحوال. وغالباً ما حدث أنني وصلت إلى الاعتقاد بأن تلك هي سنة الحياة. وقد كنت أفكر في أن أطلب من اكيفوسا أن يكتب لي شيئاً على قطعة من ورق من نوعية هانسيتسو، ولكن الفكرة وصلت إلى حد تبدو معه عبثية. وقد حدث هذا الشيء نفسه لي مرات عديدة. ولم يكن الموت المفاجيء بالشيء الذي يمكنني التعامل معه بشكل عرضي، وكنت أدرك تمام الادراك أنني أنا نفسي قد أموت في أي لحظة - ربما ذات ليلة خلال عاصفة - ولم أكن حريصاً على نفسي أشد الحرص.

عرفت مؤلفين آخرين لقوا حتفهم فجأة، من جراء نزيف في الدماغ، أو نوبات قلبية، أو انسداد بالشرايين، ولكنني لم أسمع قط بشخص تم انقاذه ولكنه شل على نحو ما حدث مع العجوز اكيفوسا. ولو أن المرء نظر إلى الموت باعتباره أعظم بلية على الاطلاق، لكان عليه القول إن اكيفوسا محظوظ إلى أبعد الحدود بمواصلته العيش، حتى على الرغم من أنه يعيش كمريض لا يرجى له شفاء، كرجل معاق، ولكن ذلك الشعور بحسن الطالع كان من الصعب للغاية على معظمنا أن يحسوا

به، كما كان من المتعذر علينا أن نحدد ما إذا كان اكيفوسا نفسه يحس بأنه كان محظوظاً.

مرت ثمانية شهور فحسب منذ تعرض اكيفوسا للسكته، ولكن مماسمعته فإن عدد الناس الذين يزورونه غدا محدوداً للغاية بالفعل، حيث يمكن أن يكون من الصعب التعامل مع عجوز أصم، ولكن ليس مما يقل عن ذلك صعوبة التعامل مع رجل قادر على السمع، ولكنه لا يستطيع الكلام، فهو يفهم ما تقول له، على الرغم من أنك لا تفهم ما يريد أن يقوله لك. إنه أمر أكثر غرابة من محادثة أصم.

كانت زوجة أكيفوسا قد توفيت في وقت مبكر، لكن ابنته توميكو مكثت معه. كانت هناك ابنتان، لكن الصغرى تزوجت وغادرت الدار.

أما الابنة الكبرى، توميكو، فقد انتهت بها الحال إلى البقاء في الدار لرعاية أبيها. ولم تكن هناك حاجة حقيقية تدعو إلى أن يتزوج أكيفوسا من جديد، حيث أن توميكو قامت على شئون الدار جميعها، وقد ابتهج حقاً بحرية حياة العزوبية، ولربما يقول المرء لهذا السبب إن توميكو قد اضطرت لتقديم تضحيات معينة لأبيها.

وتشير الحقيقة القائلة إن اكيفوسا، على الرغم من أنه كانت له علاقات عاطفية عديدة، ظل على عزوبيته إلى أن قوة إرادته كانت من المضاء بحيث تغلبت على عواطفه، أو أنه ربما

كان هناك شيء آخر يجري.

كانت الابنة الصغرى فارعة القوام، وذات ملامح بديعة على نحو استثنائي، ولكن هذا لم يكن يعني القول إن توميكو كانت من نوعية الشابات اللواتي يتوقع المرء أن يبقين بلا زواج. ولم تعد، بالطبع، فتاة في ميعة الصبا، فقد كانت تدنو من الأربعين، ولذا لم تكن تضع لمسات من مواد التجميل على الاطلاق، لكن المرء يستشعر فيها نقاء. وقد بدت على الدوام إنسانة هادئة، ولكنها لا تتسم بشيء من كآبة العوانس التقليديات ولا ضيقهن، وربما أمدها اخلاصها لأبيها ببعض العزاء.

درج الزائرون على محادثة توميكو بدلاً من اكيفوسا، وكانت تجلس بجوار وسادة أبيها.

أزعجتني رؤية ما وصلت إليه من نحول، وبدا لي أن من الغريب أن تستبد بي الدهشة، الأمر الذي كان معناه أن من الطبيعي بالنسبة لها أن تكون ناحلة، ولكن على الرغم من ذلك فإن رؤيتها تغدو فجأة وقد أوغلت في العمر وغدت ناحلة أثارت الاكتئاب في نفسي، وخطر لي أن الناس في تلك الدار يعانون.

لم يكن هناك ما أقوله، بعد أن تفوهت بالكلمات العبثية التي يقولها من يعود مريضاً، وهكذا انتهى بي الأمر إلى التفوه بشيء ما كان ينبغي أن أقوله:

- هناك شائعة تتردد، مفادها أن شبحاً يظهر على الجانب

الآخر من النفق. هل سمعت بذلك؟ لقد سألت السائق عنه وأنا في الطريق إلى هنا. وفي حقيقة الأمر..

- أهناك شيء من هذا حقاً؟ إنني في الدار على الدوام. ولم يتناه إلى سمعي أي شيء.

بدا جلياً أنها ترغب في معرفة المزيد. وهكذا - فيما حدثت نفسي طوال الوقت بأنه كان من الأفضل ألا آتي على ذكر هذا الموضوع - لخصت لها ما عرفته.

- طيب. إنها نوعية من القصص يصعب على المرء تصديقها، على الأقل إلى أن يرى الشبح. بالطبع، قد لا يصدق المرء القصة، حتى لو رأى الشبح، ففي نهاية المطاف هناك أوهام دائماً.

- ينبغي أن تتحرى الشبح الليلة، يا سيد ميتا، وتكتشف ما إذا كان له وجود حقاً!

قالتها توميكو. وكان غريباً منها أن تقول ما تفوهت به.

- آه. ولكنه لا يظهر والليل لم يسدل أستاره بعد.

- ستكون الشمس قد غربت، إذا بقيت لتناول طعام العشاء.

- لسوء الحظ أخشى أنني ليس بمقدوري البقاء. وفضلاً عن ذلك فإن شبح المرأة لايستقل إلا العربات الخاوية.

- طيب. إذا كان الأمر كذلك فليس لديك ما يثير القلق؟ إن أبي يقول إنه مسرور للغاية بقدومك، وإنه يأمل أن تأخذ

راحتك. أبي.. لسوف يتناول السيد ميتا طعام العشاء معك. أليس كذلك؟

تطلعت إلى العجوز أكيفوسا، فبدا كما لو أنه أوما برأسه موافقاً على وسادته. هل كان مسروراً لقدومي؟ بدا بياض عينيه غائماً وموحياً بالاجهاد، وكانت هناك لطخ من الصفار حتى في بؤبؤيه. ولكن بدا أن بؤبؤيه يتألقان من أعماق هذه اللطخ. ولاح أنه سيعاني من سكتته الثانية عندما تندلع تلك التألقات متحولة إلى لهب. بدا أن ذلك يمكن أن يحدث في أي لحظة. وخالجني شعور بعدم الارتياح.

- أخشى أنني سأجهد أباك، إذا بقيت وقتاً أطول مما ينبغي، وذلك قد...

قالت يوميكو بوضوح:

- لا، أبي لا يشعر بالاجهاد. إنني أدرك أنه أمر غير لطيف مني أن أبقيك هنا مع مريض كأبي، ولكنه يتذكر أنه كاتب بدوره، عندما يكون هنا كاتب آخر.

- هو.. ماذا؟

أدهشني إلى حد ما التغير الذي طرأ على نبرة صوت توميكو. ولكنني أعددت نفسي للبقاء لبعض الوقت.

- من المؤكد أن أباك يدرك على الدوام أنه كاتب..

- هناك رواية لأبي كنت أفكر فيها كثيراً منذ أن أصبح على

هذه الحال. لقد كتب عن ذلك الشاب الذي أراد أن يصبح كاتباً، كان الفتى يبعث إليه برسائل غريبة كل يوم تقريباً، ثم استبد به الجنون تماماً، فأودعوه في مصح للأمراض العقلية. والأقلام والمحابر تعد خطيرة، وقالوا إنه أقلام الرصاص خطيرة أيضاً، ولذا فانهم لم يتيحوا له الحصول عليها. وكانت أوراق المخطوطات هي الشيء الوحيد الذي سمحوا له بالحصول عليه في غرفته. وكان فيما يبدو على الدوام هناك أمام ذلك الورق، عاكفاً على الكتابة.. على الاقل اعتقد أنه يكتب. ولكن الورق ظل على بياضه. إلى هنا كان الأمر من نسج الواقع، أما الباقي فهو رواية أبي. ففي كل مرة كانت أمه تجيء لزيارته، كان يقول لها: أماه، لقد كتبتها، هل تقرئينها لي؟ هل تقرئينها لي يا أماه؟! وتنظر أمه إلى المخطوط الذي يعطيها إياه، فلا تجد فيه شيئاً مكتوباً على الاطلاق، فتشعر بالرغبة في الانخراط في البكاء، ولكنها تقول: آه، لقد أحسنت الكتابة، إنها جيدة للغاية. أليس كذلك! وتبتسم، وفي كل مرة تزوره كان يلح عليها لتقرأ المخطوط على مسامعه، فتشرع في قراءة الصفحة البيضاء عليه. وخطر ببالها أن تروي عليه قصصاً من بنات أفكارها، جاعلة الأمر يبدو كما لو كانت تقرأ المخطوط. تلك هي الفكرة الرئيسية الكامنة وراء رواية أبي، وتحدث الأم الفتى عن طفولته. ولاشك في أن الفتى المجنون يعتقد أنه يجعل أمه تقرأ نوعاً من التسجيل لمذكراته، شيئاً كتبه هو نفسه، ذلك هو ما يعتقد أنه يصغى إليه، فتتألق عيناه

بالفخر، وليست لدى أمه فكرة عما إذا كان يفهم ما تقوله من عدمه، ولكنها في كل مرة تزوره تكرر القصة ذاتها وتتحسن أكثرفأكثر في سردها، فهي تبدأ في الظهور بمظهر من تقرأبالفعل قصة ابنها، وهي تتذكر أموراً كانت قد نسيتها، ويتزايد جمال مذكرات الابن، والابن يجتذب قصة الأم من مغاور الذاكرة، ويساعدها، ويغير القصة. وما من سبيل لتحديد رواية من هي، وما إذا كانت رواية الأم أو الأبن، وعندما تتحدث الأم ينصب تركيزها على ما تقوله حتى لتنسى نفسها، وهي تتمكن من نسيان أن ابنها مجنون، فطالما أنه يصغى إليها بتركيز كامل، فليس هناك من سبيل إلى معرفة ما إذا كان مجنوناً من عدمه، ويمكن إلى حد كبير أن يكون عاقلاً ومجنوناً معاً، والأمر يبدو كما لو أن الأم والابن يحيان في عليين معاً، ويشعران سوياً بالسعادة. وفيما هي تواصل القراءة يخيل إليها أن ابنها قد يتحسن، فتواصل القراءة من الصفحات البيضاء.

- تلك هي رواية «ما يمكن للأم قراءته». أليست كذلك؟ إحدى روائع أبيك. إنها عمل يستعصي على النسيان.

- الكتاب مؤلف في صيغة المتكلم. الابن هو البطل، ولكن بعض الأمور التي يتذكرها عن طفولته حدثت بالفعل لأختي ولي عندما كنا صغاراً، وكل ما هنالك أنه جعلها تحدث لصبي...

- هل الأمر كذلك؟

- كانت تلك هي المرة الأولى التي أسمع فيها بهذا الأمر.

- أتساءل حقاً عن السر في أن أبي كتب رواية كتلك. هذا الكتاب يخفيني الآن، وقد غدا على هذه الحال. ليس أبي مجنوناً، وليس بوسعي أن أكون مثل تلك الأم وأقرأ على مسامعه رواية لم يكتبها. ولكنني أتساءل عما إذا لم يكن ذهنه عاكفاً على تأليف رواية الآن تواً.

خطر ببالي أن توميكو انسانة غريبة، بمقدورها قول أمور كهذه على الرغم من أن اكيفوسا العجوز ربما كان يسمع كل كلمة يتفوه بها. ولم أدر كيف أرد على ما قالته.

- لكن أباك كتب بالفعل العديد من الأعمال المتميزة، وهو وذلك الفتى ذو العقلية الأدبية مختلفان تمام الاختلاف.

- هل تعتقد ذلك؟ أحسب أن أبي لايزال يريد أن يكتب.

- بالطبع، ليس من شأن الجميع أن يوافق على هذا.

حدّثت نفسي بأنني شخصياً أعتقد أنه قد كتب بالفعل مافيه الكفاية، ولكنني لو كنت في وضع العجوز أكيفوسا لحرت فيما يتعين عليَّ فعله.

- كل ما في الأمر أنني لا أستطيع الكتابة نيابة عن أبي. سيكون جميلاً لو أنني كان بمقدوري كتابة «ما تستطيع ابنة قراءته» ولكنني لا أستطيع.

بدا لي صوتها كما لو كان صوت شابة في الجحيم. هل تعني

الحقيقة القائلة إنها قد تحولت إلى نوعية المرأة التي قالت مثل هذه الأمور أنها من خلال قيامها المستمر على شئون أبيها الذي كان نوعاً من الشبح الحي قد استحوذ عليها شيء ما بداخله؟ خطر لي أنها قد تؤلف كتاباً عن ذكريات مروعة، عندما يموت اكيفوسا. وبدأت استشعر كراهية عارمة نحوها.

- ماذا لو أنك تحاولين الكتابة عن أبيك؟

أحجمت عن إضافة قولي: «بينما هو لايزال على قيد الحياة». فجأة تذكرت بعض كلمات مارسيل بروست. كان نبيل بعينه قد أساء إلى الكثيرين في يومياته التي تمثل، بعد طول انتظار، للنشر؛ ولذا كتب يقول: «إنني على شفا الموت، وآمل ألا يمرغ اسمي في الوحل طويلاً حيث أنني سأعجز عن الرد!» ولا يرجع تذكري لهذه الكلمات على الاطلاق إلى أن الحال تشبه حال اكيفوسا وتوميكو، فهما ليسا غريبين بحال، وربما حدث حقاً بينهما تبادل انفعالي غامض، يتجاوز مايعايشه الآباء والبنات.

أذهلتني الفكرة الغريبة القائلة إن توميكو قد تكتب عن أبيها، كما لو أنها قد أصبحت ذلك الأب.

وسواء أكان الأمر قد أصبح لعبة جوفاء أم عملاً فنياً مؤثراً، فقد بدا أنه في الحالتين كلتيهما يقدم بعض العزاء لهما كليهما، فأكيفوسا ربما يمكن أنقاذه من صمته المطلق، من سغبه إلى الكلمات، والسغب إلى الكلمات هو يقيناً شيء لا يطاق.

- سيتمكن أبوك من فهم ما كتبته، ولسوف يكون بمقدورك تقويمه. لن تقرئي صفحة خالية من الكلمات، وإذا كتبت حقاً عن أبيك، إذا جعلته يصغى إليك وأنت تقرئين.

- هل تظن أنه سيكون عمل أبي؟ حتى القليل منه..

- لا شك في أن بعضه سيكون كذلك، وأي شيء أكثر من ذلك.. سيكون وقفاً على مشيئة السماء، وهو ما يعتمد على مدى قربكما انتما الاثنان، ليست لديّ طريقة لمعرفة ما سيكون عليه الأمر.

لكنه بدا بالفعل أن كتاباً يؤلف بمثل هذه الطريقة سيضم حياة تتجاوز كتاب ذكريات يؤلف بعد وفاه اكيفوسا. ولو أنه مضى على نحو جيد، فإنه حتى نوعية الحياة التي يعشها الآن يمكن أن تكون ثمينة على صعيد أدبي.

- حتى إذا واصل أبوك الصمت، فإنه يظل بمقدوره أن يساعدك، ويظل بامكانه تصحيح أخطائك.

- لن يكون له أي معنى، إذا كان في نهاية المطاف عملي، يتعين عليّ تدبر الأمر بعناية مع أبي.

تردد صوت توميكو مفعماً بالحياة، وهي تنطق هذه الكلمات.

من جديد بدا أنني قلت أكثر مما ينبغي. أليس ما كنت أقوم به شبيهاً بإرغام جندي جريح على نحو يدعو لليأس على العودة

إلى المعركة؟ ألم يكن ذلك انتهاكاً لحرمة الصمت؟ لم يكن الأمر كما لو أن اكيفوسا كان عاجزاً عن الكتابة، فقد كان بمقدوره كتابة حروف أو علامات، إذا أراد ذلك. ربما كان قد اختار الصمت، اختار ألا ينبس ببنت شفة بسبب حزن عميق، أسف ما. ألم تعلمني تجربتي أنه ما من كلمة يمكن أن تقول قدر ما يقوله الصمت.

ولكن لئن قُدِّر لأكيفوسا أن يواصل التزام الصمت، ولو قُدِّر لكلماته أن تند عن توميكو - ألن يكون ذلك أحد تجليات قوة الصمت أيضاً؟ - إذا لم يحر المرء قولاً فإن آخرين يتحدثون نيابة عنه، كل شيء يتحدث.

- أتسمح لي؟ إن أبي يقول إنني يتعين أن أقدم لك بعض الساكي تواً، عليّ القيام بذلك على الأقل.

انبعثت توميكو واقفة.

تطلعت، بشكل غريزي، إلى أكيفوسا، ولكن لم يكن هناك ما يوحي بأن العجوز قد تحدث.

الآن ها نحن وحدنا، بعد أن غادرت تومكيو الغرفة، وهكذا أدار أكيفوسا وجهه نحوي. بدا مكتئباً. ترى هل هناك شيء يود قوله؟ أو ربما ضايقه أن يوضع في موقف مثير للضيق أحس فيه بأنه يتعين أن يقول شيئاً؟ لم يكن أمامي خيار إلا أن أتحدث.

- ما رأيك فيما يتعلق بما كانت توميكو تقوله؟

- .....

جابهت الصمت، قائلاً:

- أشعر يقيناً بأن بمقدورك أن تقدم عملاً يستقطب الاهتمام، مختلف تماماً حقاً عن «ما تستطيع الأمر قراءته». وقد بدأت في الشعور بذلك فيما كنت أتجاذب أطراف الحديث مع توميكو.

- إنك لم تكتب أبداً رواية شخصية، أو سيرة ذاتية. ربما الآن، إذ لم يعد بمقدورك الكتابة، فإن استخدام يد شخص آخر لتقديم عمل من ذلك النوع قد يسمح لك بالكشف عن أحد أقدار الفن. إنني لا أكتب عن نفسي، ولا أعتقد أن بوسعي الكتابة عنها، حتى إذا حاولت ذلك، ولكنني لو كنت صامتاً، وإذا كان بوسعي الكتابة على ذلك النحو.. فلست أدري ما إذا كنت سأستشعر نوعاً من البهجة، كأنما أدركت الحقيقة في نهاية المطاف.. لو أنني حدثت نفسي بقولي: أهذا هو أنا؟ أو أنني سأجد الأمر برمته مثيراً للشفقة، فأتخلى عنه. ولكن أياً كان الأمر، فإنني على يقين من أنه سيكونه مثيراً للاهتمام.

- .....

عادت توميكو بالساكي وبأطعمة خفيفة.

- هل بمقدوري أن أقدم لك مشروباً؟

- شكراً لك. آمل أن تغتفر لي، يا سيد أوميا، احتساء

الشراب أمامك، ولكن طيب، شكراً لك.

- أخشى أن المرضى من أمثاله لا يتجاذبون أطراف حديث شائق.

- كنت بالفعل أواصل مناقشتنا السابقة.

- أكنت تقوم بذلك؟ في حقيقة الأمر إنني كنت أحدِّث نفسي، فيما عكفت على تدفئة الساكي، بأنه قد يكون من المثير للاهتمام أن أقوم بدلاً من أبي بالكتابة عن كل العلاقات العاطفية التي خاض غمارها في السنوات التي أعقبت وفاة أمي، فقد حدّثني بكل ما يتعلق بها تفصيلاً، بل إن هناك بعض الأمور التي نسيها أبي ومازلت أذكرها.. إنني على يقين، ياسيد ميتا، من أن هناك أمرأتين اندفعتا إلى هنا عندما انهار أبي.

- نعم.

- لست أدري ما إذا كان الأمر عائداً إلى أن أبي ظل على هذه الحال لوقت وطيل للغاية، أو ماإذا كان راجعاً إلى وجودي هنا، لكن المرأتين كفتا عن المجيء إلى هنا، ومع ذلك فإنني أعرف كل ماهنالك حولهما، فقد أبلغني أبي بكل ما يتعلق بهما.

- لكن أباك لا ينظر إلى الأمور على نحو ما تنظرين إليها.

كان هذا أمراً جلياً، ولكن على الرغم من ذلك فإن توميكو بدا عليها الضيق.

- من المستحيل عليَّ الاعتقاد بأن أبي قد كذب عليَّ. ويبدو

أنني بمرور الزمن وصلت إلى تفهم مشاعره.

إنبعثت واقفة، وأضافت:

- لكن لم لاتسأله بنفسك؟ لسوف أعد لتناول طعام العشاء، ثم أعود.

- أرجو ألا تزعجي نفسك بشأني؟

مضيت مع توميكو، واستعرت قدحاً. من الأفضل احتساء الساكي سريعاً عندما تحادث أصم.

- يبدو أن غرامياتك أصبحت ملكاً لتوميكو الآن. أحسب أن تلك هي الطريقة التي يفرض بها الماضي منطقه.

- .....

ربما ترددت في استخدام كلمة «الموت». وربما هذا هو السر في أنني استخدمت كلمة «الماضي».

لكن يقيناً أنه طالما بقي أكيفوسا العجوز على قيد الحياة، فإن الماضي يظل ملكاً له؟ أم يتعين على المرء التفكير فيه كنوع من الملكية المشتركة؟

- ربما إذا كان بمقدورنا أن نمنح ما ضينا لشخص ما، فإننا سنود أن نمضي قدماً ونهبه له.

- .....

- ليس الماضي بالشيء الذي ينتمي إلى أي أحد، ربما أقول

إن المرء يمتلك الكلمات التي تستخدم في الحاضر للحديث عن الماضي ليست كلمات المرء فحسب، فلا أهمية لهوية من يمتلك الكلمات. لا، مهلا! باستثناء أن اللحظة الراهنة هي عادة لحظة صامتة. أليس كذلك؟ حتى عندما يتحدث الناس على نحو ما أتحدث الآن، فاللحظة الراهنة لاتعدو أن تكون صوتاً قوامه «أ» أو «ن» أو «م». إنها تظل مجرد صمت بلا معنى. أليس كذلك؟

- .....

- لا، الصمت بالتأكيد ليس مجرداً من المعنى، على نحو ما قلت أنت نفسك.. أعتقد أنني في وقت ما قبل موتي أود أن أدلف إلى رحاب الصمت، على الأقل لبعض الوقت.

- .....

- كنت أفكر في هذا قبل قدومي إلى هنا. ولكن يبدو أنه يتعين أن تكون قادراً على كتابة العامية اليابانية على الأقل، ومع ذلك فإنك ترفض أن تكتب حرفاً واحداً. ألا تجد هذا كله أمراً مزعجاً؟ إذا كان هناك شيء تريد انجازه، على سبيل المثال، فإنك إذا كتبت حرف «م» إشارة إلى الماء أو حرف «ش» إشارة إلى الشاي..

- .....

- هل هناك سبب جذري لرفضك الكتابة؟

- .....

- آه، الآن فهمت، إذا كانت الحروف «م» و«ش» ونحوها كافية لانجاز الأمور، فإن الأصوات «م» و«ن» و«م» لا ينبغي أن تكون مجردة من المعنى أيضاً، والأمر نفسه ينطبق في حالة كلام الطفل الصغير، فهذا الطفل يدرك أن أمه تحبه. هكذا الأمر في روايتك «ماتستطيع الأم قراءته». أليس كذلك؟ الكلمات تضرب جذورها في كلام الطفل الصغير، وهكذا فإنها تضرب جذورها في الحب، ولو أنك قررت كتابة حرف «ش» في كل مرة ترغب في الاعراب عن الشكر، ولو أنك بين الحين والآخر كتبت حرف «ت» لتعني توميكو.. فعليك فحسب أن تفكر في مدى السعادة التي ستدخلها عليها.

- .....

- ربما كان حرف «ت» سيحتوي بداخله من الحب مايفوق ما تحتويه كل الروايات التي كتبتها خلال الأربعين عاماً الماضية، وربما سيتمتع بقوة أكبر.

- .....

- لم لا تتحدث؟ ربما بمقدورك على الأقل أن تقول: «آه ه ه» حتى لو سال لعابك. لم لا تتدرب على كتابه حرف «أ»؟

- .....

كنت على وشك المناداة باتجاه المطبخ لأطلب من توميكو أن

تحضر قلماً وبعض الورق، عندما أدركت فجأة ما أقوم به.

- ما الذي أفعله؟ إنني أخشى أن أكون سكرت قليلاً... سامحني؟

- .....

حتى بعد أن عادت تومكيو، ساورني شعور كما لو أنني كنت أهذي، كل ما فعلته كان الدوران حول سور صمت أكيفوسا العجوز.

استخدمت توميكو الهاتف في متجر قريب لبيع الأسماك لاستدعاء السائق الذي أقلني.

- يقول أبي إنه يأمل أن تأتي للحديث معه مجدداً بين الحين والآخر.

- نعم، بالطبع.

بعد أن رددت عليها بهذا الرد، الذي وجدته على لساني، ركبت السيارة.

- أرى أنكما أنتما الاثنان قد جئتما.

- لانزال في مطلع المساء، ولدينا راكب، ولذا فإنني أشك في أنها ستظهر، ولكن على سبيل الاحتياط...

خرجنا من النفق من جهة كاماكورا، وانطلقنا غير بعيد عن المحرقة، فجأة بدأت السيارة تندفع كما لو كانت تطير.

- أهي هنا؟

- إنها هنا. وهي تجلس بجوارك.

- ماذا؟

تبددت آثار الكحول، في لمحة عين. اختلست النظر إلى جانبي.

- لاترعبني على هذا النحو، فلست في حال تسمح لي بمعالجة الأمر!

- إنها هنالك، هنالك بالضبط.

- كاذب. هدىء السرعة! عليك بذلك، فهذا الانطلاق خطر!

- إنها جالسة إلى جوارك مباشرة. ألا تستطيع رؤيتها؟

- كلا، لا أستطيع ذلك. إنني عاجز تماماً عن رؤيتها.

قلت ذلك، لكنني فيما كنت أقوله بدأت في الشعور ببرد غامر، حاولت أن أبدو شجاعاً، قلت:

- لو أنها هنالك حقاً.. فماذا تظن.. هل أقول لها شيئاً؟

- لا تتكت على هذا النحو! إن اللعنة تحل بك إذا حادثت شبحاً، فسوف يتلبسك. إنها فكرة مخيفة. لا تفعل ذلك! سيغدو كل شيء على ما يرام إذا لزمت الصمت حتى نقلها إلى كاماكورا.

يوميورا

أقبلت ابنته تاجي لتبلغه بأن بالباب امرأة تقول إنها قد التقته منذ ثلاثين عاماً في يوميورا بجزيرة كيوشو. فكّر كوزومي شوزوكي في الأمر لحظة، وقرّر إدخال المرأة إلى غرفة الاستقبال.

قدم زوار غير منتظرين كل يوم تقريباً للقاء الروائي كوزومي شوزوكي، وحتى في الوقت الراهن كان هناك ثلاثة ضيوف في غرفة الاستقبال. وقد أقبل هؤلاء الضيوف بصورة منفصلة، ولكنهم كانوا جميعاً يتجاذبون أطراف الحديث. وكانت الساعة الثانية من بعد ظهر يوم دافىء، بصورة غير مألوفة، بالنسبة لبداية ديسمبر.

انحنت الزائرة الرابعة، المرأة، في القاعة، خارج الباب

الذي فتحته مباشرة، وقد بدا جلياً أنها تشعر بالحرج أمام الضيوف الآخرين.

قال كوزومي: «أدخلي، رجاء!».

قالت المرأة بصوت يرتجف تقريباً: «حقاً، حقاً، لقد انقضى وقت طويل، إسمي الآن مورانو، ولكننا عندما التقينا كان اسمي تاي. ربما تتذكر ذلك؟».

تطلع كوزومي إلى محيا المرأة. كانت قد تجاوزت الخمسين قليلاً. لكنها بدت أصغر من سنها، وكانت الحمرة تحف بخديها الشاحبين، وعيناها لاتزالان نجلاوين، على الرغم من عمرها. ولاشك في أن هذا يرجع إلى أنها لم تصبح مترهلة القوم في أواسط عمرها، كما يحدث للناس غالباً.

- تماما كما اعتقدت، إنك الرجل الذي التقيته، لاشك في ذلك.

قالتها المرأة، وقد تألقت عيناها سروراً، فيما مضت تحدق في كوزومي، وكان هناك حماس في نظرتها المحدقة غاب عن نظرة كوزومي، فيما هو يتطلع إليها، محاولاً تذكر من عساها تكون. أضافت:

- إنك لم تتغير على الاطلاق حقاً. أتراك تغيرت؟ الخط الممتد من أذنك إلى فكك، نعم، وهنالك - المنطقة المحيطة بحاجبيك - إنها كما لو كانت تماماً..

أشارت إلى كل ملمح من ملامحه، واحداً إثر الآخر، كما لو كانت تتلو وصفاً لشخص غائب أو مطلوب، فأحس كوزومي بالحرج، وبالقلق قليلاً لافتقاره إلى الذاكرة.

كانت المرأة ترتدي سترة هاوري سوداء، وقد زخرف شعار عائلتها عليها في عدة مواضع، ومعها كيمو وأوبي مما يلفت الأنظار. وكانت ملابسها جميعها مستخدمة كثيراً، ولكنها ليس بما يكفي للايحاء بأن عائلتها قد تردت إلى أوقات صعبة. وكان قدها صغيراً، وكذلك محياها. ولم تكن تتجمل بخواتم في أصابعها القصيرة.

- قبل ثلاثين عاماً خلت، جئت إلى مدينة يوميورا، أم تراك قد نسيت؟ كنت من رقة الحاشية بحيث جئت إلى غرفتي. وكان ذلك في يوم مهرجان المرفأ، حوالي المساء.

- إحم..

إذ سمع كوزومي أنه كان قد مضى إلى غرفة المرأة الشابة - لم يكن هناك شك في أنها كانت جميلة - فقد حاول مجدداً أن يتذكرها. قبل ثلاثين عاماً كان كوزومي في الرابعة والعشرين أو الخامسة والعشرين من عمره، ولم يكن متزوجاً بعد.

- كنت مع كيدا هيروشي وأكياما هيسارو. وكنتم قد توقفتم أنتم الثلاثة في نجازاكي، حيث كنتم ترتحلون في جزيرة كيوشو، وقد دعوناكم لحضور احتفال كان يقام بمناسبة تأسيس صحيفة صغيرة في يوميورا.

كان كيدا هيروشي وأكياما هيسارو كلاهما قد توفيا، ولكنهما في حياتهما كانا روائيين يكبرانه بعشر سنوات، كاتبين صادقاه وشجعاه منذ كان في الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين من العمر. وقبل ثلاثين عاماً كانا روائيين من الطراز الأول، وكان صحيحاً أنهما أمضيا بعض الوقت في نجازاكي حوالي ذلك الزمن، وتذكر كونرومي يومياتها عن تلك الرحلات والطرائف التي حدثاه بها عنها، وهي يوميات وطرائف من المؤكد أنها كانت معروفة للجمهور الأدبي.

لم يكن كوزومي واثقاً من أنه قد دُعى للمضي في تلك الرحلة إلى نجازاكي - كان في ذلك الوقت يستهل مسيرته في الدنيا - ولكن فيما هو يبحث في ذكرياته عن كيدا وأكاياما، هذين الاثنين اللذين كانا بمثابة قدوة بالنسبة له، رجلين أثراً فيه أعمق الأثر، نهض محياهما أمامه مراراً وتكراراً - تذكر الأيادي البيضاء العديدة التي قدماها له - واجتذب إلى حالة مزاجية رقيقة ولطيفة من التذكر. ولابد أن التعبير المرتسم على محياه قد تغيّر، فقد تحدثت المرأة.

قالت، وقد تغير صوتها كذلك

- لقد تذكرت. أليس كذلك؟ كنت قد قصصت شعري قصيراً للغاية للتوي، وقد حدثتك بمدى شعوري بالحرج، ومدى احساسي بالبرد من أذني إلى قفاي، كان الخريف قد انتهى بالكاد، لابد أن الأمر كان كذلك.. كانت تلك الصحيفة قد تأسست لتوها في المدينة، وقد استجمعت أطراف شجاعتي، وقصصت شعري

قصيراً، لكي أستطيع أن أكون محررة ميدانية، وفي كل مرة تقع عيناك على عنقي كنت ألتفت كأنما لدغت، لأخفيه عنك. أوه، إنني أتذكر كل شيء بصورة جيدة للغاية! وقد رجعت إلى غرفتي معي، وفي التو فتحت علبة شرائط، وأريتك الشرائط بداخلها. وأحسب أنني لابد أنني قد أرددت أن أقدم لك الدليل على أن شعري كان طويلاً، وانني كنت أربطه بالشرائط حتى يومين أو ثلاثة أيام مضت. وقد دهشت للعدد الكبير من الشرائط الذي كان هناك، ولكنني في حقيقة الأمر طالما أحببت على الدوام الشرائط منذ كنت صغيرة.

لزم الضيوف الثلاثة الآخرون الصمت، وكانوا جميعاً قد ناقشوا مع كوزومي الأمور التي قدموا للتداول بشأنها، ولكن لما كان هناك ضيوف آخرون، فقد جلسوا في استرخاء، متحدثين عن هذا وذاك، عندما وصلت المرأة. وكان من المناسب فحسب أن يدعوا كوزومي لهذه الزائرة التالية، وأن يسمحوا له بالحديث معها، ولكن كان هناك في أسلوبها ما أجبرهم على التزام الصمت. وقد تجنب الزوار الثلاثة حقاً النظر إلى محياها، أو إلى وجه كوزومي، وعلى الرغم من أنه كان بمقدورهم سماع ما يقال، إلا أنهم حاولوا الظهور بمظهر من لا يستمع بصورة مباشرة.

- عندما انتهى الاحتفال الذي أقامته شركة الصحيفة، مضينافي شارع بالبلدة يفضي مباشرة إلى المحيط. كان هناك غروب بدا أنه قد ينفجر متحولاً إلى لهب في أي لحظة. لن

أنسى ما قلته آنذاك، من انه حتى أحجار القرميد على الأسطح بدت قرمزية. رددت بأن يوميورا مشهورة بمشاهد الغروب فيها، وكان ذلك صحيحاً، فحتى الآن ليس بوسعي نسيانها. ذلك كان اليوم الذي التقينا فيه، ذلك اليوم بغروبه الجميل، كان المرفأ صغيراً، مصمماً على شكل قوس، وبدا كما لو كان منحوتاً في الساحل، هنالك تحت الجبال، وذلك هو السر في أنه يسمى يوميورا، أي الخليج المقوس. وألوان الغروب كلها تتجمع هناك، في ذلك المكان المجوف. في ذلك اليوم بدت السحب العالية المتموجة في السماء عند المغيب أقرب إلى الأرض من السحب التي يراها المرء في أي مكان آخر. وبدا الأفق البعيد فوق المحيط دانياً على نحو غريب، بدا مثل أسراب من طيور سوداء تهاجر ولايتاح لها مجال كاف لتشق طريقها إلى الجانب الآخر من السحب. ولم يبد أن ألوان السماء تنعكس حقاً في المحيط، بل بدا كما لو أن اللون القرمزي قد انصب في المحيط الصغير في المرفأ فقط، وليس في أي موضع آخر. وكانت هناك مركب مما يستخدم في المهرجانات مزينة بالاعلام كان الناس على متنها يقرعون الطبول، ويعزفون على النايات، وكان هناك على متنها طفل، وقد قلت إنك إذا أوقدت عود ثقاب قرب الكيمونو الأحمر الذي يرتديه الطفل، فإن المحيط بكامله والسماء سوف يتقدان في التو لهباً، باندفاعة مفاجئة. هل تذكر؟

- نعم، أعتقد أنني ربما أذكر..

- منذ اقتراني بزوجي، فإن ذاكرتي فيما يتعلق بالأشياء غدت سيئةً، للغاية، بحيث أنها تثير الشفقة. وأحسب أنه ليس هناك شيء من نوعية أن تكون سعيداً للغاية بحيث يمكنك أن تقرر ألا تنسى. وأنا أعرف أن أناساً سعداء ومشغولين مثلك ليس لديهم الوقت بحيث يسترخون مفكرين في الأيام الكئيبة العائدة للماضي، وأنت بالطبع لست بحاجة إلى ذلك حقاً.. ولكن يوميورا كانت أجمل مدينة عرفتها طوال حياتي.

تساءل كوزومي:

- هل قضيت الكثير من الوقت في يوميورا؟

- أوه، لا. لقد تزوجت، ومضيت إلى نومازو، بعد ستة أشهر فقط من لقائنا. وقد تخرج ابننا الأكبر من الجامعة، وهو يعمل الآن، أما ابنتنا الصغرى، فهي كبيرة بما يكفي لان نعلق الآمال على العثور على زوج لها. لقد ولدتُ في شيزوكو، ولكنني لأنني لم أساير زوجة أبي، فقد تم ارسالي للاقامة مع أقارب في يوميورا. وكنت توَّاقة للعثور على طريقة للتمرد، وبمجرد وصولي مضيت للعمل في الصحيفة. وقد تم استدعائي وتزويجي، عندما اكتشف والداي جلية الأمر، وهكذا فإنني لم أقض في يوميورا إلا سبعة شهور.

- وزوجك..

- إنه كاهنٌ في مزار شنتوي في نومازو

لم تكن هذه هي نوعية المهنة التي كان كوزومي يتوقعها، ولذا

فقد رفع ناظريه إلى محيا المرأة. وربما كان التعبير التالي عتيقاً، وربما انتهى باعطاء القارىء انطباعاً غير موات عن تسريحه المرأة، ولكن شعرها كان مصففاً بأسلوب قصة فوجي الجميلة، وقد اجتذبت عينا كوزومي إليها.

- اعتدنا أن نعيش حياة رخية في ضوء كونه كاهناً، ولكن بعد الحرب غدت الأمور أشد صعوبة بصورة يومية حتى الآن. ولايزال ابني وابنتي يقفان إلى جانبي، ولكنهما يجدان كل أنواع السبل لتحدي أبويهما.

استشعر كويزومي افتقار عائلة المرأة للتناغم فيما بينها.

- المزار الواقع في نومازو ضخم للغاية بحيث أنه لا موضع لمقارنته بالمزار في ذلك المهرجان في يوميورا، وبالطبع فكلما كان المزار أضخم غدت ادارته أصعب. ولدينا بعض المشكلات الآن لان زوجي قرّر بيع عشر أشجار أرز تقع وراء المعبد من دون استشارة أحد. وقد هربت، وجئت إلى هنا، إلى طوكيو.

- .....

- الذكريات شيء ينبغي أن نكون ممتنين له. ألا تعتقد ذلك؟ وأياً كانت الظروف التي ينتهي الأمر بالناس إلى الوصول لها، فإنهم يظل بوسعهم تذكر أمور تنتمي إلى الماضي، وأعتقد أن تلك هبة منحتها لنا الآلهة. وكان هناك الكثير من الأطفال في المزار على الطريق الهابط مخترقاً يوميورا، ولذا فقد اقترحت أن نواصل المسير من دون توقف. ولكن على الرغم من

ذلك فقد كان بوسعنا أن نرى أن هناك زهرتين أو ثلاثاً متفتحة عل شجيرة الكاميلية قرب المرحاض، زهور ربمايقال له «بتلات مـزدوجـة» لازلت أتـذكـر شـجيرة الـكـاميـليـة تـلك فـي بـعض الأحيان، حتى الآن، وأفكر كم كان شخصاً رقيقاً على نحو رائع ذلك الذي غرسها.

كان من الجلي أن كوزومي قد ظهر كشخصية في أحد المشاهد في ذكريات المرأة عن يوميوراً، انبعثت صور شجيرة الكاميلية تلك وذلك المرفأ الذي يشبه القوس في ذهن كوزومي كذلك الآن، وقد استنهضها فيمايبدو ماقالته المرأة. ولكنه ضايقه أنه لم يستطع العبور إلى ذلك البلد في عالم الذكرى، الذي تعيش فيه المرأة. كانا معزولين أحدهما عن الآخر، كعزلة الأحياء والموتى في ذلك البلد الآخر. كانت ذاكرة كوزومي أضعف من ذاكرة معظم من هم في مثل عمره. وفي بعض الأحيان كان يتحدث طويلاً مع أناس يعرف وجوههم، غير أنه لا يستطيع تذكر أسمائهم، وفي حقيقة الأمر أن ذلك كان طوال الوقت. وكان عدم الارتياح الذي يشعر به في مثل تلك الأوقات يختلط بالخوف. وفيما كان يحاول بلا نجاح استدعاء ذكرياته عن المرأة، بدأت رأسه تؤلمه.

– عندما أفكر في الشخص الذي غرس شجيرة الكاميلية تلك، يبدو لي أنني كان ينبغي أن أجعل غرفتي هناك في يوميورا أجمل قليلاً. ولكنني لم أفعل ذلك، وهكذا فقد جئت إليها تلك المرة الواحدة، ثم مرت ثلاثون سنة من دون أن

نلتقي. وذلك على الرغم من أنني لكي أقول الحقيقة قمت بتجميل حجرتي قليلاً حتى في ذلك الوقت لأجعلها تبدو أقرب إلى غرفة أمرأة شابة.

لم يستطع كوزومي تذكر شيء على الإطلاق عن غرفتها. وربما تشكلت التجعيدات على جبينه، ربما غدا التعبير المرتسم على محياه قاسياً قليلاً، ذلك أن كلمات المرأة التالية أظهرت أنها تتأهب للانصراف.

- لابد لي من الاعتذار عن قدومي بهذه الصورة المفاجئة للغاية، كان ذلك شيئاً بعيداً عن التهذيب.. لكنني أردت أن أراك على امتداد وقت طويل للغاية، وكان قدومي إلى هنا مبعث سرور لي حقاً - أتساءل عما إذا كان شيء آخر يمكنه جعلي أكثر سعادة من هذا - هل يثير انزعاجك أن أزورك مجدداً في وقت ما؟ - إذا كان ذلك بمقدوري - فهناك بعض الأمور التي أود مناقشتها معك.

- سيكون ذلك أمراً طيباً.

أوحت نبرة صوت المرأة بأن هناك شيئاً تتكتمه، شيئاً ترددت في قوله أمام الضيوف الآخرين. وعندما خرج كوزومي إلى القاعة ليودعها، وفي اللحظة التي أوصد الباب وراءها، تركت جسمها المشدود يتراخى. لم يستطع كوزومي إلا بالكاد تصديق عينيه، فتلك هي الطريقة التي تسيطر بها المرأة على جسمها عندما تكون مع رجل كانت قد ضاجعته.

- أكانت تلك ابنتك التي رأيتها قبل قليل؟

- أجل.

- أخشى أنني لم أر زوجتك..

سار كوزومي خارجاً إلى الدهليز، متقدماً المرأة من دون أن يحير رداً. رد عليها، فيما كانت تنحني لانتعال خفيها في الدهليز:

- هكذا فقط قطعت الطريق كله إلى غرفتك في مدينة تدعى يوميورا.

التفت المرأة قائلة

- نعم. لقد طلبت مني الزواج. في غرفتي.

- ماذا؟

- كنت مخطوبة لزوجي في ذلك الوقت. وقد قلت لك ذلك، ورفضت. لكن..

بدا الأمر كما لو أن قلب كوزومي قد اخترقه مسمار. فبغض النظر عن مدى السوء الذي وصلت إليه ذاكرته، فإن التفكير في أنه قد نسى تماماً أن يكون قد تقدم لخطبة فتاة، أن يعجز تقريباً عن تذكر تلك الفتاة - إنه لم يشعر حتى بالدهشة، لا - بدا له أمراً بالغ الغرابة. فهو لم يكن قط من نوعية الشبان الذين ينظرون إلى الخطبة باستخفاف.

- كنت من الرقة بحيث تفهمت الظروف التي جعلت من

الضروري بالنسبة لي أن أرفض.

قالتها المرأة، وقد امتلأت عيناها النجلاوان بالدموع، ثم ارتجفت أصابعها القصيرة، وأخرجت صورة من حقيبتها.

- هذان ابناي. ابنتي أطول كثيراً مما كنت عليه، ولكنها تبدو شبيهة إلى حد بعيد بما كنت عليه في مقتبل العمر.

كانت الشابة صغيرة القد في الصورة، ولكن عينيها تألقتا على نحو مشع، وكان لها محيا جميل. وحدَّق كوزومي في الصورة. محاولاً حمل نفسه على تذكر لقاء شابة مثل هذه قبل حوالي ثلاثين عاماً خلال رحلة، بعد أن تقدم لخطبتها.

- سأحضر ابنتي في وقت ما، إذا لم يكن في ذلك ازعاج لك، وعندئذ وإذا أحببت فإن بمقدورك رؤية ما كنت أبدو عليه.

بدا كما لو أن الدموع قد اختلطت بصوت المرأة، أضافت:

- قلت لابني وابنتي كل شيء، ولذا فإنهما يعرفان كل شيء عنك. وهما يتحدثان عنك كما لو كنت صديقاً قديماً. لقد عانيت من ميل فظيع إلى القيء مرتين، وفي بعض الأحيان كانت مسحة من جنوب تستبد بي، ولكن مع تحسن حالة الميل إلى القيء، في حوالي ذلك الوقت الذي يبدأ الجنين في التحرك، الأمر غريب، ولكنني على نحو ما كنت أبدأ في التساؤل عما إذا لم يكن الطفل من صلبك. وفي بعض الأحيان في المطبخ كنت أشحذ سكيناً.. لقد أبلغت ابني بذلك كله أيضاً.

- أنت.. إنك لا تفعلين ذلك أبداً..

عجز كوزومي عن مواصلة الحديث..

على أية حال، بدا أن المرأة قد عانت أشد المعاناة بسبب كوزومي. بل ان عائلتها قد عانت كذلك.. أو ربما، من جانب آخر، أن حياة قوامها المعاناة البالغة قد غدت أيسر بالنسبة لها بفضل ذكرياتها عن كوزومي. وحتى عائلتها قد تأثرت.

لكن ذلك الماضي - لقاؤها غير المتوقع بكوزومي في مدينة تدعى يوميورا - قد واصل بالفعل الحياة بقوة في أعماقها، بينما في حاله كوزومي، الذي اقترف نوعاً من الخطيئة، انطفأ، وضاع تماماً.

- هل أترك الصورة لك؟

رد كويزومي على سؤال المرأة بهز رأسه، وقال:

- لا، لا تفعلي ذلك!

مضت المرأة ضئيلة الجرم بخطى قصيرة عبر البوابة، ثم اختفت فيما وراءها.

التقط كوزومي خريطة تفصيلية لليابان، وكتاباً أُدرجت فيه أسماء كل مدن البلاد وبلداتها وقراها من أحد رفوف المكتبة، وجلبه إلى غرفة الجلوس. وجعل الزوار الثلاثة يبحثون نيابه عنه،لكنه وأياً منهم لم يتمكنوا من العثور على بلدة اسمها يوميورا في أي مكان من جزيرة كيوشو.

- أمر غريب للغاية.

قالها كوزومي، ثم أغمض عينيه، وراح يحدِّث نفسه: «لست أتذكر أنني ذهبت إلى كيوشو أبداً قبل الحرب. لا. إنني على يقين من أنني لم أفعل ذلك. ذلك صحيح. لقد أُرسلت على متن طائرة إلى قاعدة تابعة للقوات الهجومية الخاصة في شيكايا خلال المعركة التي دارت في أوكيناوا - ذهبت كمراسل للبحرية - وكانت تلك هي المرة الأولى التي ذهبت فيها إلى كيوشو. وكانت المرة التالية عندما ذهبت لرؤية نجازاكي يعيد القاء القنبلة النووية. وكان ذلك هو الوقت الذي سمعت فيه بالقصص التي دارت حول السيد كيرا والسيد أكياما، حول قدومهما إلى هناك قبل ثلاثين عاماً، من أناس في نجازاكي.

طرح الضيوف الثلاثة عدداً من الآرآء حول خيالات المرأة أو أوهامها ضاحكين طوال الوقت. وكانت الخلاصة، بالطبع، هي أنها مجنونة. ولكن كوزمي لم يستطع منع نفسه من التفكير في أنه مجنون بدوره. فقد جلس مصغياً إلى قصة المرأة، ما بين مصدق ومكذب أن ما قالته كان حقيقياً، وراح يبحث في أغوار ذاكرته. وقد تصادف أنه في تلك الحالة لم تكن هناك بلدة تدعى يوميورا، ولكن من عساه يمكنه القول أي قدر من ماضي كوزومي يتذكره الآخرون على الرغم من أنه هو نفسه قد نسيه، على الرغم من أنه لم يعد موجوداً في أعماقه. من المؤكد تقريباً أن المرأة التي جاءت في ذلك اليوم ستواصل الاعتقاد، حتى بعد موت كوزومي، أنه قد خطبها في يوميورا. أياً كان ما ستمضي عليه الاوضاع، فالأمر سيان.

أنّا اليابانية

كانت لهما حافظة نقود واحدة، أو إن شئت الدقة فإنه بين الحين والآخر كان يستعير حافظة نقود أخته الصغرى. وكانت حافظة قطع نقدية صغيرة في شكل حدودة حصان من الجلد الأسود، مدرزة بخيط أحمر، للاشارة إلى أنها حافظة نقود نسائية. ولم يدهشه أن أنّا كانت لها حافظة نقود تشبهها تمام الشبه، وإنما افترض أن الفتاة الروسية الجميلة قد سارت على نهج الصرعة التي انتشرت في صفوف التلميذات اليابانيات.

ابتاع حافظة النقود ذات يوم لأخته، عندما اجتذبته إلى متجر أقسام، وصولاً إلى صندوق زجاجي لعرض أدوات التجميل، استقرت عليه سلة مليئة بحافظات النقود.

قالت بنظرة توق في عينيها: «كل فتاة من الفتيات في المدرسة لديها واحدة»، ثم زمَّت شفتيها إزاء لافتة السعر: ٥٠ يناً للواحدة.

هكذا، فإن لأنّا حافظة نقود أيضاً. عندما توقفت لشراء الفاصوليا المملحة، تدلى شالها الأسود فوق عربة البائع مثل جناحي خفاش ميت. وبعد رؤية حافظة النقود وعدم المامه بشيء عنها إلا أنها تمتلك حافظة نقود كحافظة أخته، خطا خطوة للأمام متعجلاً ليحادثها، لكنها غذت السير، وقد التف جناحاها الأسودان حول كتفي أخيها اسرائيل الذي لم يكن يرتدي معطفاً. أما أخوهما الأصغر، دانييل، فقد استكن برأسه الذي لم يكن يعتمر قبعة على جيب ورك رجل عجوز.

كانت تلك هي الساعة، في حديقة أسكوا، التي فيها يتدفق القائمون بالترفيه وفتيات قطع البطاقات خارجين من المسارح والأكشاك، ويتجلى المشردون للعيان. وبغض النظر عن هذا، فإن عائلة الموسيقيين الروس مضت في سيرها الوئيد كالشحاذين على ظلال الاشجار العارية المتجمدة. حذا الشاب حذوهم، فمضى خلفهم أحياناً، وسبقهم أحياناً أخرى، إلي أن انتهت مسيرتهم الوئيدة، أخيراً، عند نُزل رخيص خلف الحديقة. عندئذ، ولكي يرى أنَّا عندما تعتبر ممشى الطابق الثاني إلى غرفتها، عبر الشارع وأسند ظهره إلى سور العيادة الباطنية الأبيض.

وجد، لدهشته، طالباً بالصف الأول من المدرسة الثانوية

وقد استند بدوره إلى الجدار، مثل السحلية، ومضى يحدِّق في الطابق الثاني من النُزل. هكذا فإنه لم يكن الوحيد الذي اقتفي أثر أنَّا. وقد كان هو نفسه طالباً بالصف الأعلى بالمدرسة الثانوية. تجنب كل منهما محيا الآخر المتجهم والموشك على الغرق في الدموع، واحتفظا بيقظتهما الباردة لأكثر من عشر دقائق، ثم فجأة دفع الطالب الأصفر حرملته فوق رأسه، وانطلق مسرعاً مثلما كلب.

دلف طالب الصف الأعلى بالمدرسة الثانوية إلي النُزل، وطلب غرفة إلى جوار غرفة أنَّا.

قال موظف الاستقبال: «سياسة النزل الحصول على ايجار الغرف مقدماً».

رد الشاب: «آه، فهمت». وأضاف: «الإيجار ين واحد وثلاثون سيناً. أليس كذلك؟». غير أنه عندما مدَّ يده إلى جيبه، لم يستطع العثور على حافظة نقوده، وبحث، في اهتياج، في جيوبه الأخرى - سبعة جيوب في اجماليها - ولكن حافظة النقود لم يكن لها أثر.

خطر بباله أن أنَّا لابد قد نشلتها، وتذكر أنه بعد أن غادرت هي وعائلتها دار السينما من الباب الخلفي، توقفوا أمام حلبة تزلج، مندسين وسط المتفرجين، وقد اقترب منها من الخلف، وسمح لأحد أطراف حرملته بأن يمس شالها، من غير أن يجتذب انتباهها، لكنها عندئذ استدارت لتغادر المكان،

ودهست على قدمه.

كان هو الذي غمغم: «معذرة!»، وابتسمت أنَّا، وقد تضرجت وجنتاها حمرة. وبوجهها الناحل وحاجبيها المرتفعين وشفتيها ابتسمت مثل طائر جارح ورمقته بنظرة خاطفة، ثم ابتعدت، وعندئذ كان قد قرر اقتفاء أثرها. ولابد أنها في تلك اللحظة قد نشلت حافظة نقوده.

مدَّ موظف الاستقبال يده، وراحته إلى أعلى، ساخراً.

- لابد أن حافظة نقودي قد سقطت مني في مكان ما. أليس بمقدوري جعل أختي تجلب النقود صباح الغد؟ هذا أمر محرج حقاً. بامكاني الاتصال هاتفياً بالدار التي أنزل بها، ولكن على الرغم من ذلك فإن الوقت سيكون متأخراً للغاية بحيث لا يتيح قدومها الليلة.

- كما سبق لي القول، فإن سياسة النُزل هي تلقى الايجار مقدماً.

- أتقول إنني ليس بوسعي المبيت بالنُزل؟

- آسف للغاية. ربما لايزال الترام يواصل انطلاقه. وإذا كنت في طريقك إلى هونجو، فإن بمقدور على الدوام قطع المسافة سيراً على الأقدام.

بلمحة جانبية رأى الشاب فردة الحذاء الذي تطل به أنّا على المسرح خارج باب غرفتها، فيما كان يهبط الدرج، ويمضي

خارجاً من النُزل. وفي طريقه سيراً على الأقدام إلى هونجو مضى يغني أغنيات روسية بالانجليزية.

عندما دفع ايجار غرفة في النُزل، مساء اليوم التالي، حيّاه موظف الاستقبال، وكأن شيئاً لم يكن.

من خلال شق في البابين المنزلقين اللذين يفصلان غرفتيهما، رأى أن غرفة الروس لا تضم إلا القليل من ما عدا ملابسهم التحتانية المجعدة، حقيبتي سفر باليتين، استقرت عليهما الفاصوليا المملحة وهارمونيكا صدئة، مشجب لتعليق الملابس، تدلت منه باقة متربة وحصان خشبي، وتدلى وسام روسي، بدا أصلياً، من عنق الحصان المقلوب.

- سيدي!

قالتها الخادم من خارج باب غرفة الشاب، عندما أقبلت لترتب الفراش. وكانت تلك أول مرة في حياته يناديه أحد فيها على هذا النحو. فتحت الباب المنزلق، وأضافت:

- إذا كانت فتاتنا الأجنبية قد راقت لك، فربما بمقدوري خدمتك في هذا الشأن.

- ماذا؟

- هل الأمر يساوي عشرين يناً بالنسبة لك؟

- لكنها في الثالثة عشرة من عمرها فحسب!

-عجباً، الثالثة عشر فقط!

عندما عادت أنَّا وعائلتها، تبادلت مع أخيها كلمات قلائل، قبل أن تمضي للنوم، وكان ذلك كل ما هنالك. وفي الغرفة المجاورة ارتجف الشاب على الحشية النحيلة، التي كان بمقدوره أن يحس من خلالها بالأرضية الصلبة.

في اليوم التالي، انتزع من أصدقائه عشرين يناً، ولكن كانت هناك خادم مختلفة في ذلك المساء، ولم تقل شيئاً عن الفتاة.

بعد أن أغفى أبوها وأخواها، مضت أنَّا تدندن لنفسها بصوت خفيض، وعندما استرق الشاب النظر إلى غرفتهم، رآها جالسة في الفراش، وقد دست قدميها فحسب تحت الأغطية. وكانت قد طوت تنورتها بعناية، ووضعتها تحت الحشية. وفي حجرها استقرت مجموعة مرتفعة من الملابس الداخلية، مضت ترتقها، مستخدمة إبرة يابانية، قطعة إثر أخرى.

شتت صوت حركة المرور المتصاعد من الشارع انتباهه، وعندما أطل على غرفة أنَّا مجدداً، كان كل ما استطاع أن يلمحه هو شعرها، وهي راقدة، وقد التفت ذراعاها حول اسرائيل. ورقد أبوها ودانييل في الجانب الآخر من الغرفة. وبنعومة جعل الباب ينزلق، ففتحه، وزحف إلى الداخل. ترك حافظة نقود قرب وسادتها، كانت على شكل حدودة حصان، ومن الجلد الأسود، مدرزة بخط أحمر، تماماً كالحافظة الأخرى. وكان قد مضى لشرائها لها في وقت سابق من ذلك

اليوم من متجر الأقسام.

عندما استيقظ صبيحة اليوم التالي، اكتشف بعين دامعة حافظتي النقود جنباً إلى جنب، بجوار البابين المنزلقين الفاصلين بين الغرفتين. وكانت الحافظة الجديدة لاتزال تحتوي العشرين يناً، التي كان قد وضعها فيها البارحة. أما الأخرى فقد احتوت أكثر قليلاً من ستة عشريناً، وكانت قد أعادت كل النقود التي نشلتها. وفي غرفتهم كان الشيء الوحيد الذي بقي هو الباقة المتربة وقد تدلت من المشجب. كانت أنَّا وأسرتها قد لاذوا بالفرار، حيث أخافتها اهتماماته الصبيانية بها. انتزع زهرة اقحوان اصطناعية من الباقة، دسها في إحدى حافظتي النقود، وانطلق مسرعاً إلى دار السينما. كانت الأفلام قد تغيرت، ولم تعد أسماء أنّا وأخويها تظهر في البرنامج. وكان الأخوة لوبوفسكي قد وصفوا بأنهم يتامى ينتمون إلى الأرستقراطية الروسية، حُوِّلوا إلى لاجئين بفعل الثورة. وخلال الاستراحات، كانت أنّا ذات الأعوم الثلاثة عشرة تعزف على البيانو، واسرائيل ذو التسعة أعوام يعزف على التشيلو، أما دانييل ذو السبعة أعوام فكان يغني هدهدات روسية.

عاد الشاب إلى الدار التي كان ينزل بها، وأبلغ اخته بأنه قد استعاد حافظة نقودها. وقال: «عندما ذهبت إلى مخفر الشرطة في أسكوزا، قالوا إن فتاة روسية فقيرة قد أعادتها إليهم».

- ذلك أمر رائع. هل قدمت لها مكافأة.

- إنها شريدة، ولا أحد يدري إلى أين مضت. وكنت قد يئست من العثور على حافظة النقود مجدداً. دعينا نشتري شيئاً روسياً لنتذكرها به.

- لم يرد شي من روسيا منذ الثورة. المتعاملون في اللباد هم وحدهم الذين يحضرون هذه الأيام.

- ليكن، دعينا نقم بشراء شيء مترف لنفسينا، شيء يبقى طويلاً.

إنتهى به الأمر إلى أن يشتري لأخته حقيبة مواد تجميل قرمزية اللون من متجر الأقسام. وقد اصطحبتها معها في شهر عسلها بعد سنوات قلائل.

في مساء أحد أيام شهر مارس، في جينزا، أقبلت عصبة من الشبان الأشداء متمهلة في مسيرتها كتفاً إلى كتف على الرصيف، فتنحى الشاب تحت الأشجار التي تحف بجانبي الشارع ليفسح لهم المجال للمرور. وراءهم مباشرة أقبل فتى جميل، له محيا أبيض كوجه عروس شمعية، كان يرتدي كيمونو مصبوغاً من نوع كورومي، ويعتمر قبعة مستديرة، سوداء تصل حتى عينيه تقريباً. ويرتدي حرملة طالب ناحلة الأطراف. كان بالغ الجمال إلى حد أن الشاب كان بمقدوره أن يقضم قضمة من قدميه العاريتين في خفيهما الخشبيين. فتاة؟ فيما احتكا أحدهما بالآخر خلال سيرهما. قال: «أنَّا، أنّا!». رد الفتى

بوضوح: «لست أنّا، فمن اليابان أنا»، ثم اختفى كالريح.

غمغم الشاب. محدّثاً نفسه: «لست أنّآ. فمن اليابان أنا». وتحسس على نحو غريزي جيبه، ليتفقد حافظة نقوده، فألفاها قد اختفت.

البحـــر

كان ذلك في شهر يوليو. سار الكوريون مجهدين هابطين الطريق الجبلية الشهباء. وكان الإعباء قد حلّ بهم عندما لاح البحر لعيونهم وقد عبدوا الطريق وصولاً إلى الممر، لكن العمل فيما يتجاوز الممر كان قد رسا على مقاول مختلف، وهكذا كانوا بسبيلهم إلى موقع عمل مختلف.

كانت النسوة قد غادرن القرية عند الفجر. انهارت إحداهن، وربما لم يكن عمرها يتجاوز الخمسة عشرة، أو السادسة عشرة، ومحياها أبيض كصفحة من ورق، عندما لمحت البحر.

- بطني يؤلمني، ليس بوسعي مواصلة السير.

- ما أفظع هذا! لم لا ترتاحين قليلاً وتهبطين مع الرجال لاحقاً؟

- أواثقة أنت من أنهم قادمون.

- بالتأكيد.. ما عليك إلا التقاط أنفاسك هنا.

ضحكت النسوة، ومضين نحو البحر، مثقلات بالحقائب والحزم، ووضعت المرأة الشابة حاجياتها أرضاً، وجلست على العشب.

بعد قليل، أقبل أثنا عشر من عمال الإنشاءات، منحدرين مع الطريق.

- مرحبا! ماذا هناك؟

- هل هناك أحد آخر على الطريق؟

بالتأكيد.

- بطني يؤلمني، سأواصل السير بعد قليل.

دارت رأسها، وهي تتطلع إلى أسفل باتجاه البحر الصيفي. وبدا كما لو أن طنين زيزان الحصاد يخترق جسمها.

أقبل عمال إنشاءات آخرون، كانوا قد تركوا القرية متمهلين، حسبما طاب لهم، وساروا في مجموعات مؤلفة من ثلاثة عمال أو أربعة، وفي كل مرة كانت إحدى هذه المجموعة تمر بالمرأة الشابة كان الحوار نفسه يتكرر:

- مرحباً! ماذا هناك؟

- هل هناك أحد آخر على الطريق؟

- بالتأكيد.

بعد فترة، برز عامل شاب يحمل على كاهله حقيبة كبيرة من الخيزران الرفيع المجدول، من أجمة أشجار أرز يابانية عبقة على حافة الطريق

- مرحباً! ماذا هناك؟

- هل هناك أحد آخر على الطريق؟

- لا - إنني الأخير - لقد تمهلت قليلاً لأودع تلك المرأة.

- تعني أنه لم يعد هناك أحد؟

- على الإطلاق.

- أتمزح؟

- لا تبكي! ما الأمر؟

جلس إلى جانبها.

- بطني يؤلمني للغاية، فلا أستطيع المشي.

- فهمت. دعيني أساعدك. هل تتزوجينني؟

- لا سبيل إلى ذلك، فقد أمرني أبي بألا أتزوج في المكان الذي قتلوه تحت أفقه. قال: «لا تتزوجي جلفًا جاء إلى اليابان

للعمل، عودي إلى كوريا وتزوجي من رجل صالح!».

- ربما كان حديثًا من هذا النوع هو الذي انتهى بأبيك إلى القتل. انظري إلى ملابسك!

- هذا؟

نظرت إلى ثوبها بما طبع عليه من أشكال أزهار وعشب خريفية يابانية. أضافت:

- أحدهم أعطاني إياه. انظر. إنني أريد بطاقة سفر بالقطار وبعض الملابس الكورية.

- ماذا تضم هذه الحزمة.

- إبريق وبعض أكواب الشاي.

- دعينا نتزوج.

- أواثق أنت من أنه لم يبق أحد على الطريق؟

- إنني الأخير. يمكنك الجلوس هاهنا سنوات من دون أن يهبط كوري واحد الجبل عبر هذه الطريق.

- تقصد أنه لم يبق شخص واحد هناك؟

- ذلك صحيح. ما رأيك؟

- ليكن.

- طيب.

انبعث عامل الإنشاءات واقفًا. وعانق المرأة مرتبكاً، وحملا أمتعتهما الثقيلة على كاهليهما.

- تقصد أنه لم يبق شخص واحد هناك؟

- أوه اصمتي!

- خذني بحيث لا أستطيع رؤية البحر!

طيور العقعق

أحضر صديق قديم لي، هو مصور للوحات الغربية، لوحتين تضمان مشاهد طبيعية حافلة بالجليد، وفيما كنا نتجاذب أطراف الحديث في قاعة الاستقبال، ورحت أبدي اعجابي باللوحتين، انبعث واقفاً، فجأة، وخرج إلى الشرفة المطلة على الحديقة.

قال:

- لديك طيور عُقعُق في حديقتك.

- طيور عُقعُق؟ أهذه طيور عُقعُق؟

- أجل.

لم أستطع إلا بالكاد تصديق هذا، ولذا كررت السؤال:

«هناك طيور عُقعُق هاهنا في كاماكورا؟». وفي ضوء عدد الساعات التي أمضاها صديقي في رسم مشاهد الريف، لم يساروني كبير شك في أنه كان يعرف عم يتحدث.

على الرغم من ذلك، فقد كانت دهشتي عظيمة إزاء سماع أن الطيور التي ترتاد حديقتي هي طيور عُقعُق، ذلك أني ما إن تفوه بكلمتي طيور العُقعُق حتى حلق ذهني عائداً إلى الطيور التي يأتي على ذكرها الشعر الياباني كثيراً، وفكرت بصفة خاصة في جسر الأحلام الأسطوري، وهو جسر شيدته عبر درب التبانة طيور العُقعُق التي عقدت أجنحتها صانعة منها جسراً لتمكن الفتى الراعي «التير» والفتاة النساجة «فيجا» من الحفاظ على لقائهما السنوي في ليلة «السبعة المزدوجة». هكذا إذن فهذه هي الطيور التي ارتادت حديقتي كل يوم. ومن قبيل المصادفة أنه ما كان يمكن أن يكون قد انقضى أكثر من أربعة أيام أو خمسة، وفق التقويم الغربي بين «السبعة المزدوجة»، أي السابع من يوليو، وبين تسمية صديقي لزواري المقبلين عبر الأفق.

ربما يكون مخطئاً، ولا تكون هذه الطيور طيور عُقعُق، في نهاية المطاف. ومع ذلك فإنه عندما يكون لدينا زوار، ويتصادف أن تتبدى الطيور للعيان، حتى أجد نفسي في كل الأحوال أقول شيئاً من قبيل: «أنظروا ها قد أقبلت طيور العُقعُق!». وعندما أبلغني صديق أن هذه الطيور هي طيور عُقعُق لم أكترث حتى بالنهوض، فقد اعتدت كثيراً على رؤيتها في

الحديقة، وبدلاً من ذلك أشرت قائلاً: «حوالي اثني عشر منها تهبط لدينا على الدوام». وبدلاً من الخروج إلى الشرفة لإلقاء نظرة عليها. فضلت التفكير فيها، هذه الطيور التي لها في ذهني ارتباطات قوية، فهناك العديد من الاصطلاحات الشعرية بين أسماء الأشياء العادية، ولكن كلمة «كاساساجي» وهي الكلمة التي تشير إلى طيور العُقعُق، تتخلل بقوة عارمة للغاية الشعر الياباني، بحيث أنني أوشك أن أسمع صوت تلك الرفرفة المترعة بالحنين ينبعث متصاعداً في أعماقي.

بعد أن لاحظت هذه الطيور غالباً في الحديقة. سألت صديقي بالفعل. في أكثر من مناسبة، عما إذا كن يعرف أي نوع من الطيور هي.

- إنها أكبر من أن تكون أوناجادوري، أي طيور عُقعُق لازوردية الأجنحة، ترى ماذا عساها تكون؟

على الرغم من أنني عجزت عن ربط هذه الطيور باسم محدد، إلا أنني وصلت إلى التطلع لمقدمها في زياراتها للحديقة ولامكانية رؤيتها يوماً بعد آخر وعاماً بعد عام، وهي تحلق منطلقة من أشجار الحديقة عالياً وتتهادى على مهل وسط العشب بحثاً عن الطعام، بل إنني في بعض الأحيان أحسست بدافع يحدوني إلى أن أقدم لها بعض الطعام، ولكنني لم أستطع أن أضمن ما تأكله قط.

ليست داري بعيدة عن المعبد الكبير، ووراء الدار تل، وفيما

وراء ذلك جبال تحلق منها، في أوقات مختلفة من العام، أسراب من طيور صغيرة عبر الوادي لتهبط على التل، وبعض هذه الطيور - قبّرات، حدآت سوداء، عنادل يابانية، وبومات سكوب - عاشت فيما يبدو، على امتداد سنوات، على التل. وأصواتها يسهل تمييزها، والاستماع إليها يدخل السرور في النفس. وعندما كنت أسمع شدو العندليب، أو صوت بومة سكوب، وقد انغمست في الغرور المتمثل في الاعتقاد أن الطيور أصدقاء قدامى تعود لرؤيتي. وبعد أن أقمت في الدار عشرين عاماً من دون أن تغيب عني الطيور ولو مرة واحدة في عودتها في الموسم المحدد، وصلت إلى افتراض أنها هي الطيور ذاتها التي تعود عاماً بعد عام.

لم يكن مدى طول عمر الطيور قد خطر ببالي إلى أن وجدت نفسي ذات يوم أسأل صديقي: «أتساءل كم يبلغ عمر العنادل أو الحدآت؟ إنني أعتقد أنها العنادل ذاتها والحدآت عينها، أتساءل كم جيلاً من الطيور زارتنا على امتداد عشرين عاما؟

في الربيع الباكر يبدو العندليب كأنه وليد يلثغ، ولكن يوماً بعد آخر، ومن خلال الممارسة المستمرة، فإن لثغه الطفولي يتحول إلى شدو عندليب. والآن ها آنذا أشرع في التساول عما إذا كانت الطيور قد نسيت كيف تشدو، أو ما إذا كانت بينها طيور صغيرة تتعلم الشدو للمرة الأولى.

لابد أن أجيالاً عديدة من الطيور قد عاشت وماتت على التل الواقع خلف الدار، على امتداد العشرين عاماً الماضية. كيف

أمكن لي الاعتقاد أن الطيور نفسها قد واصلت الحياة بعد كل هذه السنين؟

الآن وقد علمني صديقي اسم الطيور التي ترتاد الحديقة، فإن الكلمة يبدو أنها تخللت خواطري إلى حد أنني أشعر كما لو أنني لمست قلب الشعر الذي ينشده شعب عتيق.

لطائر العُقعُق صوت غير جذاب، وهو يحرك جسمه الرشيق بعصبية بالغة. وإنني لأجد أن هناك القليل فيما يتعلق بهذا الطائر مما يعيد إلى الأذهان صورة طيور العُقعُق التي انحدرت إلينا من الشعر الياباني، صورة الطيور التي تشكل جسر الأحلام. ومع ذلك فإنني في الوقت نفسه أجد أن من المستحيل النظر إلى الطيور من دون القيام بهذا الربط.

إن الطيور التي تحلق عالياً في حديقتي لا تعرف، بالطبع، أنها تدعي بطيور العُقعُق، أو أنها مطوَّبة في الشعر العتيق، إنها حقاً تتوهج بالحيوية.

لقد نشأ صديقي الذي يصر على تسميتها بطيور العُقعُق في جزيرة كيوشو النائية.

صف من الأشجار

امتد صف من أشجار الجنكة العملاقة على أحد جانبي طريق يمضي صاعداً التل. وفي منتصف طريق الصعود أفضى درج حجري ضيق إلى أحد الجانبين، وانحدر متجاوزاً صفاً من البيوت. وكان بيت عائلة سويدا هو البيت الثالث في الصف.

عاد سويدا من العمل عند الغسق في الثلاثين من نوفمبر، ولدى رؤيته لوجهي زوجته وابنته عند المدخل، سألهما في التو: «هل لا حظتما أن نصف أشجار الجنكة تجردت من أوراقها؟».

كان من الواضح أنه يقصد بـ «أشجار الجنكة» صف الأشجار الممتد على جانب الطريق، ولكن الكلمات التي استخدمها لم تنقل الكثير مما يتجاوز ذلك، ولذا واصل الحديث:

- لاحظت ذلك في طريقي إلى العمل هذا الصباح. ودعاني أقل لكما إن ذلك صدمني، فأشجار الجنكة من سفح الطريق صعوداً حتى المنطقة المحيطة بدارنا مجردة تماماً من الأوراق. ولكن الأشجار من المنتصف فصاعداً لاتزال مليئة بالأوراق.

قالت ابنته:

- حقاً؟ لم ألاحظ ذلك.

قالت زوجته:

- هل الأمر كذلك؟

- ترى كيف حدث ذلك؟ النصف الأسفل وحده من صف الأشجار تجرد من الأوراق.

سألت ابنته أمها:

- ما أغرب أننا لم نلحظ ذلك. هل نمضي إلى هناك ونلقى نظرة؟

- الظلام حلَّ بالفعل. وفضلاً عن ذلك فإنه يمكنك رؤية الأشجار من الطابق الثاني.

أو مأت زوجته موافقة، وقالت:

- نعم، ذلك صحيح. أليس كذلك؟ يحسب المرء أننا سنراها كل يوم من فوق. ليس بوسعي تصديق أننا لم نلاحظ..

- نعم، بالضبط. يتعين أن تريها، لكنك لا تفعلين ذلك.

غيَّر سويدا ملابس الخروج إلى ملابس مريحة بصورة أكبر كان يرتديها في الدار، وخطر بباله ،فيما هو يقوم بذلك، أن الشعور الذي ساوره في صباح ذلك اليوم - الإحساس بأنه قد قام باكتشاف - لم يكن من النوع الذي ينتقل إلى الآخرين، كما اعتقد، حيث لم تبد زوجته منفعلة على الاطلاق.

بعد أن سار سويدا في الطريق ذلك الصباح، تطلع إلى الوراء بصورة عرضية، وعندئذ توقف مندهشاً، فقد كانت أشجار الجنكة على امتداد أسفل الطريق مجردة من أوراقها بصورة كاملة، صعوداً حتى أعلى الغصون. ومع ذلك فإن حشد الأشجار وصولاً حتى القمة كان كتلة كثيفة من أوراق الأشجار الصفراء. واستغرق الأمر حوالي دقيقتين لقطع الطريق نزولاً إلى أسفل، وكان قصيراً بما يكفي لاستيعاب كامل امتداده بنظرة واحدة - ولم يكن صف الأشجار طويلاً. وهكذا فإن الانقسام بين الأشجار المجردة من الأوراق والأوراق الصفراء قد اندلع بكامله فجأة في مواجهة عين سويدا، فتركه متأثراً على نحو غريب. وبدت الأغصان العارية الممتدة من الأشجار الهائلة في الجزء الأسفل من الطريق حادة بشكل خاص في مواجهة خلفية قوامها الأوراق الصفراء عند القمة، ولاحت الأوراق التي ارتفعت فوق الطريق عند القمة ثرية اللون، وأكثر كثافة في طبقاتها من المعتاد، مع وجود كل تلك الأشجار المجردة من الأوراق في المقدمة. وكان الاحساس بالارتفاع الكبير الذي يستشعره المرء وهو يتطلع إلى أشجار الجنكة حاداً

بشكل خاص، في مواجهة هذه الأشجار. وحتى الفروع الصغيرة الوفيرة الممتدة من الأشجار المجردة من الأوراق برزت نحو السماء، كأنما هي تحاول معانقة الجذوع، متخذة أشكالاً قريبة بصورة محكمة من هذه الجذوع. وأثارت كتلة الأوراق الصفراء شعوراً بالكثافة، يمكن لطبقات من أوراق الأشجار الكثيفة وحدها أن تثيره، ولكنها وهي تستحم في شمس الصباح بدت ساكنة ومنعزلة.

لم ينقسم حشد الأشجار المجردة من الأوراق وجمع الأشجار ذات الأوراق الصفراء بصورة مرتبة عند شجرة بعينها على الطريق، وإنماحدث الانقسام بصورة عامة عند منتصف الطريق إلى أعلى تقريباً. لماذا ينبغي أن يحدث عند منتصف الطريق.. كان هذا بدوره لغزاً بالنسبة لسويدا.

كان يمر تحت هذا الصف من أشجار الجنكة كل يوم في طريقه إلى العمل وفي عودته منه. وكانت أيام عديدة قد انقضت منذ ساوره لأول مرة الشعور بأن أوراق الخريف قد أسرعت في التساقط. ولكن متى تجردت الأشجار الممتدة على أسفل الطريق من أوراقها؟ كان سويدا قد دهش دهشة بالغة حيال ما رآه إلى حد أنه فكَّر في العودةإلى الدار لإبلاغ زوجته وابنته بالتغيير، هذا التغيير الغريب في صف الأشجار.

أبلغهما بالأمر في ذلك المساء. وبالطبع، لم تكن أي منهما قد لاحظته. قالت ابنته، وهي تهبط الدرج:

- الأمر كما يقول أبي تماماً،استطعت رؤيته من الطابق الثاني.

- حسبت أنك سنتمكنين من رؤيته. وكان بامكانك رؤية موضع الانقسام؟

- بدأ الظلام ينتشر، لكنني استطعت رؤيته، ربما سأمضى إلى الطريق، وألقى نظرة.

مضت إلى المدخل. كانت زوجته تشرب بعض الشاي، الذي كانت قد صبته له، ولم تبد ما يشير إلى تحفزها للنهوض.

- ألن تذهبي يا إكيكو؟ أوه، طيب. أحسب أن بوسعك الذهاب صباح الغد، وذلك على الرغم من أنه لن يدهشني الأمر، إذا فقدت الأشجار في أعلى الطريق كل أوراقها الليلة.

- ليست هناك ريح.

- ألم تكن هناك ريح قوية قبل أيام قلائل؟

كان رذاذ قد تساقط، لكن الريح لم تهب.

كان الطريق ينهض، على وجه التقريب، من الشرق إلى الغرب. وهكذا فإنه إذا قُدِّر لرياح شرقية أن تهب، أليس ممكناً أن أشجار الجنكة الواقعة على امتداد النصف السفلي من الطريق هي وحدها التي ستفقد أوراقها؟ مضى سويدا يقلِّب هذه الفكرة في ذهنه. ولكنها لم تبد ممكنة. أن ينقسم صف أشجار وغُرس، بحسب ما يمكن للمرء القول، في وقت واحد

قبل زمن جد بعيد إلى نصفين أحدهما عار من الأوراق والآخر متوهج الصفرة.. كانت تلك ظاهرة طبيعية افتقر سويدا إلى المعرفة التي يمكن أن تفسرها. وهكذا مضى يحدِّث نفسه بصوت عال، مختبراً أفكاراً مختلفة راح يطرحها على زوجته. إن الطريق يمضي ناهضاً من الشرق إلى الغرب، وهكذا فإن الأشجار في الصف لابد أنها تحصل على وجه التقريب على القدر نفسه من أشعة الشمس في المتوسط، باستثناء أن الطريقة التي ينهل بها الضوء على الأشجار في الصباح والمساء قد تكون مختلفة بطريقة مراوغة في الشرق المنخفض والغرب المرتفع.. أو ربما على الرغم من الحقيقة القائلة إن الريح لم تكن قوية مؤخراً بصفة خاصة، فإن شيئاً يتعلق بالرياح الشرقية الريح لم تكن قوية مؤخراً بصفة خاصة فإن شيئاً يتعلق بالرياح الشرقية والغربية قد.. كانت الأفكار كلها بعيدة الاحتمال، ولكن على الرغم من ذلك فإن سويدا مضى إلى حد اغماض عينيه والتركيز على طوبوغرافية المنطقة المحيطة بالطريق وقد عرف الأرض بصورة جيدة للغاية بحيث أنه كان باستطاعته تصور خصائصها، حتى من دون اغماض عينيه، ولكنه لم يستطع ادراك كيف ترتبط هذه الخصائص بتساقط أوراق الأشجار.

- طيب، على أي حال، فلابد أن أوراق شجرة الجنكة حساسة للغاية بالنسبة للتغيير في شيء ما. إنني على يقين من أنها تساقطت فحسب بسهولة بالغة.

عندما سمعت إيكوكو زوجها يتحدث بهذه الطريقة، خلصت إلى أنه لابد أن يكون في حال مزاجية جيدة. ولذا طرحت موضوعاً من عندياتها.

- اليوم.. طيب، إنه أمر لا يبعث الحديث عنه السرور في النفس، لكن شيئاً حدث اليوم فجعلني أدرك أي انسانه طيبة حقاً هي يوكو. الأمر يستعصي على التصديق، حقاً. لست أدري، ربما قد أصبحت انسانة أفضل اليوم وهي توشك على الزواج. ربما كانت تلك هي جلية الأمر. على أي حال، لست أريد أن تغضب منها عندما تعود. أتفقنا؟

استبقت كلمات إيكوكو رد فعل سويدا، وكبحت جماحه.

حدث ذلك في أصيل اليوم، بينما كانت إيكوكو خارج الدار تتسوق مع الخادم، في وقت كانت ابنتهما بالدار وحدها. وكانت يوكو قد حملت مقعداً إلى بقعة مشمسة في الرواق، وعكفت على حبك سترة من الصوف.

- يا آنسة.. لديَّ صابون ومواد تجميل جيدة، و صوف جيد أيضاً. هل تشترين شيئاً منها؟

ترامي صوت امرأة إلى سمع يوكو، ودُهشت لرؤية المرأة واقفة قربها تماماً. كان سور من الساسنكوا المزدهرة يمتد للداخل من البوابة، ويتعين على المرء عبور باب صغير بالقرب من الباب الخارجي لكي يدخل الحديقة. ولكن مع ذلك فقد دخلت المرأة البيت.. كانت في الداخل فجأة. هل كان الباب

الصغير مفتوحاً؟ هل فتحته المرأة بنفسها لأنه كان خفيضاً؟ عندئذ رأت يوكو أن المرأة الشابة كانت تحمل وليدا على ظهرها، فتخلت قليلاً عن حذرها. بدا وجه المرأة الذي سفعته الشمس متورماً قليلاً، لكن شعرها كان مرجلاً بعناية. كانت صغيرة الجرم، ممتلئة القوام، وقد وضعت على شفتيها بكثافة أحمر شفاه مكبوح الظل، وانعكست ابتسامة واهنة على وجهها المستدير. وحملت قطعة قماش كبيرة إلى حد ما كانت قد طوتها لتشكل حقيبة. لم يكن فيها شيء من الصرامة الموحية بالتهديد التي يتسم بها البائع الجوال بالقوة، ولكن على الرغم من ذلك فإن يوكو لم تشعر بالارتياح، وردت باحجام:

- لديَّ صوف هنا أيضاً. ولست بحاجة إلى المزيد.

- أراهن أن ما لديّ من صوف أفضل من ذلك.

عبرت المرأة الدرج الحجري إلى الدرجة التي يقف عليها أفراد الأسرة، عندما يخلعون نعالهم، وإذ وقفت هناك، مضت تحدِّق في وقاحة في صوف يوكو وتجسه بيدها، ثم من دون أن تعقب على الصوف حوَّلت وجهها نحو الحديقة.

- لديك حديقة جميلة حقاً. أليس كذلك؟ أتمنى لو أنني كنت ثرية بما يكفي للاستقرار في بيت كهذا.

- لا أستطيع شراء أي شيء. ولكن يمكنك انزال الصغيرة والاستراحة قليلاً إذا أحببت.

- ألا يزعجك ذلك؟

وضعت المرأة لفافتها أرضاً في الرواق، وبلا تردد على الاطلاق انتزعت الصغيرة من على ظهرها.

قالت يوكو:

- لقد جعلت كل شيء مرتباً بشكل دقيق.. ربما كان ينبغي ألا أقول شيئاً.

كان بوسعها أن تشم رائحة حفاض الصغيرة.

- يمكن أن يكون من المتعذر حقاً العثور على مكان لرعاية طفلة صغيرة، عندما تتجولين على هذا النحو طوال النهار.

أطلت يوكو على الصغيرة من مقعدها:

- إنها فاتنة إلى حد بعيد. كم عمرها؟

- أحد عشر شهراً. الناس يتحدثون عن كيف أن «طفل المرء ليس عبئاً على الاطلاق». أليس ذلك صحيحاً؟ طيب، عندما تحملين طفلتك على كاهلك وتتحركين بها هنا وهناك طوال النهار، فإنها تتحول إلى متاع ثقيل للغاية.

رفعت المرأة الشابة أسفل كنزتها، نحّت قميصها التحتاني جانباً، وألقمت الصغيرة ثديها. كان ثدياً ممتلئاً إلى حد بعيد ومشوباً بالزرقة على نحو خفيف. وبدا أن الحليب ينساب خارجاً منه على نحو سريع، حيث غصت الصغيرة به في بعض الأحيان، وتقاطر الحليب الأبيض من ركن فمها. فاقتربت يوكو منها وجففت شفتيها باصبعها. وأبهجها النحو الذي مضى زور

الصغيرة يتحرك به في كل مرة يمتص الحليب - وجدتها فاتنة إلى حد بعيد - وهكذا فإنها لم تفكر كثيراً في ثدي المرأة المترع، الذي برز على نحو وافر أمام عينيها. ولم تكن المرأة بدورها محرجة بالمرة.

سألت المرأة:

- هل يزعجك أن أغيرِّ حفاضها هنا أيضاً؟ ليست هناك بيوت كثيرة فيها ناس في مثل لطفك.

شاهدت يوكو ما قامت به المرأة، وعندما انتهى كل شيء، رفعت الصغيرة عالياً. تسلل إلى أصابعها ويديها الشعور بالشغف والملاطفة عندما لمست بشرة الطفلة، وعجزت برهة من الوقت عن تركها.

قالت المرأة:

- ليس لديكم صغار هنا. أليس كذلك؟

- كلا. ليس لدينا.

- هل أنت ابنة وحيدة؟

- لديَّ أخ أكبر.

- حياتك لطيفة حقاً هنا. أليس كذلك؟ حتى انسانة مثلى.. حتى أنا يساورني شعور طيب هنا.

فكرت يوكو في السؤال عن والد الطفلة. ولكنها خلصت إلى أن تلك ستكون فكرة سيئة.

هبطت المرأة الدرج إلى السور النباتي، وسارت متطلعة إليه، بدا أنها تتشمم زهور الساسانكوا.

- هناك، يقيناً، الكثير من الزهور. أليس كذلك؟ إنها جميلة.

تساءلت يوكو عما يساور المرأة من شعور، وما الذي تفكر فيه وهي تتطلع إلى الزهور. وقد جعلها النظر إلى ظهر المرأة القصيرة، ذات القوم الممتلىء تشعر بالوحدة.

مضت يوكو، وهي لاتزال تمسك بالصغيرة في ذراعيها، إلى غرفة المعيشة، وجلبت جزداناً، كانت تتقاسمه هي وأمها، وتسميانه «جزدان المطبخ».

- أي نوع من الصوف لديك؟

- أوه، يا آنسة، كان مجرد تركي أرتاح هنا كافياً.

قالتها المرأة. ولكن حتى فيما هي تقول ذلك كانت تفك حزمتها، فاردة اياها. وكانت هناك حزمتان فقط من الصوف، إحداهما زرقاء والأخرى حمراء وردية شاحبة. فابتاعت يوكو الأخيرة.

مضت الصغيرة تزحف في الرواق، طوال هذا الوقت، رافعة صوتها بصيحات غير مفهومة.

- إنها تلهو. يثير الانطلاق بحرية في مثل هذا المكان الرحب شعوراً جيداً.

سألت يوكو عما إذا كان بمقدور الصغيرة تناول البسكويت الآن، ثم انبعثت واقفة، وعادت إلى داخل الدار لجلب بعض البسكويت. ولم تغب إلا دقيقة، ولكنها عندما عادت كانت المرأة قد حملت الصغيرة على كاهلها، ومضت تستعد للرحيل. وتقبلت حزمة البسكويت الملفوف بالورق على نحو مهذب.

قالت، وقد أحمرّ وجهها قليلاً، فحجبته:

- شكراً، يا آنسة. تعرفين أنني أمضي من دار إلى أخرى، لكنني لا أرى إلا بالكاد وجهاً لطيفاً. لئن صادفني أي شيء جيد فسوف أجلبه. أعدك. سأعود، يا آنسة!

مضت يوكو ترقب المرأة وهي تنطلق في مسيرتها، ثم وضعت الصوف الذي ابتاعته لتوها على ركبتيها، ومسدته، متذكرة ملمس بشرة الصغيرة. وعقب ذلك تحولت بناظريها إلى سور الساسانكوا. وكانت تراه هنالك كل يوم، ولذا فقد تعودت عليه.. بدا الأمر كما لو أنها لم تراه في اكتمال ازدهاره من قبل قط. كانت هناك زهور كثيرة للغاية إلى حد أن الأمر أوشك أن يبدو غريباً، وعلى الرغم من ذلك فإن يوكو راحت تتساءل مجدداً عما كان يدور بخلد المرأة. ما الذي ساورها من مشاعر وهي تعبر سور الساسانكوا فيما هي تتطلع إليه؟ لم تكن ملابس المرأة في أفضل الأحوال، ولكن الصوف الأحمر الوردي الذي كان في حجرها كان، بالطبع، جديداً تماماً.

لم تدرك يوكو ،إلا بعد مرور بعض الوقت، أنها لاتدري

مصير الجزدان، فهو لم يكن في أي مكان في الرواق. وخطر ببالها أنها ربما تكون قد أعادته إلى خزانة الجواريز في حجرة المعيشة، عندما مضت لاحضار البسكويت، لكنه لم يكن في أي من الجواريز، عندما بحثت عنه، كما لم يكن قد سقط في الحديقة.

قالت إيكوكو بعد أن أبلغت سويدا بالقصة:

- لا تعتقد يوكو أن الجزدان سُرق. وهي تقول إنه لابد أن الصغيرة قد أمسكته مصادفة عندما كانت تزحف في الرواق. وتقول إن الأم لابد أنها قد رفعت الصغيرة على كاهلها، من دون أن تلحظ أن الجزدان في يدها، وانطلقت بينما هي لاتزال ممسكة وإذا كان الأمر كذلك، فلابد أن الجزدان قد سقط من يده الصغيرة، ووقع في مكان ما على امتداد جانب الطريق. ومن غير المحتمل أن الصغيرة قد أمسكت وقتاً طويلاً للغاية وقد بحثت في أعلى الطريق وأسفله كليهما فيما يبدو، أي على امتداد الطريق.

فهم سويدا من طريقة إيكوكو في الحديث أن الجزدان لم يتم العثور عليه.

- من المؤكد أن أحدهم قد عثر على الجزدان، إذا كانت الصغيرة قد اسقطته على جانب الطريق، ذلك ما تقوله يوكو.

- ألم تشك في المرأة؟

- إنني على يقين من أنها قد شكّت فيها، ولكنها لم ترد

ذلك. وهي تقول إنها لا يمكنها حتى أن تتصور أن امرأة مثلها يمكن أن تأتي شيئاً سيئاً.. وانها ليست من هذه النوعية من النساء. ولا يساورها شك في أنها ستعود لإرجاع الجزدان، لو أنها كانت قد وضعته في حزمتها من دون ملاحظة ذلك، عندما كانت تحزم أغراضها. وقد توقعت أن تعود راكضة في أي وقت. وفيما يبدو، فإنها لم تستطع التزام الهدوء إلى أن عدت للدار. وعندما أدركت أن المرأة ليست بسبيلهاإلى العودة لارجاع الجزدان، خلصت إلى أن الصغيرة مضت به وأسقطته.

كان سويدا قد حُذِّر من توبيخ يوكو، ولذا فإنه لم يقل أي شيء على نحو متعجل للغاية، فقد كان ممكناً، في نهاية المطاف، أن كل شيء حدث كما قالت يوكو تماماً.. أن الأمر كان تصرفاً بريئاً من الصغيرة، وليس سرقة. وبدت الفكرة القائلة إن الصغيرة قد مضت بالجزدان ثم أوقعته من نوعية الأفكار التي يتم تصورها على نحو جميل، ففقدت حالته المزاجية حدتها.

- كم من المال كان بالجزدان؟

- لقد ابتاعت الصوف، وهكذا فإنني أقول إنه ربما كان يحتوي على ألفين وستمئة ين أو سبعمئة ين.

تذكر سويدا أنه قد أخطأ ذات مرة، فاعتقد أن ورقة من فئة الخمسة آلاف ين هي ورقة من فئة الألف ين، عندما كان يترجل من سيارة أجرة في الظلام، وأعطاها للسائق. وقد

حدث ذلك بعد وقت قصير من بدء تداول الورقة ذات الخمسة آلاف ين. وكان السائق قد أعطاه بقية النقود التي تتناسب مع ورقة الألف ين، وبالطبع لم يكن هناك سبب يدعو سويدا إلى الشك في الرجل على الاطلاق، ما من سبب يدعوه إلى التمعن فيه، لتبين ما إذا كان قد عرف أنها ورقة من ذات الخمسة آلاف ين من عدمه. وقد مال سويدا في ذلك الوقت إلى الاعتقاد بأن السائق لم يلحظ الأمر بدوره، تماماً كما لم يلحظه هو.

كان قد أبلغ ايكوكو، في ذلك الحين، بمسألة الورقة ذات الخمسة آلاف ين، ولكنه لم يأت على ذكرها الآن.

- لم يُسرق أي شيء من يوكو قبل ذلك قط. أليس كذلك؟

- عندما تقول سُرق.. فإنك تقصد هل أخذ أحدهم أي شيء من أغراضها؟

هكذا أعادت إيكوكو صياغة السؤال، وأضافت.

- أتساءل.. أي شيء من أغراض يوكو..لا، لست أستطيع التفكير في أي شيء. ربما لم يُسرق منها أي شيء.

أدركا من وقع خطى يوكو المتعجلة أنها قد عادت.

قالت لدى قدومها إلى غرفة المعيشة:

- ألقيت نظرة فاحصة على الأشجار. الأمر ليس كما قال أبي تماماً، لكنه غريب.

- ما هو الذي ليس كما قلته تماماً؟

- الأشجار المجردة من الأوراق والأشجار ذات الأوراق ليست مقسمة بصورة واضحة حقاً.. إنها لا تنقسم في منتصف الطريق فحسب، فلاتزال هناك أوراق قليلة على بعض الأشجار في الجزء السفلي من الطريق، وهناك بعض الأشجار في أعلى الطريق فقدت معظم أوراقها.

- هل قمت بفحص كل شجرة؟

- نعم، فالقمر مطل، بل كان باستطاعتي رؤية القليل من النجوم.

تطلعت يوكو إلى محيا أبيها مباشرة، وأضافت:

- أبي، هل سمعت بأمر الجزدان؟

- سمعت به.

- إنني آسفة.

ترك اعتذار يوكو سويدا عاجزاً عن الحديث للحظة، وواصلت يوكو حديثها:

- عبرت الطريق مرتين اليوم. كنت أبحث عن الجزدان عصر اليوم، ولذا كنت أتطلع إلى أسفل طوال الوقت. أما هذا المساء فقد كنت أنظر إلى أعلى طوال الوقت، بل إنني شاهدت القمر.

ضحك سويدا ضحكة خافتة.

- أذكر أنني اعتقدت عصر اليوم أن الكثير من الأوراق قد سقطت، ولكنني على نحو ما لم ألحظ أبداً أن الفروع الممتدة فوق رأسي كانت مجردة من الأوراق.

قال سويدا:

- أتساءل عما إذا كانت هذه النوعية من الأمور قد حدثت من قبل؟ هل تعتقدين أن الأشجار عند أسفل الطريق تفقد أوراقها أولاً على الدوام؟

لكن رد إيكوكو الوحيد كان التنهد وإمالة رأسها جانباً.

كانوا قد أقاموا سنوات إلى جوار صف أشجار الجنكة مباشرة، ولكن أياً منهم لم يستطع تذكر ما إذا كان الأمر على هذه الشاكلة كل خريف.

دمدم سويدا قائلاً:

- لابد أن شيئاً ما قد اعترانا.

- سنحرص على ابداء المزيد من الانتباه العام المقبل.

قالتها إيكوكو، ثم عندما تذكرت أن ابنتها لن تكون في الدار عندما يحل خريف العام المقبل غلبها الشعور بالوحدة، فقالت:

- لم لا نبعث برسالة إلى شينيتشي في كيوتو؟ إنه يتجول سيرا على الأقدام، وهو يهتم بالنباتات وما إلى ذلك.. ولن يدهشني أن يكون قد لاحظ الأمر.

قالت يوكو:

- ربما سألتقط غداً بعض الصور للأشجار وأبعث بها إليه.

مضت إيكوكو في اليوم التالي مع سويدا إلى الجزء السفلي من الطريق، لتتمكن من القاء نظرة أفضل على صف الأشجار. وخرجت يوكو في اعقابها. وعلى نحو متواتر كانت تركض فتسبقهما، متوقفة لالتقاط صورة لصف الأشجار ولأبويها، وهما واقفان أمامه. وتحول الأمر بأسره إلى حدث حافل.

بعد ثلاثة أيام، وفي وقت متأخر من الليل، هبت ريح عاتية. كان ديسمبر قد بدأ. رقد سويدا وإيكوكو في الفراش يصغيان لزفيف الريح، ويناقشان أمر أشجار الجنكة، فالأشجار الواقعة في أعلى الطريق ستتجرد غالباً من الأوراق في الصباح، وفقاً لما أجمعا عليه.

قالت إيكوكو:

- ستغطي أوراق الأشجار الحديقة مجدداً.

- نعم، يتعين عليَّ القيام بكنسها. أتذكر ذلك، فهو أمر يحدث كل عام.

تناهي من أشجار الجنكة المصطفة صوت تلاطمها، في غمار هبوب الريح. لم يكن هناك موضع للتساول حول هذا. وبدا أنه قد يكون هناك صوت آخر أيضاً.. هو الصوت الخافت المنبعث من تساقط أوراق أشجار الجنكة على الأرض.

- من حسن الحظ أن يوكو قد التقطت الصور. أليس كذلك؟ يمكننا أن نطلع شينيتشي عليها عندما يأتي للدار لقضاء عطلة الشتاء. وهو يقول إنه لم يلحظ الانقسام بدوره.

أدرك سويدا أن زفيف الريح قد ذكَّر إيكوكو بابنهما. وكان رد شينيتشي قد وصل صباح ذلك اليوم. وقد كتب يقول إنه لا يتذكر الكثير عن مراحل سقوط أوراق أشجار الجنكة.

كان صف أشجار الجنكة، الذي تجرد نصفه من الأوراق، وبقي النصف الآخر مكتسياً بها، قد بدا لسويدا كما لو كان اكتشافاً خاصاً به. وساوره الآن الشعور بأن الأوراق الأخيرة ذاتها من الأوراق الصفراء تكتسحها الرياح الليلية العاصفة.. وكان بمقدوره أن يستشعرها في البرودة التي غمرت قفاه. تماماًكما قالت إيكوكو، سيتعين عليهما ايضاح الأمر لشينيتشي بالاستعانة بالصور.

كان شينيتشي قد مضى إلى الجامعة في كيوتو بالمخالفة لرغبات عائلته. وكان سويدا لايزال عاجزاً عن فهم السر في أنه كان معارضاً للغاية لفكرة الالتحاق بإحدى الجامعات العديدة في طوكيو. وقد قال الفتى إنه يحب اليابان القديمة، التي تنتمي إليها كيوتو ونارا، وشدَّد على أن الوقت الوحيد في حياته الذي سيكون بمقدوره فيه أنه يرى هاتين المدينتين كيفما يشاء هو خلال أيامه بالجامعة.

بدأ سويدا في التساؤل مجدداً، بلا طائل، وسط الريح، عما

إذا لم يكن شينيتشي قد أراد أن يجرّب العيش بعيداً عن الدار فحسب، وعندئذ خطرت بباله إحدى الصفات الصغيرة المميزة لايكوكو. ففي الخريف عندما تبدأ فواكه هذا الموسم في الظهور بكميات كبيرة في المجال، كانت تشتريها بحسب تفضيلاتها اللونية. وكانت تحب لون ثمار التفاح الأحمر، على سبيل المثال، ولكنها كنت تكره لون ثمار اليوسفي. وقد تناولت هذه الثمار، وفي مواسم ندرتها - عندما كانت ترى أعداداً قليلة منها في المرة الواحدة - بدا أن هذه التفضيلات لا تفرض حضورها. ولكنها كانت تشعر بعدم الارتياح قليلاً عندما يكوّم الخيار والخضروات الأخرى في المتاجر، وغالباً ما كانت تحجم عن ابتياعها. ثم كانت هناك أوقات يصعب فيها ارضاؤها كذلك على نحو غير متوقع. وقد حدث ذلك قبل ما يزيد على خمسة عشرعاماً، ولكن سويدا كان لايزال عاجزاً عن نسيان المناسبة التي اكتشفت فيها إيكيكو قطعة صغيرة وحيدة من أظفر قدم كانت قد سقطت على التاتامي - هذا على الرغم من الحقيقة القائلة إنه كان قد قص أظافره فوق صفحة من جريدة - والتقطتها، متفززة.

كان سويدا قد غضب بدوره، وقال:

- قطعة صغيرة من جسم شخص تُفصل عنه، وفجأة تعتقدين إنها قذرة! إنك لا تلحظين الأمرعند التقبيل، ولكن إذا قيل لك إن عليك تبادل اللعاب مع شخص آخر، فإنك ستجدين أن الفكرة مقززة، حتى إذا كان ذلك الشخص الآخر حبيباً.

أليس كذلك؟

كان هذا المثال بعيداً عن التوفيق تماماً، على نحو يمكن الاقرار به، لكن إيكيكو عجزت عن نسيان تلك الكلمات على امتداد شهرين تقريباً، ولم يعرف سويدا ماذا عساه يفعل.

ربما كان هذا الجانب في شخصية إيكوكو قد ورثه ابنهما شينيتشي؟ فقد كان عنيداً حقاً، ولكن سويدا لم يعتقد أنه يخاف الخيار المكوّم. ومن المؤكد أنه لم يكن هناك شيء من هذا القبيل عند يوكو. فجأة، انبعثت صورة ليوكو في ذهن سويدا، غير مرتبطة بالمرة بما كان يفكر فيه. كانت صورة ليوكو على نحو ما كانت عليه عندما كانت طالبة في الصفوف الأولى من الدراسة الثانوية. وكانت عاكفة مع صديقة لها على رسم لوحات، لكنهما توقفتا، ومضت إحداهما تطلى باللون الأحمر أظافر أصابع يد الأخرى. حاول سويدا أن يستحضر في ذهنه تفاصيل هذه الصورة، أن يركز عليها، وسرعان ماغاب عنه حتى زفيف الريح.

قالت إيكوكو:

- ما الذي تفكر فيه؟ هل جافاك النوم أيضاً؟

- ما الذي كنت تفكرين فيه؟

- في صاحبة الدار التي يقطنها شينيتشي في كيوتو.

كان سويدا قد استمع للقصة من إيكوكو العام الماضي،

عندما عادت من رحلة لرؤية شينيتشي وللقيام بجولة في كيوتو.

تمكن سويدا من تذكر ايكوكو، وهي تقول:

- مضوا لدفن عظام جدها في مقبرة العائلة عندما كانت في السابعة من عمرها، ولسبب ما قالت لها أمها: لسوف تتزوجين من شخص من عائلة مختلفة، كما تعلمين، ولذا فلن يسمح لك بأن تُدفني في هذه المقبرة. كانت آنذاك طفلة فحسب، وأحست بالوحدة على نحو فظيع، ولكنها كانت تقول إن الطريقة التي مضت بها الأمور بدا معها، كما لو أنها ستنتهي إلى تلك المقبرة في نهاية المطاف! هل يمكن أن تصدق ذلك؟ لم تستطع مقاومة الضحك.

كانت المرأة تصغر إيكوكو بعشر سنوات، ولم تكن هي وزوجها قد أنجبا عندما لقى حتفه في الحرب، ولذا عادت إلى دار أبويها، حيث أمضت ست سنوات أو سبعاً، ثم تزوجت من شخص لديه من زواج سابق ثلاثة أطفال. كانت مولعه بالأطفال، وقد أحبها الصبيان الصغيران سريعاً، وبلغ من عمق حبهما لها أنهما كانا يتشاجران لكي يُسمح لهما بالرقاد إلى جانبها. ولكن اختهما الأكبر سناً كانت في الحادية عشرة تقريباً، وكانت صعبة المراس. وذات مرة، وبناء على اقتراح زوجها حاولت المرأة فتح خزانة جوارير عتيقة في غرفة لم يكونوا يستخدمونها عادة، ولطمت الفتاة خصرها بضراوة من الخلف.

قالت: «توقفي! توقفي! هذه خزانة أمي. قالت إنها ستعطيها كلها لي! لا يُسمح لك بلمسها!». بدت الصبية على وشك الانخراط في البكاء. وبذلت زوجة الأب قصارى جهدها لمسايرة الصبية، ولكنها في نهاية المطاف ساورها اليأس، وغادرت الدار. وهي الآن تستأجر داراً ذات خمس غرف في كيوتو، وهي الغرف التي تقوم بتأجيرها من الباطن للطلاب.

أوحت الحقيقة القائلة إن إيكوكو كانت تفكر في صاحبة الدار، فيما هي راقدة عاجزة عن النوم - أوحت بشيء لسويدا، بأن خواطرها عن ابنهما قد أفضت بها إلى التفكير في حياتها وحياة ابنتها كأمرأتين. قال وهو لايزال يفكر في هذا: «كما تعلمين، فإن الريح ربما لا تهب على هذا النحو في كيوتو الليلة».

قالت إيكوكو: «هذا صحيح». ثم كأنما أحست بدورها بالتحسن:

- أحسب أننا سنخرج مجدداً غداً صباحاً، ثلاثتنا جميعاً، لتبين ما حدث لأوراق الشجر.

- إنني على يقين من أنها جميعها قد تساقطت.

في الصباح، مضوا ثلاثتهم معاً إلى الطريق، تماماً على نحو ما قالت إيكوكو، وتطلعوا إلى أشجار الجنكة. كانت ليلة واحدة من الرياح الشتوية قد تركتها بمظهر بائس. وكانت لاتزال هناك بضع وريقات على الأشجار في أعلى الطريق، ولكنها كانت متناثرة بصورة متباعدة للغاية، بحيث انتهى بها

الأمر إلى اضفاء طابع شتوي عليها، الأمر الذي جعلها تبدو باردة. وهنا وهناك بين تلك الأشجار التي كانت لاتزال تحتفظ بأوراقها كانت هناك أشجار تجردت من أوراقها كلية. وكان الانقسام الغامض الذي اكتشفه سويدا قد انهار. وكان صف الأشجار العارية من الأوراق عند أسفل الطريق قد بدا رائعاً فحسب لأن صف الأشجار الصفراء عند القمة قد شكّل خلفية. وحتى على الأشجار العارية عند أسفل الطريق، بقيت وريقات قلائل، متناثرة هنا وهناك، قلائل بما يكفي لعدها، ولاحظ سويدا أن تلك الوريقات كانت ترتجف، كما لو أن فراشات قد جاءت لترتاح على الأغصان.

طبيعة

البدء بالقول إنني سمعت قصة حياة ممثل جوال، في منتجع صحي، هو أسلوب فني عتيق في السرد، ولكن.. ربما القصة نفسها عتيقة الطراز..

في يونيو من هذا العام، وبينما كنت أرتحل في ياماجاتا، خطر ببالي أن أزور نادياً صحياً بعينه.. وكنت قد تذكرت أن منتجعاً صحياً كان يتردد عليه صديق لي قبل وفاته يقع على ساحل مقاطعة ياماجاتا. لسوف تتأخر عودتي إلى طوكيو لمدة يوم، ولكن حيث أنني كنت في المنطقة، على أية حال، فقد بدا لي أن هذا التوقف سيكون وقتاً طيباً.

كان صديقي قد حدّثني بأن التلال الرملية ومشاهد الغروب جميلة في هذا المنتجع الصحي، وفيما تجاوزت سيارتي أجمة

أشجار صنوبر، واقتربت من الشاطىء، رأيت أن المجتمع تحفه حقاً التلال الرملية. كانت أجمة أشجار الصنوبر والحقول التي اجتزتها لتوي تنمو في تربة رملية، وتتموّج برقة، وربما كانت هي نفسها أصلاً تلالاً رملية. أو ربما كان رمل من الشاطىء قد شق طريقة وصولاً إلى ذلك البعد، بل وصولاً إلى أجمة أشجار الصنوبر والحقول.

ما إن تم المضي بي إلى غرفتي في الطابق الثاني، حتى خرجت إلى الرواق، وتطلعت إلى البحر. كان الوقت لايزال مبكراً قليلاً على الغروب، وعجزت عن اكتشاف أي شيء جميل في التلال الرملية، التي كنت قد رأيتها من السيارة، فقد كانت كئيبة. كانت هناك أعداد كبيرة من أزهار الربيع المسائية، ولكنها لم تكن متفتحة بعد، ولو أنه كانت هناك نباتات كرينوم ونباتات شاطىء أخرى نامية كذلك، فإن زهورها لم تكن ظاهرة للعيان. ولابد أنه بحسب الموسم والوقت من النهار والضوء هناك أوقات تصبح فيه تلك التلال الرملية جميلة. ولابد أنه في أوقات بعينها - بغض النظرعما إذا كانت الأزهار تبرعم في الرمل - فإن لون الرمل نفسه يصبح جميلاً. ولابد أن لون الرمل وألوان السماء والمحيط ينعكس أحدها مرتداً على الآخر، وتتداخل على نحو دقيق.

آخذاً في الاعتبار أن صديقي، الذي كان قد حل بهذا المنتجع الصحي بصورة متواترة وعلى امتداد فترات طويلة، لابد أنه في بعض الأحيان قد شاهد التلال الرملية ومناظر

الغروب عندما كانت جميلة، ومحدِّقاً في البحر، لاحظت أن الأفق بين الماء والسماء كان قاتماً على نحو غير مألوف. ومقارنة بالأفق الذي كنت معتاداً على رؤيته - المنفتح على المحيط إلى الغرب وإلى الجنوب من طوكيو - فإن أفق هذا الاقليم الشمالي كان غريباً، على نحو لا موضع للتساؤل بشأنه. ومن خلال الحكم بخضرة الأشجار التي رأيتها في رحلتي ، بدا أن الموسم هنا يتأخر حوالي الشهر عن الموسم في طوكيو، ولكن على الرغم من ذلك فقد كنا في شهر يونيو، وكان النزلاء في المنتجع الصيفي يرتدون كيمونوهات قطنية خفيفة، والبحر لا ينبغي أن يكون شتوى المظهر. أو ربما أن البحار في الشمال على هذا النحو؟ ولم يكن الأفق وحده وإنما لون المحيط ذاته هو الذي يقبض الصدر. وقد دهشت لتمكن صديقي من احتماله، وهو يطل على محيط كهذا من غرفته في المنتجع الصحي. وبدأت في الشعور بالوحشة. وخطر ببالي أن القرب النسبي للشفق القطبي قد يجعل الغروب جميلاً.

غير أنني عندما سألت الخادم لدى تناول العشاء، قيل لي إن صديقي المتوفي كان يكره الغرف المطلة على البحر، وإنه قد اختار على الدوام غرفة لا يمكن منها رؤية المحيط. وخطر لي أنه من الغريب أن يجيء إلى منتجع صحي مطل على الشاطىء ثم يختار غرفة لا تطل على المحيط.. دُهشت قليلاً في البداية، ولكنني بعدئذ خلصت إلى أنه أمر له معناه تماماً.

- إذا أحببت ذلك، فإن بوسعي أن أريك غرفته في وقت لاحق.

قالتها الخادم، وأضافت:

- هناك ممثل يشغلها الآن، ولكن..

- إذا كان هناك أحد.. لا، لست بحاجة إلى رؤيتها حقاً.

- الرجل يحب الروايات. وفي حقيقة الأمر أنه ابتهج عندما أبلغته بأن السيد كيشياما قد اعتاد النزول في الغرفة. إنني على يقين من أنه لن يمانع.

كنت قد وقّعت في دفتر نزلاء المنتجع الصحي، وأدركت الخادم أنني صديق لكيشياما، روائي زميل له. وبدا أن هذه الخادم كانت تخدم كيشياما عندما ينزل في المنتجع الصحي. وقد تردد على المكان منذ أكثر من عشر سنين، في السنوات التي سبقت الحرب، غير أنها بدت في مقتبل العمر

قالت:

- أحسب أن ابنتي السيد كيشياما قد كبرتا الآن.

- الابنة الكبرى متزوجة.. وقد انجبت طفلاً العام الماضي. أما الابنة الصغرى فهي تدرس في الولايات المتحدة. وقد كنت وسيطاً في حفل زفاف الابنة الكبرى.

- حقاً؟ إذن فلابد أن زوجته تعيش بمفردها الآن.. لابد أنها تعاني من الوحدة.

تركت الخادم الغرفة وعادت بصورة وسجل قصاصات يضم ملاحظات ورسوماً. كانت الصورة لعائلة كيشياما،

التقطت في المنتجع الصحي، احتفاء بزيارة. كان للابنتين شعر قصير القصة، وبدت الخادم في الصورة بدورها. كانت صورة صغيرة، ولكن على الرغم من ذلك كان بمقدور المرء تبين وجوه من فيها.

- كان الجميع في مقتبل العمر، حتى كيشياما.. كانت الابنة الكبرى جميلة حقاً. أليس كذلك؟

كان كيشياما قد كتب في سجل القصاصات بخطه الغريب يقول: «كل الأشياء تنضم إلى دفق الماء». كان هناك فراغ خال من الكتابة إلى يسار هذا. وهكذا فقد كتبت أقول: «الظل المنعزل في السكون يعلق الآمال على الثلج»، ثم أضفت في الأسفل قولي: «سُجِّل من قبل كيشياما». ولم تكن هذه الكلمات لكيشياما، وإنما جاءت من قصيدة صينية كان قد دونها لي. انتهيت من الكتابة، وعندئذ رحت استمتع بالكلمات. على أية حال، يبدو الآن كما لو أنني وكيشياما قد جئنا معاً، كتبنا سوياً. كان كيشياما قد توفي منذ سبع سنوات أو ثمان. وهكذا فإن مشهد حروفنا المصطفة هناك، جنباً إلى جنب، أصبح يبدو رهيباً بشكل ما. كان كيشياما قد مات على نحو غامض في مطار حربي بجزيرة كيوشيو.. مطار كان يُستخدم في ذلك الوقت قاعدة لفيالق الهجوم الخاصة، الكاميكازي.

قالت الخادم، وهي تستحثني على زيارة الغرفة:

- طيب. ما قولك؟ الممثل ينتظر في غرفة السيد كيشياما

الآن تواً. وقد ابتهج إلى أبعد الحدود حيال امكانية مقابلتك..

- هل جاء مع فرقة متجولة؟

- طيب. كان يمثل في مسرحية ببلدة قريبة. وآنذاك ربطت المودة بينه وبين «البانبان» في منتجعنا، وهكذا فقد ترك الفرقة، وبقي وحيداً. والآن تساعده «البانبان»، فهو في نهاية المطاف رجل وسيم.. والجميع يلتفت إليه عندما يتنزه خارجاً.

عندما رأت الخادم أن الحبر قد جف، أغلقت دفتر القصاصات، وأضافت:

- عندما أقول «بانبان» فإنني أعني من اعتدنا مناداتها بـ «شاكوفو»، وهي، بالطبع، نادلة من نوع ما.

هبطت الدرج مع النادلة. وتوقفت أمام أحد الأبواب ذات الحواجز الورقية في الرواق، وهتفت:

- يا سيد أورايو، لقد أقبل السيد أوراجامي!

أقبل إلى الباب، وأزاحه جانباً، ففتحه، ورأى أحدنا الآخر. ساورني للحظة شعور كمالو كنت أتطلع إلى زهرة بيضاء كبيرة. فيما أخذنا مقعدينا، أصبح أورايو يبدو أقرب إلى زهرة اصطناعية.. زهرة يسهل أن يخطىء المرء، فيحسبها في يسر زهرة طبيعية. قال بعد أن حياني بصورة مهذبة:

- قيل لي إن هذه الغرفة كانت في العادة الغرفة التي ينزل بها السيد كيشياما، ولذا فقد طلبت السماح لي بالبقاء هنا...

لأتذكره. لقد قرأت «الأعمال الكامله» للسيد كيشياما، بمزيد من السرور، عندما كنت في المدرسة الثانوية.

ساورني الشك في أن ممثلاً متجولاً سيكون، في ظل النظام القديم، قد درس بالمرحلة الثانوية، لكنني لم أقل شيئاً عن هذه الشكوك. وبدلاً من ذلك قلت:

- لكن المجيء إلى نُزل مطل على الشاطىء والنزول في غرفة لا تطل على المحيط؟..

- آه، لدى حالة فظيعة من السماديـر، أي ظهور نقاط تتراقص أمام العين كأنها الذباب الطائر.. لست أطيق النظر إلى المحيط أو السماء أو أي شيء من ذلك القبيل، حيث تبدو السماء بأسرها مليئة بنقاط طائرة في لون الرماد، وهي تشبه البعوض و..

كفَّ أورايو عن الحديث فجأة. أغمض عينيه نصف اغماضة، كأنما بهره الضوء. كانت النظرة المرتسمة في عينيه شبيهة بنظرة شابة مغناج، حتى من دون قصد. وقد اجتذبت على نحو لا سبيل إلى مقاومته نحو هاتين العينين. ألم أعرف في وقت من الأوقات شابة في مكان ما لفترة محدودة كانت عيناها جميلتين بهذه الطريقة ذاتها..ألم أُترك بشعور من الفتنة كان يشبه على نحو ما الحزن والشجن؟ كانت عينا أورايو تشبهان تماماً عيني امرأة. بدا أن الحزن يندیهما، لكنهما في حقيقة الأمر كانتا صافيتين، تجمعان بين البياض

والزرقة. لاح الأمر كما لو أنه كان هناك زوج ثان من العيون تقبعان عميقاً داخل العينين الأوليين. وكان الشعور بأنني يراقبني ذلك الزوج الآخر الغائر من العيون مثيراً للاضطراب على نحو غريب.

شرع أورايو في الحديث مجدداً:

- عندما أرى كل تلك النقاط ذات اللون الرمادي محلقة.. يبدو أن حياتي بأسرها تتماوج عالياً هنالك.. أن ذلك هو دنيا فؤادي وذهني.. لقد أصبحت خطيئتي، عاري، غباراً رمادي اللون، ملأ السماء..

لمرة عجزت عن الرد:

- آه.

كانت هناك نظارة ذات اطار خوخي اللون من مادة السليوليد على قمطر أورايو.

قلت:

- لديَّ حالة سمادير بدوري فعلاً.. وذلك على الرغم من أن حالتي معتدلة إلى حد بعيد.. من يدري، ربما كانت هذه الحالة لدى كيشياما نفسه.

- كتب السيد كيشياما يقول في إحدى المقالات إنه كان يرى شيئاً يشبه السُخام أو القطع الصغيرة من الخيط. ألم يكتب ذلك؟ لكنه كان غباراً على عدستي نظارته، وليس شيئاً يحلق،

وقد تحرك عندما كان يحرك عينيه.

- هل كتب ذلك حقاً؟

كم يمكن أن يكون عمر أورايو؟ جعلته نعومة وجنتيه وعنقه يبدو كما لو كان لايزال شاباً في مقتبل العمر. خلصت إلى أنه لا يمكن آن يكون قد بلغ الثلاثين بعد، وحوّلت ناظري إلى الحديقة.

- ما أغرب الاعتقاد بأن كيشياما قد اختار الإطلال على حديقة كهذه وليس الاطلال على البحر، فليس هناك شيء يمكن النظر إليه!

كانت هناك دار أخرى للنزلاء مؤلفة من طابقين قبالة المكان الذي جلسنا فيه. وكانت الحديقة بين المبنيين صغيرة ومعتمة. وقد قطعت فروع الأشجار القلائل فيها بحيث بدت قريبة من الأرض، وكانت الصخور صغيرة. وكانت نباتات الأزاليا الصحراوية شائعة إلى حد كبير في ياماجاتا، سواء كأشجار حدائق أو كنباتات زينة.. وكنت قد رأيت براعم الأزاليا الصحراوية في كل مكان على امتداد رحلتي.. ولكن لم يكن هناك أي منها في الحديقة هنا.

- لست أعتقد أن السيد كيشياما كان يتطلع إلى الحديقة. إنني على يقين من انه كان يبقى وجهه متحولاً نحوها. لكن ذلك كان كل ما هناك. وقد أحب هذه الغرفة على وجه الدقة، لانه كان يستطيع النزول هنا من دون أن يضطر للتطلع إلى أي شيء.

إذا كان أورايو بسبيله إلى الحديث على هذا النحو، فسيكون بمقدوري الحديث كذلك. تطلعت إلى الممثل الجوال ثانية، وقد غيرت رأيي فيه. كان بالوسع رؤية قميص محبوك عند صدر الكيمونو الخفيف الذي يرتديه. وكان قميصاً بلا فتحة من الأمام، من النوعية التي يرتديها المرء من فوق رأسه. وهذه النوعية من القمصان رائجة هذه الأيام، لكنني وجدتها مثيرة للضيق. وعدَّل أورايو ياقته، وواجه الحديقة، وقد جفلت لرؤية مدى جمال الملمح الجانبي لجيده الأتلع، وكان من شأنه أن يبدو طويلاً حتى إذا قورن بجيد امرأة، ومع ذلك فإنه بشكل ما لم يبد طويلاً أو رفيعاً بصورة غير طبيعية، فقد كانت رقبته طبيعية التكوين، بديعة الشكل. وكانت استدارتها رائعة.

- الاشارة إلى أنه قد أحب هذه الغرفة لانه لم يكن مضطراً للتطلع إلى أي شيء مثيرة للاهتمام، ولكن مما سمعته يتضح أنك ممثل. أليس من الممكن أنك تميل إلى الاستعراض فحسب؟ أليس هناك شيء تحب التطلع إليه؟

- طيب. إنني أحب بالتأكيد النظر إلى خضرة الطبيعة. إلى الأشجار..

أومأت برأسي، قائلاً:

- الأشجار؟ نعم، لديّ ولع بالأشجار الكبيرة.

- إنني أحب الغابات والأجمات.

- لكن فكرة عدم النظر إلى أي شيء .. الشخص الذي

سيفعل ذلك سيكون أقرب إلى البوذيدارما[1]. أليس كذلك؟ تسع سنوات في مواجهة الجدار.

- بلى، على الرغم من أن كبار السن هم كذلك بدورهم، بالطبع. كبار السن الذين أصبحوا ضعافاً مع التقدم مع العمر، الذين يدنون من الموت، الموت الطبيعي..

- أحسب أن الأمر كذلك.

- من بين أقاربي في الريف، هناك رجل في السابعة والتسعين من العمر، هو أكثر من في القرية إيغالاً في العمر، بل ان ابنه يتجاوز عمره الآن السبعين عاماً. وقد مضيت للقيام بزيارة في شهر مايو، وليس بمقدوري القول ما إذا كان العجوز نائماً طوال النهار أم مستيقظاً، لكنه أمضى النهار بكامله في الفراش. وهو يقطن في مبنى منفصل عن الدار الرئيسية العتيقة، وقد أقام هناك على امتداد خمسة عشر عاماً. وبعد الحرب، انتزعت المزرعة من المالك، بحيث أنه مضطر الآن للعمل بجد يفوق المستأجرين السابقين لأرضه لكي يدبر أموره فحسب، وعلى الرغم من أن هناك امرأة تعني بالعجوز، إلا أنها مشغولة للغاية بعملها بحيث أنه لا يحظى بالكثير من الاهتمام. وقد قيل لي إنها في بعض الأحيان تنسى فتح أبواب التهوية في الدار الثانية. وفي أفضل الأحوال، فإنها تفتح اثنين أو ثلاثة من هذه الأبواب نصف فتحة، أي ما يكفي لدخول النور فحسب. ولكنها في الأيام السيئة تتركها مغلقة. ولست أدري، فربما يكون المكان أكثر دفئاً إذا تركت الأبواب مغلقة في أيام

الشتاء الجليدية. ومغزى الأمر أن العجوز فيما يبدو ليست لديه فكرة عما إذا كانت قد فتحت الأبواب من عدمه، بل انه فيما يبدو لا يلاحظ الأمر عندما تتركها مغلقة، حتى عندما تتركه في الظلام عند الظهيرة. وأعتقد أن ذلك قد يؤخذ دليلاً على أن العجوز لا ينظر إلى أي شيء.

- ما أغرب هذا! وليس الأمر راجعاً إلى عجزه عن الرؤية؟

- لست أدري، فليست هناك مؤشرات إلي أنه يعاني من السُد، أو اعتام عدسة العين، وبؤبواه أسودان وصافيان.. ويبدو أن الأمر الأكثر احتمالاً أنه يستطيع أن يرى. وأحسب أن ذهنه قد كف عن التطلع فحسب، وذلك على الرغم من أن عينيه بوسعهما الابصار.

قالها أورايو، وقد بدا أن عينيه تريان مشهداً للعجوز ذي الأعوام السبعة والتسعين.

- يبدو أن العينين الصافيتين في دمك.

- عينا العجوز صافيتان للغاية إلى حد أنني أعتقد في بعض الأحيان أن من المحتم أن دم الاينو[٢] يسرى في عروقه. لقد كان شاحباً على الدوام،ولكن بما أنه لم يخرج للتعرض للشمس على امتداد سنوات، فإنه بشرته البيضاء قد غدت شفافة، وأكثر ميلاً للزرقة. وبحكم الطريقة التي تبدو بها بشرته، فإنني أوشكت على الاعتقاد انني سأشعر ببرودتها، إذا لمستها، وعندما تطلعت إلى ذراعيه، بدا أن لون الدم المتدفق فيهما

شاحب، ويكاد يكون صافياً.

كان شعر رأسه ولحيته أشيب، متألقاً بلون الفضة. كان الابن البالغ من العمر ما يزيد على السبعين عاماً لايزال يجمع في شعره بين بعض الشعر الأسود والشعر الأشيب، ولكن العجوز لم يكن كذلك .. فلم تكن هناك شعرة سوداء واحدة أو حتى شعرة بنية قليلاً في رأسه. وفي كل تلك البشرة البيضاء المائلة للزرقة والشعر الأشيب الفضي.. تألقت عيناه بحدقتيهما الكبيرتين ببريق أسود.. ترك ذلك لديَّ انطباعاً غريباً. هاتان العينان السوداوان بمقدورهما رؤية كل شيء، ومع ذلك فإنهما لم تكونا تنظران إلى أي شيء. جعلني التفكير في ذلك أنخرط في البكاء.

- نعم، أحسب أن استنفاد المرء لحياته المقدرة على ذلك النحو هو سبيل الطبيعة، هو سعادة تهبها الطبيعة لذاتها. عند يعيش كائن بشري ليبلغ المئة من العمر، فإنني أحسب أنه بحاجة إلى تأمل زن البوذيدارما ليموت ميتة طبيعية فحسب.

- آه.. خلال الحرب، كان ذلك منذ عشر سنوات تقريباً، ولكن في ذلك الحين كان العجوز شديد اللماحية في جوانب معينة. كنت.. طيب، تحولت إلى شخص لا وجود له في اليابان، شخص اختفى من العالم.. كان قدري أنني لم أدر متى سأموت، أو متى سألقى حتفي بيد بلادي.. وهكذا فقد شرعت في الحنين إلى الريف، وتنكرت، ومضيت إلى هناك، وتحت جنح الظلام اقتربت من دار العجوز. كتمت وقع أقدامي، وكان

الباب موصداً، ولكن من الداخل انبعث صوت عال - من هناك؟ هل أنت شبح أم لص؟ هل أنت موموسوكي؟ - موموسوكي هو اسمي، وقد كتمت أنفاسي، ولكنه عندئذ بدأ في محاولة إيقاظ من بصحبته - أنت هناك، هلا فتحت الباب. يبدو أن شبح موموسوكي قد أقبل ... استبد بي الذعر.. انطلقت أعدو بأسرع ما استطعت. لابد أن العجوز قد تمكّن من رويتي، أليس كذلك.. شبح موسوكي قد أقبل.. كان سماع ذلك رهيباً، ليس بوسعي نسيانه.

- عندما تقول: «شخص اختفى من العالم»..

همس أورايو:

- لقد أصبحتُ امرأة. والرجل الذي يدعى موموسوكي اختفى..

غمغمت بصورة تلقائية: «نعم.. امرأة»، وقد ساورني الشعور بأمور معينة، فيما يتعلق بالوضعية التي يندرج فيها أورايو. لكنني لم أقل المزيد حول ذلك الموضوع، واخترت بدلاً من ذلك المضي بحوارنا، مؤقتاً، في اتجاه آخر، فقلت:

- ما مدى قرابة العجوز لك؟

- إنه رأس العائلة الرئيسية، أما أنا فمن فرع آخر.

لكن الانقسام وقع منذ أجيال، وكانت صلة الدم بعيدة، حسبما قال أورايو. وكان والد أورايو موموسوكي وجده هما

المتمردان المحليان، الهاربان المحليان. ومضى جد موموسلوكي إلى طوكيو، والتحق بسلك الخدمة العامة، ثم باع المقر الكائن في الريف. وتم تفكيك الدار وجلبها إلى طوكيو، حيث أعيد تجميعها، باعتبارها «مقراً ريفياً» في حديقة دار معينة في شيبا. ونجت الدار من الغارات الجوية من دون أن تحترق، وكانت فيما يبدو لاتزال قائمة. وقد أصبح والد موموسوكي رجلاً عسكرياً. أما موموسوكي، ربما باستلهام جده، فقد تمرد على أبيه، وهرب من الدار. واستقال أبوه، الذي كان قائداً في سلاح المدفعية، من منصبه في الجيش بسبب هذا، وقامت شركة لانتاج الذخائر بتوظيفه في الحال.

- آلمه تمردي أشد الألم بحيث أنني سمعت أنه قد فكر في الاقدام على الانتحار التقليدي المعروف بالسيبوكو، ولكن الآن وبعد الهزيمة في الحرب يبدو أن خروجه من الحياة العسكرية بسببي كان أمراً جيداً حقاً، وقد سمعت أنه لايزال يضطلع بعمل أو بآخر.

قالها أورايو، ثم رفع وجهه قليلاً، وواصل حديثه:

- ذهب أبي لزيارة العجوز في الريف ،في مارس الماضي. مضى إلى الدار الأخرى، وبادر بتحيته، ولكن مما سمعته فإن العجوز اكتفى بمواصلة الرقاد. فهو لم يستيقظ كثيراً مؤخراً، حسبما قالت القائمة برعايته، وقد ارتسم علي محياها تعبير يوحي بأنها تعرف كل شيء، ثم فجأة استيقظ العجوز، وهكذا قام أبي بتقديم نفسه عدة مرات بصوت عال. قال العجوز -

ماذا كان ذلك؟ تورانوسوكي هاشيموتو؟ لقد نسيت الماضي، نسيته كله، ثم أغفى من جديد، وابتسم العجوز الأصغر سناً وأبي، وعادا إلى الدار الرئيسية. وأنا لا ألتقي أبي أبدا، لكنني سمعت القصة من العجوز الأصغر سناً، عندما مضيت إلى الريف بعد ذلك بشهر.

كان والد مومسوكي يدعى أورايو كذلك، ولكن لأنه كان هناك الكثير من الأشخاص الطيبين الذين يدعون باسم أورايو في القرية، فقد أصبحوا يدعون باسم هاشيموتو نو أورايو، أي أورايو عند أسفل الجسر، وذلك بحسب موقع دار أسلافهم. وقد تم اختصار هذا الاسم، والآن يدعون باسم هاشيموتو. وتقع قريتهم القديمة على خليج ضيق، وتبدو كما لو كانت ترتفع يوماً إلى مستوى التلال المحيطة بها، ثم انهارت. كانت خضرة التلال ولون البحر يتسمان كلاهما بالعمق البالغ. وقد بدت القرية، لدى النظر إليها من بعيد شبيهة بالميناء ذي الألوان المتوهجة بالحياة لنموذج طبيعي مصغر منفذ على صحفة. كان نصف سكان البلدة من المزارعين والنصف الآخر من الصيادين، مع وجود الأراضي الزراعية عند أعلى التلال. ولم يعمل أحد من عائلة أورايو بصيد الأسماك.

قال مومسوكي مجدداً، مكرراً كلمات العجوز:

- لقد نسيت الماضي، نسيته كله. لسوف ننجو نحن أنفسنا لو أننا كان بوسعنا أن نقول ذلك..

قلت:

- نعم، ولكن أربعين عاماً ستنقضي إلى أن نصل إلى عمره، إلى أن يكون بمقدورنا نحن أنفسنا استخدام تلك الكلمات بصورة طبيعية. وهو وقت طويل. ولكن على العكس من كيشياما، الذي قضى نحبه، فنحن أحياء لانزال، وهو ما يعني القول إننا قد مُنحنا قدراً معيناً من الوقت الاضافي. وذلك على الرغم من أننا، بالطبع، ليست لدينا فكرة عن عدد السنين الاضافية التي سنعيشها.

- ماذا؟

لسبب ما اربّد وجه أورايو.

- سمعت أن العجوز واصل القول: سأموت في مارس. سأموت في مارس. وكان الناس في الدار يتصرفون تصرف من سمع أمراً طريفاً، ويقولون: لكن السماء تظل تمطر ثلجاً في مارس، ياجدي، وهناك أيام تكون باردة على نحو فظيع.. فلم لا تؤجل موتك شهراً؟ ألا يمكنك اختيار وقت تزهر فيه أشجار الكرز؟ ولكن العجوز كان يبدو الامتعاض على محياه ويقول: كلا، سأموت في مارس، ثم في مارس من هذا العام، أصيب بنوبة برد فظيعة، وفقد قوته فجأة، ولم يعد لحديثه معنى، ولذا فقد حدَّث الجميع أنفسهم قائلين: إنه عجوز، ربما آن أوان رحيله، وسيكون ذلك في مارس، في نهاية المطاف، تماماً كما قال، وبدأوا في اعداد أنفسهم للجنازة. وحتى من

كانوا يعنون به فقدوا طاقتهم.

ولكن العجوز عاد إلى الحياة، لسبب ما، كما قال الطبيب، وقد استبدت به الدهشة تماماً حيال الأمر. وقد مضيت أنا وأبي إلى الريف لنعوده، بسبب ذلك المرض الذي ألمّ به.. ولكنه منذ وقت انهياره المفاجىء في مارس كفَّ عن القول إنه سيموت في ذلك الشهر.. وهولم يعد يقول إنه سيموت. فقد نسى أمر الموت تماماً. أو ربما لم يكن الأمر كذلك، ربما يواصل الاحتضار بصورة طبيعية منذ ذلك الحين، حيث أنه، مما يتناهى إلىّ، يقضي وقته كله غارقاً في النوم. وهو يأكل كثيراً، ولكنه يحرك فمه فحسب، يمضغ فقط، ولذا فإن الجميع يحسب أن الحلوى الجيدة حقاً وما إلى ذلك ستكون كالسم بالنسبة له، وأن الكم ينبغي أن يكون أكثر أهمية من الكيف، لكنهم إذا قدموا له قطع بسكويت رخيصة، أو شيئاً من هذا القبيل، فإنه يغمغم متذمراً عندما يستيقظ: ألا يمكنكم أيها القوم تقديم شيء أفضل لي؟ وهو يستطيع تذوق الأشياء. وفي قرى الريف يقولون إن الشخص العجوز الذي بلغ من العمر أرذله، الذي لم تعد ذراعاه وساقاه تعملان بشكل سليم والذي يحتاج على الدوام إلى العون من غيره - يقولون إنه قد أصبح «نيدواكا». و«النيدواكا» يعني شخصاً تحوَّل إلى وليد للمرة الثانية.

- نيدواكا.. تلك طريقة جميلة في التعبير عن هذا الأمر.

- يبدو أن شبح موموسوكي قد أقبل. منذ قال العجوز ذلك، فكرت فيه كلما ألمّ بي عارض من ألم أو صادفتني متاعب، وقد

غدوت مولعاً به، مولعاً به على نحو مفعم بالحنين. وقد كان السيد كيشياما رجلاً مدهشاً، ولكنه بالطبع مات في وقت مبكر. ولو أنه كان على قيد الحياة وفي هذه الغرفة الآن، فإنني سأرغب في أن أطلب منه أن يواصل العيش إلى سن السابعة والتسعين، إلى أن يبلغ من العمر أرذله.

- نعم، ولكن شخصاً واحداً في الألف هو الذي يحيا إلى أن يبلغ السابعة والتسعين. ولو أنني عشت إلى هذه السن، فإنني أحسب أنني سأود أن أكون قادراً على أن أقول، وأن أقول بطريقة طبيعية: لقد نسيت الروايات التي كتبتها، نسيتها كلها.

لم أكن قد قصدت الكثير بهذا، لكن أورايو كان لايزال لغزاً بالنسبة لي، ولهذا فقد سألته:

- عندما تقول إنك قد أصبحت امرأة.. هل تقصد إنك كنت اختصاصياً في الأدوار النسائية؟ هل كنت ترتدي زي امرأة؟

خفَّضت أورايو عينيه النجلاوين.

- لم أكن اختصاصياً في الأدوار النسائية. وإنما كنت ممثلة. كنت أحيا باعتباري امرأة فعلية.

- لم؟

هكذا تساءلت في حمق. وإذ تصورت أن شيئاً من نوع أورايو الغريب. قد يكشف في المنطقة المحيطة بخصره، فقد ألقيت نظرة سريعة عليها.

- تفادي التجنيد. مقت العسكر. الخوف من الحرب.

قالها أورايو، في برود، وبصورة سريعة، مقسماً حديثة إلى ثلاثة مقاطع. فأخذني على غرة.

- كنت طالباً في المدرسة الثانوية، ولكنني لم أرغب في الالتحاق بالجامعة، وهكذا أصبحت امرأة.

- آه. وقد أفلحت؟

- أفلحت؟ أحسب أنك يمكنك القول إنني قد أفلحت، حيث اجتزت الحرب من دون أن أصبح جندياً.

- آه.

- هذه الأيام، الناس يتحدثون عن كونهم جواسيس لحساب الولايات المتحدة - ذكريات من ذلك النوع تظهر في المجلات - وكل من كانوا سجناء آنذاك يمضون اليوم أحراراً، ولذا فإنني لا أتصور أن الهاربين من التجنيد في ذلك الحين ستوجه إليهم الاتهامات، لكني قدمت يقيناً تضحيات في غمار الهرب، عانيت بالتأكيد..

- لكنك استطعت العيش باعتبارك امرأة.

- حولت نفسي إلى ممثلة تجوب أرجاء الريف. وخلال الحرب حوَّل الناس أنفسهم إلى كل أنواع الأشياء، حيث هيمن الجنون على مصير الجميع، وهكذا بالطبع كان هناك رجال تحولوا إلى نساء، سواء بمفردهم أو مع رجال آخرين. ربما كان

هناك القلائل بالإضافة لي.

- عندما تقول إنك أصبحت ممثلة، فإنني أدرك أنك كنت بصحبة أعضاء آخرين في الغرفة. ألم يكشفوا تنكرك؟

- إنني اتساءل عن ذلك.. من المؤكد أن رئيس الفرقة كان يعرف، فقد أصبحت على علاقة ودية معه، لكي أحول دون اكتشاف الباقين للحقيقة، وكنا معاً بصورة مستمرة. وكان الجزء الأكثر صعوبة هو تغيير الثياب. حيث تعين عليَّ، بالطبع، كشف صدري عندئذ.. وقد أبقيته ملفوفاً بالشاش طوال الوقت، ولكن على الرغم من ذلك.. إنني على يقين من أن هناك أناساً قد ساورهم الشك، أناساً أحسوا من خلال الحدس بأن ثمة أمراً غير مألوف إلى حد ما فيما يتعلق بي. ولكن، بالطبع، لم يخطر علي بال أحد قط أنني قد أصبحت امرأة لا تجنب التجنيد.

ابتسم أورايو بغنج، وأضاف:

- حتى إذا كان هناك رجال آخرون ممن كرهوا فكرة المضي إلى الحرب، والذين راودتهم فكرة التحول إلى نساء، فإنه ما كان بوسع أي كان القيام بذلك.

- نعم، هذا صحيح، إذا لم يكونوا يتمتعون بالجمال مثلك..

- الأمر ليس فقط كون المرء جميلاً أو قبيحاً.. ذلك أنه يتعين أن تكون هناك أمرأة بداخل المرء.. أعتقد أنه كانت هناك فتاة في أعماقي. ولو لم تنشب حرب فربما كانت تلك

الفتاة ستظل قابعة بداخلي. ولكننا واجهنا حرباً، وبفضلها تمكنت من الاندفاع خارجة إلى الدنيا. وقد قيل ليل بعد تحولي إنه كانت هناك شابة تشبهني. وقد مرت أمور من كل لون وشكل خلال الفترة التي كنت فيها امرأة، ولكن من المتعذر عليَّ الحديث عنها بصراحة بالغة.

انبعث أورايو واقفاً، وأطفأ الأنوار. كان الغسق قد لفّ الحديقة كذلك.

قلت:

- لابد أن الشمس قد غربت بالفعل. لقد اعتاد كيشياما القول إن الغروب جميل هنا.. هل رأيته؟

رد أورايو باقتضاب:

- إنني لا أتطلع اليه. هل كنت تعتزم رؤية الغروب؟ أخشى أن أكون قد عطلتك.. آمل أن ترى الغروب غداً.

- لا، سأرحل صباح الغد.

قال أورايو، محولا عينيه السوداوين:

- بهذه السرعة؟ هل يزعجك الاصغاء إليّ وأنا أتحدث عن الوقت الذي أمضيته باعتباري امرأة؟

أومأت برأسي، وقلت:

- لا. إنني أود ذلك. لقد جئت إلى هنا لا لشيء إلا لمعرفتي أن كيشياما قد اعتاد المجيء هنا.

التسعين عاماً تقريباً ينبعث من أبواب التهوية، في تلك الليلة التي أنارها القمر، حسبت أنني قد رحلت عن الدنيا، أن حياتي قد بلغت نهايتها.

- آه.. وعندئذ أصبحت ممثلة؟

- هذا صحيح. فقد أحببت التمثيل منذ كنت في المدرسة الاعدادية، وأديت دوماً أدوار النساء.. وكنت في مجموعة دراسات الدراما في المدرسة الثانوية كذلك، ولذا حسبت أنه بمقدوري كذلك أن أحاول أن أكون ممثلة.. وكنت قد تمرنت على الكثير من الأدوار النسائية في كتب مسرحيات مختلفة. وكانت الفرق الصغيرة المتجولة تعاني من النقص في الممثلين خلال الحرب، وهكذا كان من السهولة أن التحق بها. ولكن حتى في مجموعات من جوابي الآفاق هؤلاء، كانت اسماؤهم تسجل سواء أكانوا من الممثلين أو الممثلات. وفي بعض الأحيان كان المفتشون والضباط المسؤولون عن التجنيد يجيئون. وكنت الوحيد الذي لم يسجل اسمه. لقد اختفى أورايو مومو سوكي، ولم يعرف أحد إلى أين مضى. والممثلون المتجولون يشبهون أوراق شجر تكومها الريح معاً.. فهم لا يفكرون كثيراً أحدهم في ماضي الآخرين، وغالباً ما تكون القصص التي يرويها أحدهم للآخر عن نفسه ملفقة.

- لقد أصبحت امرأة، ثم مثلت أدوار امرأة.. ذلك يجعلها مسرحية داخل مسرحية.

- مسرحية داخل مسرحية؟.. في ذلك الوقت، لم يكن هذا هو شعوري. وإنما كنت ألعن الدنيا، وكان ذلك يمنحني احساساً طيباً. الجندي الشاب الذي حدثني عنه الفتاة التي تشبهني.. كان في صفوف فيالق الهجوم الخاصة. وكانت فرقتنا تتجول مؤدية مسرحياتها لادخال المرح والتفاؤل على نفوس القوات المسلحة. ومضينا إلى قاعدة ذات مطار في جزيرة كيوشو، كانت فيالق الهجوم الخاصة تستخدمها. وكان هناك غدير على حافة حقل زُرع بالحنطة، وعلى الجانب الآخر من ذلك الغدير كان هناك تل تكسوه أنواع الأشجار كافة. كنت أتريض على ضفة ذلك الغدير، عندما التقيت هذا الجندي الشاب، وتوقف هنالك متطلعاً إلى الوراء نحوي. وهكذا توقفت تماماً في موضعي، وأقبل عائداً، وسألته: هل رأيت مسرحيتنا البارحة؟ نعم، كانت جيدة، ثم حدثني بأنني أشبه فتاته كثيراً. حقاً؟ كم هذا جميل! هل أريك صورتها؟ ألن تغضب منك؟ لا. قولي لي.. هل يمكنك عبور هذا الغدير وثباً؟ بالطبع، لا أستطيع عبوره وثباً، فأنا امرأة. ليكن، إذن، سأحملك وأعبره. أوه، لا.. حقاً! كان ذلك في وقت ما من شهر مايو، عند بداية الغسق. وقد حملني على ظهره، وعبر بي الغدير، واختبأنا تحت تلك الأشجار، في ظلال الأوراق. أراد أن يريني صورة صديقته. ولاشك في أنه أراد التطلع إلى وجهي برهة. ولم أعتقد أن الشابة التي في صورته الفوتوغرافية الصغيرة تشبهني على الاطلاق، لكنني لم أقل له ذلك، وتحدث عن أمور

مختلفة، ثم لفّ ذراعه حول كتفي، واجتذبني إليه، وحاول أن يجلسني على حجره. وخمنت أنه ربما سيدرك أنني رجل إذا جلست على حجره، ولذا تشبثت بكتفه من الجانب.

- فهمت.

- هل أنت عذراء؟ ذلك هو السؤال الذي وجهه لي. للحظة دق قلبي في صدري. إنني رجل بالطبع، و«هل أنت عذراء» ليس بالسؤال الذي يطرحه المرء على الممثلات في فرق جوالة - إنه من نوعية الأمور التي كان يمكنها أن تجعلني أنفجر ضاحكاً، لكنني جفلت بشدة، بحيث أن صوتي لم يصدر عني. هززت رأسي على مهل، ومن المؤكد أنني لم أستطع الايماء، ولهذا هززت رأسي - لكن كيف فسر ذلك؟ فهمت - قالها وهو يمسد كتفي برقة. حتى فيما بعد لم أستطع تخمين أي الاجابتين اعتقد أنني أقصدها. ألا تخيفك هذه الغارات الجوية الفظيعة كل ليلة وكل يوم؟ بلى، إنني خائفة. عندما قلت ذلك، انهمرت الدموع من عينيّ، وألقيت نفسي على حجره، وانخرطت في البكاء. ربما اعتقد أنني هززت رأسي بلا ارادة مني، ومن ثم وجدني جميلة. كان طالباً فحسب، نقياً، وبعيداً عن التعقيد. قال إنه سيتم ارساله إلى الجبهة في غضون يومين أو ثلاثة أيام، وخطر ببالي أنني لو لم أحول نفسي إلى امرأة لانطبق الشيء نفسه عليّ. رفعني إلى ظهره من جديد، وعبرنا الغدير و.. ما الذي تفترض أنه أعطاني إياه كتذكار؟

- ما الذي أعطاك؟

- سيانيد.

- سيانيد؟

- نعم. كانت فتاته قد جُندت للعمل في مصنع، وقد طلبت الحصول على السيانيد، استعداداً لأسوأ الظروف. وبالطبع، في ذلك الوقت كان هذا النوع من الأشياء منتشراً تماماً بين الشابات العاملات في المصانع. وفيما يبدو فإنها أعطت قسماً منه للجندي، استعداداً لأسوأ الاحتمالات.. ولكنه كان بسبيله إلى الموت على أي حال.

- كان ذلك مؤكداً - وهكذا فقد قال إنه ليس بحاجة إلى أي عقاقير.

- فهمت.

- تذكرت ذلك الطالب مجدداً، عندما مضيت لزيارة النيدواكا، العجوز. وكما ترى، فقد عدت إلى كوني رجلاً من جديد.. حينما ذهبت إلى الدار المنفصلة كان الباب موارباً فحسب، وكانت الدار معتمة للغاية. كان ذلك في شهر مايو، ولكن المدفأة كانت لاتزال هناك إلى جوار الفراش. مضى الرجل العجوز الأصغر سناً يطارد ذبابة. وكان العجوز البالغ من العمر السابعة والتسعين قد دفع اللحاف نزولاً إلى معدته، وامتدت يده اليمنى خارج غطاء الفراش، وقد استغرق في النوم تماماً. كان شعر رأسه ولحيته الاشيبان كلاهما قد استرسلا في الطول. كان حرياً به أن يبدو شبيهاً بأحد مخلدي الجبال أو

كقديس بوذي لو أن لون بشرته كان قد أفصح عن قدر أكبر قليلاً من المعاناة، لو أنه كان قد حمل آثار المعاناة الروحية، ولكن العجوز كان أكثر طبيعية من أن يوحي بذلك،حيث بدا مثل طفل بريء. ولكن بعد التطلع برهة إلى أصابع يده اليمنى، لاحظت أن أظافر يديه كانت قد انفصلت بالفعل عن الجلد، وأن أصابعه قد استنفدت منها القوة كلية. نادى العجوز الأصغر سنا بصوت عال بما يكفي لإيقاظ العجوز الموغل في العمر: أبتاه، لقد جاء هاشيموتو مومو سوكي للزيارة!، وأشرقت المنطقة المحيطة بعيني العجوز، ندت عنه همهمة خفيضة، ونظر باتجاهي، وأجفلني بشدة البريق الملتمع في عينيه السوداوين إلى حد أنني شهقت. دسَّ العجوز يده اليمنى تحت اللحاف وبالقوة الباقية في تلك الذراع رفع جذعه. كان الزنار الكريب الأبيض قد ارتفع نحو صدره. استحثني العجوز الأصغر سناً: قل اسمك بسرعة! ولكنني حدقت في أبيه فحسب. وتماماً كما لو أن شيئاً ارتفع إلى أعلى بخفة يغوص بخفة مجدداً،فإن جسم العجوز تداعى إلى أسفل، وبرزت يده اليمنى على مهل من تحت اللحاف مجدداً، وعاد إلى النوم. وكان ذلك كل ما هنالك. وربما سيكون ذلك لقاءنا الأخير.

- فهمت.

- لم أستطع منع نفسي من البكاء، لكن ذلك وداع طبيعي. أليس كذلك؟ ليس على نحو وداعي لذلك الطالب.

وضع أورايو ركبتيه معاً، على نحو ما تفعل امرأة شابة،

وقَرَّب ما بين حاجبيه، ومضى يحدق في بعينيه السوداوين.

- أردت العودة إلى كوني طبيعياً من جديد، ولذا تركت الفرقة، ومكثت وحيداً هنا.. كانت تلك الفرقة مختلفة عن تلك التي كنت ممثلة فيها خلال الحرب، وقد حُلت الفرقة الأولى بفعل الهزيمة. وعدت إلى كوني رجلاً، اختصاصياً في الأدوار النسائية، لكن مع ذلك..

بدأ القلق يساورني حول أن وقت مجيء النادلة قد آن. وشأن زهرة بيضاء كبيرة، سمح أورايو لجسمه بالتراخي، وأحنى رأسه.

---

(١) البوذيداما: تنطق بالصينية بوتيتامو أو تامو، وباليابانية بوديداروما (حوالي ٤٧٠-٥٤٣؟) كبير الكهنة الثامن والعشرين بد شاكياموني بوذا، حسب التسلسل الهندي، وكبير الكهنة الأول في تقليد التشان الصيني (الزن الياباني). ووفقاً للعرف السائد، فقد سافر بحراً من الهند إلى جنوبي الصين، وبعد محاولة قصيرة لم تكلل بالنجاح لنشر تعاليمه هناك، انطلق شمالاً إلى لو - يانج في شمالي الصين، واستقر أخيراً في دير شاو - لين في جبل سونج - شان (تنطق باليابانية سوزان، أوسوسان). وهناك طوّر مذهب الزازين طوال تسع سنوات، هي المشار إليها في المتن، ومن هنا فإن هذه الفترة تعرف تقليدياً باسم «منبيكي - كونين» ومعناها التقريبي «السنوات التسع في مواجهة الجدار». ويلاحظ أن شكل ممارسة التأمل الذي علمه البوذيدارما يدين بالكثير للبوذية الهندية، حيث أن تعاليمه تقوم إلى حد بعيد على السوترات التقليدية للبوذية الماهايانية. (المترجم)

(٢) الأنيو: هم السكان الأصليون للأرخبيل الذي يعرف الآن باسم اليابان. (المترجم)

قطرات مطر

كان من الممكن الاستماع بوضوح في الطابق الثاني للأطفال الأربعة، الذين يلعبون لعبة العشرين سؤالاً، في غرفة الأطفال بالطابق السفلي.

أصبح كل طفل، بالتناوب، مذيعاً، وكتب كلمة على رقعة ورق، وقلبها. كان كل اللاعبين أطفالاً، ولذا كانت الكلمات بسيطة. وإذا كان تخمين طفل «صحيحاً»، فإن دائرة تُرسم إلى جوار اسمه أو اسمها. وفيما يبدو فإن الطفل الذي يحصل على أكبر قدر من الدوائر ينعقد له الفوز.

قال المذيع:

- هذه الكلمة تدور حول شيء معدني.

- هل هي سائل؟

- نعم ، هي سائل.

- هل هي ماء؟

- نعم، هي ماء

- هل تحدث صوتاً الآن؟

- نعم، تحدث صوتاً الآن.

- هل تردد صوتا مثل «دريب.. دريب.. دريب؟

- نعم، أنت بارع في هذا!

- هل هي قطرات مطر؟..

- نعم، قطرات مطر؟..

- نعم، قطرات مطر! صحيح!

كانوا قد خمنوا الكلمة بأربعة أسئلة فقط.

- شيزو، ألم يكن هذا هو فوميو الآن تواً.. الذي قال قطرات مطر؟ إنه سريع حقاً.

قالتها هيداكا توشيكو في الطابق الثاني، متحدثة عبر الجدران المنزلقة المتخذة من الورق المؤطر لشخص في الغرفة المجاورة. كان هناك رواق عرضه ثلاثة أقدام بين الغرفتين، وهكذا فإنها ومن كانت تحادثه قد فصلتهما طبقتان من الجدران.

ردت نومارشيزو:

- من المؤكد أنهم يختارون كلمات فظيعة. قطرات بين كل الأشياء..

- كانت تلك براعة حقاً من فوميو، على الرغم من ذلك. إنه لايزال صغيراً جداً.

- بالطبع، قال كاكو، صبي الجيران: «دريب، دريب، دريب»، فأتاح لفوميو التوصل إلى الرد. لايزال صغيري فوميو طفلاً صغيراً فحسب، ولذا تركه كاكو يفوز. لا بد أنه عرف أن الكلمة المقصودة هي قطرات مطر، إذا قال: «دريب، دريب، دريب».

- لست أدري.. لا يمكنك تحديد ما إذا كانت الكلمة هي مطر أم قطرات مطر من مجرد سماع أنها ماء، وأنها تحدث ضجة الآن تواً.

- إذا كان المطر يحدث ضجة فإن الكلمة هي قطرات مطر.

- ذلك ليس صحيحاً، فصوت المطر وصوت قطرات المطر ليسا سواء.

- كان شينيتشي هو المذيع الآن تواً. أليس كذلك؟ طيب، ذلك هو السر في أن الأمر يدور حول قطرات المطر، فشينيتشي يختار دوماً كلمات بغيضة من تلك النوعية. وقد عرفها كاكو مباشرة.

تحدثت شيزو على نحو حاسم للغاية بحيث أن توشيكو

لزمت الصمت. لم يكن هناك معنى للجدال حول شيء تافه، كالفارق بين قطرات المطر والمطر. وكانت ضجة المطر المتساقط خارج غرفة الاطفال شيئاً يستعصي على التصديق حقاً، فقد تدفق الماء عبر فتحة في الميزاب، ولم يكن صوته بالصوت الرقيق الذي تصفه كلمات مثل «قطرات مطر» و«دريب، دريب، دريب».

قصدت توشيكو أن تكون ودودة عندما تحدثت، وفكرت الآن ببعض الضيق في أن شيزو من المؤكد أنها هي نفسها كانت أكثر وداً. ومن جانبها افترضت شيزو أن توشيكو قد عمدت إلى السخرية، وعقبّت بصورة تهكمية على الحقيقة القائلة انها كانت عاجزة عن اصلاح الميزاب، أو بالأحرى المواضع الأخرى المختلفة في الدار التي كانت تحتاج إلى الاصلاح. كان الاختيار الذي قام به ابن شيزو، الذي لايزال في الصف الخامس، لذلك التعبير التعس «قطرات مطر» قد وضعها في حالة مزاجية سيئة.

كان توشيكو وهيداكا زوجين شابين، حديثي العهد للغاية بالزواج إلى حد أنهما لم يسجلا بعد باعتبارهما عائلة. وقد استأجرا الغرفة التي تبلغ مساحتها ما يعادل ست حصر في الطابق الثاني من دار نوماو، وكانا كلاهما يعملان. كان الطابق الأول من دار نوماو متجراً للأدوات الكتابية. وقد أفلح في البقاء في اطار أنشطة الأعمال لان المدرسة الأولية كانت قريبة منه، لكن شيزو كانت قد كفت عن الاكتراث بقائمة الجرد، منذ شرع

نوماو في البقاء بعيداً عن الدار، وتبنت عادة قوامها الحديث على نحو مقتضب وفظ مع الأطفال عندما يقبلون لشراء الأشياء، وكنتيجة لذلك راحت المبيعات تتراجع. كان لدى شيزو انطباع قوامه أن السيد والسيدة هيداكا الشابين كانا على صلة طيبة أحدهما بالآخر.. وأنهما كانا نموذجاً لتلك الندرة الحديثة، أي الزوجين الودودين، وهكذا عاملتهما بمزيج من حسن النية والحسد. واستبدت بها الغيرة في بعض المناسبات، وفي مناسبات أخرى كانت مزعجة تماماً، حيث تباينت حالاتها المزاجية. في الماضي كان نوماو ينام وحيداً في الغرفة التي تبلغ مساحتها ما يعادل ثماني حصر في الطابق الثاني، بينما كانت شيزو تنام في الطابق السفلي مع الولدين، في الغرفة التي تعادل مساحتها ست حصر في مؤخرة المتجر. وكانت غرفة الطفلين ملحقاً، عبارة عن غرفة ضيقة لها أرضية من كتل خشبية، استوعبت بالكاد قمطري الولدين. وعندما لم يعد نوماو إلى الدار على امتداد ليال عديدة متتابعة، بدأت شيزو في النوم بالغرفة ذات الثماني حصر الواقعة في الطابق الثاني. وكان الطفلان لا يزالان ينامان في الطابق الأرضي. وكانت نوبات شخير نوماو العالية قد جعلت آل هيداكا يشعران على الدوام بمزيد من الارتياح على نحو ما، بمزيد من الأمان. ومن ناحية أخرى فإن شيزو غالباً ما جعلت توشيكو تجفل من خلال محادثتها من الجانب القصي من الجدران الورقية المؤطرة، في أوقات كانت توشيكو تحس خلالها بأنها قد أغفت حتماً.

قالت ذات مرة:

- توشيكو؟ توشيكو؟ تعلمين أنني كنت أفكر. أراهن أن المرأة التي يقابلها نوماو، أراهن أنها توكيكو، المرأة التي اعتادت القدوم للحديث معك في غرفتك طوال الوقت. فهي لم تجيء على الاطلاق مؤخراً. أليس كذلك؟

كانت توكيكو امرأة في مقتبل العمر، لاتزال عزباء، تعمل في الشركة نفسها التي يعمل بها هيداكا وتوشيكو. وقد ساور الشك توشيكو في أنها المرأة التي يلتقبها زوجها، وأن علاقتهما الغرامية كانت السبب في أن توكيكي لم تعد تجيىء لزيارتها في الغرفة التي استأجراها.

مضت توشيكو تبكي وتشكو، هامسة على نحو دامع لزوجها، عندما تحدثت شيزو في تلك الليلة. بدا أن هيداكا قد أزعجته دمدمات شيزو الليلية الضالة، فقد استخدم كلتا يديه لينحي رأس توشيكو عن صدره. ورقدت توشيكو ساكنة في موضعها بعض الوقت.

قال هيداكا:

- ذلك صوت مخيف. أليس كذلك؟

- يمكنك القيام بكل ما تشاء عندما أكون مثل شيزو، عندما يكون لي طفل في الصف الخامس. أقسم أنني لن أكترث أدنى اكتراث. أما الآن - الآن! - هذا أمر لا يُصدق! لم يمر على زواجنا عام، وبالفعل.. إنك تدرك، بالطبع، أن الآنسة توكيكو

لها غراميات أخرى، لابد أن الأمر كذلك، مع قول شيزو أموراً من ذلك القبيل.

- نعم، أعرف. إنك شيطانة متشككة تماماً كالسيدة نوماو. عليك فقط أن تتذكري صوتها ذاك.

بعد تلك الليلة، لم تقل شيزو أي شيء قط عن توكيكو مجدداً. وفي بعض الأحيان كانت توكيكو تمر للقاء توشيكو، وفي تلك المناسبات كانت تتحدث بلطف مع نوماو كذلك.. ومن المؤكد أن شيزو لم تشك عندئذ - في وضح النهار - في أن توكيكو وزوجها كانا يعتزمان أمراً.

حذّر هيداكا توشيكو بعد الحادثة المتعلقة بتعبير «قطرات المطر» في لعبة العشرين سؤالاً، قائلاً: «من الخير لك أن تلزمي الحذر. إنها في حالة نفسية خطرة». كان الأطفال الأربعة لايزالون يلعبون اللعبة نفسها. وتعين تقديم المساعدة لفوميو - الصبي الذي خمّن تعبير قطرات المطر - عندما يحل دوره في أن يكون مذيعاً، حيث أنه كان في الصف الثاني الدراسي فحسب. دنت صفارة انذار منبعثة من عربة اسعاف عبر الشوارع المعتمة. ساد شعور كأنما شيء فظيع يوشك على الحدوث.

- أوه، إنني أكرهها! لقد سمعت تلك الصفارة ثلاث مرات اليوم.

قالتها توشيكو، بصوت عال بما فيه الكفاية لكي يُسمع في الغفرة المجاورة.

قال هيداكا:

- نعم، هناك الكثير من الحوادث تقع في نهاية العام. الناس يندفعون مسرعين، والسيارات تنطلق بأسرع مما ينبغي.. هذا وضع خطير. لقدسمعت في مكان ما أنه عندما تُرسل سيارات الاسعاف، فإن ذلك على الدوام تقريباً يكون لانقاذ أناس أصيبوا بجروح، بل انها لا ترسل للمرضى. وانني على يقين من أن السيارات لابد منطلقة كالمجانين في هذا المطر.

- ذلك الصوت.. الأمر يبدو كما لو أن صدري قد أوقف عن الحركة. وهو يجعلني أحس بأنني أوغلت في العمر قليلاً. كأنما فيض من السنين يندفع نحوي.

- ها نحن نجلس في خير حال قرب المدفأة، لم يتعين أن تتحدثي على ذلك النحو؟ لقد تضرر أحدهم.

خفضت توشيكو صوتها:

- ليس الأمر طريفاً، كما تعلم. فأنا مضطرة لترك عملي بعد الاحتفال بالعام الجديد، أليس كذلك؟ لقد قلت أنت نفسك إن الشركة لها قواعدها. وإذا تزوج اثنان من العاملين فيها، فإن على أحدهما ترك العمل. ومن الذي أبلغ الجميع في العمل بأننا تزوجنا؟ كانت الآنسة توكيكو هي التي قامت بذلك. أليس كذلك؟

- كانا شيئاً جميلاً الابقاء على الأمر سراً على امتداد نصف عام.

- لم يكن ذلك من الجمال في شيء. عندما أفكر في أنه سيتعين عليَّ ترك عملي العام المقبل، فإنه يبدو كما لو أن هناك عربة اسعاف تنطلق مسرعة عبر صدري.

أوغلت الصفارة في الابتعاد عبر الشوارع.

إنقضت لحظات قلائل، ثم تحدثت شيزو مجدداً في الغرفة المجاورة.

هتفت منادية:

- توشيكو؟ لست أدري لم ولكن عربات الاسعاف، لسبب ما، تجوب هذا الشارع كثيراً. وقد استمر الأمر على هذه الحال بعض الوقت. وفي كل مرة تترامى تلك الصفارة إلى أذني أحدِّث نفسي بأنه كم جميل أن تصدم سيارة زوجي، إذا قُتل، أو حتى جُرح.

- .....

- لو أنه جُرح، فسوف يظل بمقدوره القيام على أمر المتجر.

مضى هيداكا وتوشيكو يحدِّق أحدهما في الآخر. وعجزت توشيكو عن ابعاد عينيها الفاتنتين، الموحيتين بميعة الصبا عن محيا هيداكا.

قالت شيزو:

- توشيكو؟ هل آويت إلى الفراش؟

ردت توشيكو. وهي لاتزال في موضعها:

- لا، الوقت لايزال مبكراً، فالساعة لم تتجاوز التاسعة والثلث.

- أهي كذلك؟ هل يزعجك أن آتي للحديث؟

ردت توشيكو مجدداً:

- لا، على الاطلاق.

تطلعت توشيكو بصورة غريزية إلى الباب المنزلق، وعدّلت وضعها تحت اللحاف القريب من المدفأة.

بدأت شيزو في الحديث فور اقترابها من المدفأة للجلوس مع هيداكا وتوشيكو، اللذين جلسا أحدهما قبالة الآخر.

- سيد هيداكا، كنت أفكر في أنني قد أنظر في تأجير الغرفة ذات الثماني حصر، العام المقبل. فما رأيك؟ إذا كان هناك أحد من معارفك تعتقد أنه سيكون مستأجراً جيداً، فهل تبلغني به؟

- بالطبع.

- لن أقبل أحداً مثل الآنسة توكيكو

- إنها تقيم مع أبويها.

- ماذا؟ مع أبويها؟

لسبب ما بدا أن الدهشة سيطرت على شيزو. أضافت:

- طيب، أليس ذلك أمراً جميلاً بالنسبة لها. ولكن على أي حال، إذا كان بوسعي تأجير الغرفة ذات الثماني حصر، فإنني

أعتقد أنني سأستخدم إما المقدم أو الضمان لإصلاح الميزاب. فهو يحدث ضجة فظيعة في كل مرة يسقط المطر، ويساورني الشعور بالتعاطف مع الأطفال، الصوت عال للغاية إلى حد أنني لا أغفو عندما ينهمر المطر بشدة.

- من المؤكد أن الأمر ليس بذلك السوء؟

- إنه بذلك السوء. وبأمانة ليس بامكاني النوم. ولكن ما أردت قوله هو أنه إذا كان هناك من سيجيء للاقامة قربنا، فإنني أعتقد أنه قد يكون جميلاً لو أنه شخص تعرفانه كلاكما. اعتقد أن أفضل خيار سيكون زوجين شابين.

سأل هيداكا توشيكو:

- لا يتعين حقاً أن يكون أي شخص نعرفه. إننا لا نهتم بذلك. هل نهتم به؟

- أود أن يكون هناك اثنان من الأزواج يتعايشون بصورة طيبة معاً. وعندئذ يمكنني محاولة جعل الأمور تمضي قدماً بالنسبة للأطفال في الغرفة الصغيرة بالطابق الأرضي. أود أن يكونا زوجين شابين. لقد قمت باختيار الأشكال الزخرفية لهذا اللحاف القريب من هذه المدفأة. أليس كذلك ياتوشيكو؟ هل قمت بخياطته بنفسك؟ إنه جميل.

ترددت قعقعة الباب الخارجي في الطابق الأرضي.

- شينيتشي؟ فوميو؟ أأنتما هنا؟

تناهى إليهم صوت نوما والأجش:

- هل أنت! هنالك في الخارج، الآن تواً. الأمر فظيع حقا! كان محزناً للغاية إلى حد أنني لم أستطع احتمال التطلع إلى المنظر. فقد دهست سيارة ابن أحدهم.

كان الأطفال الأربعة قد توقفوا بالفعل عن لعبة العشرين سؤالاً التي كانوا يلعبونها عندما سمعوا صيحة نوماو. وبدا كما لو أنهم خرجوا لملاقاته.

- لقد رجع.

قالتها شيزو. وانبعثت واقفة على وجه السرعة من جلستها بجوار المدفأة، عندئذ، وكأنما أحرجها أن يراها هيداكا وتوشيكو مسرعة للقاء زوجها، قالت:

- لابد أنها كانت من أجل الصبي.. عربة الاسعاف التي سمعناها قبلاً.

غادرت الغرفة.

فجأة تناهى صوت توكيكو من الطابق الأرضي. ولابد أن شيزو قد انتقدت نوماو لقدومه إلى الدار مع توكيكو، وذلك بالحكم من خلال الطريقة التي مضى يتحدث بها الآن.

- أنا؟ لا، لا، دعيني أخبرك.. هذه المخلوقة الماثلة هنا! إنها لمخلوقة قاسية. صبي صغير تصدمه سيارة، وماذا تراها فاعلة؟ تماماً كما تتصرف امرأة. إنها هناك مختلطة مع بقية الحشد، تحدِّق. لم أستطع تصديق الأمر ولكن ماذا عساك تفعل؟ المرأة التي لا أطفالها لها هي على ذلك النحو.

- أوه، إنك فظيع! لقد اعتقدت أن الأمر رهيب. وبالاضافة إلى ذلك فإنني أتذكر، فيما يبدو، أنك كنت تتطلع للمشهد بدورك، يا سيد نوماو!

- كنت كذلك، فقد سمعت أنه طفل، وحدّثت نفسي بأنه قد يكون أحد أطفالنا. ولذلك شققت طريقي وسط الجمع مباشرة، وعندما وصلت إلى المقدمة كانت الآنسة توكيكو واقفة هناك مباشرة!

قالت شيزو:

- ما الذي حدث للطفل؟ هل سيعيش؟

- من أين لي أن أعرف؟ لقد أدركت أنه ليس أحد أطفالنا، وأحسست بالارتياح للغاية إلى حد أنني.. رأيتهم يضعونه في عربة الاسعاف، لكن هذا كان كل ما هنالك.

قالت توكيكو لنوماو:

- أتدرك ما أقصده؟ ما إن رأيت أنه ليس أحد أبنائك حتى شعرت بالارتياح.ألا تعتقد أن ذلك أمر فظيع؟

- أعتقد أنك على حق تماماً.

قالتها شيزو، منضمة في الرأي إلى توكيكو، ثم غيّرت موضوع الحديث:

- عندما يكون أحد من دارنا خارجاً وأسمع صوت عربة اسعاف أو شيئاً من هذا القبيل، فإنني أكره ذلك.

صعدت توكيكو إلى الطابق الثاني. بدا أن الغرفة تزداد تألقاً. وعندما لزمت توكيكو الصمت بضع دقائق، تحدثت توشيكو.

قالت:

- سمعنا صفارة سيارة اسعاف هنا أيضاً.

- هل سمعتموها؟ جعلتني تلك الحادثة أحس بفظاعة ما يجري. كنت في الطريق إلى هنا لابلاغكما .. طيب، بأنني بسبيلي إلى الزواج قبل نهاية العام. الأمر مفاجىء للغاية. إنه أكبر مني قليلاً.

قالت توشيكو مبتهجة، وقد بدا للحظة أن عينيها الجميلتين قد تمتلئان بالدموع:

- طيب، هذا أمر رائع. عزيزي، إذا احتاجت توكيكو إلى غرفة.. فكيف يكون الأمر إذا حصلت على الغرفة المجاورة ذات الثماني حصر؟

لم يحر هيداكا رداً. تحرك الظل الجميل الذي يلقيه أنف توكيكو على إحدى وجنتيها، متخذاً أشكالاً غريبة.

أشارت أصوات عديدة إلى أن أطفال الجيران كانوا في طريقهم إلى الدار، ثم تناهت الغمغمة الخفيضة للزوجين، وهما يتحدثان في الطابق الأرضي، وأغرق خرير المياه المنحدرة من الثقب في الميزاب خارج غرفة الأطفال صوتيهما.

الثلوج الأولى على جبل فوجي

- ١ -

قال جيرو:

- هناك ثلج بالفعل على جبل فوجي. ذلك ثلج. أليس كذلك؟

تطلعت أوتاكو من نافذة القطار إلى جبل فوجي.

- أصبت. إنها الثلوج الأولى.

كرَّر جيرو قوله:

- إنها ليست سحباً فحسب. أهي كذلك؟ إنها ثلوج.

كان جبل فوجي ملتفاً بالسحب. كانت السحب والثلوج

الشهباء على قمة الجبل من اللون نفسه تقريباً، تمتد قبالة السماء المكفهرة.

- أي يوم هو اليوم؟ الثاني والعشرون من سبتمبر؟

- نعم، غداً يوم الاعتدال الخريفي.

- أتساءل عما إذا لم تكن السماء تمطر ثلجاً على جبل فوجي في مثل هذا الوقت تقريباً من كل عام. هل أنت واثقة من أن هذه هي الثلوج الأولى؟

قالها جيرو، ثم أضاف، كأنما خطرت له الفكرة لتوه:

- انتظري، لا يمكنك تحديد ما إذا كانت هذه هي الثلوج الأولى أم لا. هل يمكنك ذلك؟ إنها المرة الأولى التي أرى فيها أنا وأنت الثلوج على جبل فوجي هذا العام، ولكن الثلوج ربما كانت قد سقطت من قبل.

- ألم ينشر ذلك في الصحيفة؟ كانت هناك صورة كبيرة، وقد قالت في عنوانها: «التجميل الأول هذا العام لوجه فوجي».

- متى كان ذلك؟

- أعتقد أنه نشر في صحيفة صباح اليوم. لم تكن صحيفة البارحة.

- لم أرها.

- لم ترها؟ ربما لأنك لا تحصل على الصحيفة التي تصلنا.

- ربما كان ذلك ممكناً.

قالها جيرو مبتسماً، على نحو ساخر.

- إنه يبدو مشابهاً تماماً للصورة التي نشرت في الصحيفة. أعتقد أنها ذكرت أنها التقطت من طائرة الصحيفة. نعم، كانت الصحف على ذلك النحو..

ظل جيرو على صمته، لذا واصلت أوتاكو حديثها:

- لابد أن الصورة التقطت بالأمس، إذا كانت قد نشرت في الصحيفة الصادرة صباح اليوم. كانت سحب الأمس تمتد كهذه السحب اليوم. هذا غريب، أليس كذلك؟ السحب تواصل الحركة، ولكن الترتيب يظل على حاله.

ساور جيرو الشك في أن أوتاكو قد تطلعت إلى الصورة بعناية بالقدر الكافي الذي يمكنها معه أن تقول حقاً: «سحب الأمس كانت على النحو ذاته».

كانت الحقيقة القائلة إن أوتاكو لم تنظر إلى جبل فوجي إلا بعد أن قال جيرو: «هناك ثلج على جبل فوجي» دليلاً على هذا، فهي لم تلحظ الجبل على الاطلاق، إلا بعد حديثه. ومن المؤكد أنها كانت ستتطلع إلى الجبل عندما استقلا القطار في الطريق إلى إيتو، لو أنه كان صحيحاً أن الصورة كانت قد أثرت فيها بقوة بالغة. من المؤكد أنها كانت ستراه قبل أن يراه هو.

كان القطار قد تجاوز أويسو بالفعل.

لاشك في أن أوتاكو قد تذكرت الصورة المنشورة في صحيفة هذا الصباح بعد أن قال جيرو: «هناك ثلج بالفعل على جبل فوجي»، عقب تطلعها إلى الجبل فحسب. وقلة من الناس هي التي لديها ما يحدوها إلى النظر بتدقيق بالغ إلى صورة منشورة في صحيفة لجبل فوجي.

لو أن ما قالته أوتاكو كان صحيحاً - لو أن السحب المحيطة بجبل فوجي كانت مرتبة حقاً بالطريقة نفسها بالأمس التي رُتبت بها اليوم - بدا لجيرو أن المرء يمكنه أن يستشعر في هذا جلال الطبيعة.

من ناحية أخرى، فربما كان من الطبيعي بالنسبة لأوتاكو أن تنسى الصورة، عندما استقلت القطار مع جيرو، حتى لو كانت أثرّت فيها بقوة هذا الصباح.

كانت أوتاكو قد عرفت في ذلك الصباح أنها ستستقل القطار إلى أوداوارا معه، وربما أحدثت اشارة ذهنية لذكر الثلوج الأولى لدى وصولهما إلى موضع يمكن رؤية جبل فوجي منه. ولكن حتى إذا كان الأمر كذلك، فقد كان من الممكن تماماً أن الانفعال استبد بها إلى حد أنها نسيت الموضوع.

كان أوتاكو وجيرو قد وقع أحدهما في هوى الآخر قبل سبع سنوات أو ثمان، لكنها تزوجت من رجل آخر، وطُلقت مؤخراً. واليوم هاهي في طريقها إلى هاكوني مع جيرو. وكان لديها الكثير من الأمور التي تشغل ذهنها.

- جاء في الصحيفة إن الثلج سيهمي على امتداد كبير، يصل إلى المحطة الثامنة في الطريق الصاعد للجبل. ترى هل تلك هي المحطة الثامنة؟

كانت أوتاكو لاتزال تتحدث عن ثلوج جبل فوجي الأولى. ألقت نظرة سريعة على ملمح جيرو الجانبي.

بدا لها أنه للمرة الأولى منذ لقائهما هذا الصباح، تردد صوت جيرو مترعاً بحيويته القديمة مجدداً، عندما أشار إلى الثلج على جبل فوجي. وهكذا فقد واصلت الحديث عنه.

كان صوته قد تردد كئيباً ومجرداً من النغمات الدالة في سمع أوتاكو، طوال الطريق من محطة طوكيو، في كل مرة رد فيها عليها، فلم تستطع منع نفسها من التساؤل عما إذا كان مكتئباً.

كان لايزال يتطلع من النافذة إلى جبل فوجي.

كانت أوتاكو قد غدت نحيلة للغاية، وساوره الشعور بغواية التطلع إلى جسمها المهزول ذاك، ليتفقده. لم يكن هذا بالضرورة شعوراً قاسياً، وفي حقيقة الأمر فقد كان حباً. ومع ذلك فإنه كلما زادت رغبته في النظر إليها، قلت قدرته على القيام بذلك.

قالت أوتاكو:

- فيما يتعلق بما كنا نتحدث عنه قبلاً..

سحبت الحوار من جبل فوجي إلى حياتها.

- تقصدين السيد سوميا؟

- نعم.

لزمت أوتاكو الصمت لحظة، أضافت:

- أعتقد حقاً أنه بالنسبة لي، عند هذا المنعطف، أياً كان ما يحدث، وبقدر الامكان، فإنني أود أن أمنح الناس فائدة الشك.

- نعم.

- إذا واصلت الشعور بالغيظ من سوميا، فإن الأمور لن تتحسن أبداً بالنسبة لي.

- أعتقد أنك على حق.

- أعني أنه حتى افتراقنا، ربما كان الخطأ من جانبي أصلاً. إذا فكرت في الأمر حقاً، فإنه يبدو أن الأمر بأسره كان غلطتي بصورة جزئية.

- لكنك إذا كنت ستمنحين الناس فائدة الشك، ألا تعتقدين أنك ينبغي أن تعطي نفسك فائدة الشك أيضاً؟

ابتسمت أوتاكو، قائلة:

- أوه، بالطبع، أحسب أن الفكرة بكاملها هي نوع من الحيلة الرامية إلى عدم تحاملي على نفسي.

كانت ابتسامة أوتاكو مشرقة في شبابها، لكنها الآن

ابتسامة ملتوية توحي بالعزلة، وقد انثنى أحد ركني فمها إلى أعلى قليلاً، بصورة عصبية.

- لكن ذلك ليس هو السبب الوحيد في أنني أرغب في التفكير بتلك الطريقة. الأمر راجع كذلك إلى أنني قد استبد بي التعب، إلى أنني ليست لديَّ طاقة. ربما كان من الأيسر أن تمنح فائدة الشك للناس عندما تكون متعباً.

• هل كانت حياتكما معاً حقاً معركة على مثل هذا القدر من الضراوة؟

- نعم، عندما تبدأ الأمور في التردي بالنسبة لزوجين، فليس هناك حقاً ما يمكنك القيام به. هكذا فإنني أحسب أنني قد بذلت قصارى جهدي لاحتماله، ففي نهاية المطاف المرأة هي التي تبقى في الدار طوال طوال الوقت. وهي التي يتعين عليها دوماً أن تتحمل..

- نعم، من المؤكد أنه يبدو أنه كان من الأصعب بالنسبة لك الافتراق عن سوميا. أحسب أنه لايقارن بما حدث عندما افترقنا.

- أوه، ذلك قاس، قول ذلك الآن. فلم أكن أعرف شيئاً آنذاك. ويرجع جانب من السبب في أنني قد تحملت الكثير للغاية هذه المرة إلى أنني واصلت التفكير في كيفية افتراقنا، أنت وأنا، من قبل.

لم يستطع جيرو الحديث.

- تحمل كل شيء حتى افتراقنا كان أصعب بكثير، بالنسبة لي، من الافتراق بالفعل. وأنا أعني ذلك حقاً.

أومأ جيرو موافقاً.

- وهناك الأطفال.

- لقد حدثتني عن الأطفال في وقت سابق.

كان جيرو يتطلع إلى الثلج، الذي يكسو جبل فوجي، لكنه عاد بناظريه إلى محيا أوتاكو، أضاف:

- حيث أنك أتيت على ذكر الأطفال، أطفالك الآن، فإنه يبدو لي أنهم سيكبرون، حتى لو لم تكوني معهم. أليس كذلك؟ ولكن عندما افترقنا أنت وأنا - لأننا افترقنا - فقد قتلنا ذلك الطفل.

نطق هذه الكلمات، كأنما يبصقها، ثم تمنى لو أنه لم يقلها.

ارتجف أسفل جفني أوتاكو وخداها، بل إن أطراف أصابعها عمتها الرجفة.

- في ذلك الوقت، لم أكن أعرف أي شيء عن الأطفال أيضاً.

رأى جيرو عيني أوتاكو تمتلئان بالدموع.

قال:

- نعم، أحسب أن ذلك صحيح. أكثر من أي شيء آخر، فإن

اللوم يقع على الحرب. إنني أعتقد ذلك حقاً.

هزت أوتاكو رأسها.

- جعلني الحمل مشوشة تماماً، سيطر عليّ التشوش كليه، بحيث أنني لم أفهم أي شيء.

امتلأت عيناها بالدموع من جديد.

لكن أوتاكو لم تستطع تذكر الطفل الذي أنجبته من جيرو، الطفل الميت. لم تستطع إلا أن تتذكر الطفلين اللذين تركتهما في دار سوميا.

قال جيرو:

- أوافق على أنك كنت مشوشة، ذلك صحيح. على نحو ما، كان الأمر غريباً. ولكن بشكل ما انتهى حملك بجعلنا نفترق.

حاولت أوتاكو نسيان طفليها، اللذين تركتهما مع سوميا، لبضع لحظات، لكي تتذكر طفلها من جيرو، لكن الوليد كان قد انتزع منها بُعيد ولادته، ولم تتمكن من السؤال إلى أين مضى.

كان ذلك في العام الذي ستنتهي الحرب خلاله. وقد ضمّن والدا أوتاكو بشكل ما أنها حامل، ثم اكتشفا علاقتها بجيرو. استغلت العائلة بكاملها الحمل كذريعة لها، وهربت من طوكيو، متوجهة إلى بلدة صغيرة في الريف. وبما أن المنطقة كانت جديدة بالنسبة لهم، فقد أوضح الوالدان أن ابنتهما متزوجة، وانهما قد أحضراها للريف لتلد فيه، وكان ذلك كل ما هنالك.

كان والد أوتاكو لايزال يعمل، ولذا فقد بقى معظم الوقت في دارهم بطوكيو. وصحبتها أمها والوليد إلى طوكيو، وذلك على الرغم من من تعدد الغارات الجوية التي أطبقت على المدينة كالوباء. حملت أوتاكو الوليد بين ذراعيها، ومضتا للتخلص منه. أرادت أوتاكو رؤية جيرو، لكنها أُعيدت إلى الريف مجدداً في اليوم التالي، بعد منح الوليد لآخرين.

لم يقدر لأوتاكو أن تسمع، إلا بعد نهاية الحرب، أن الوليد قد مات، وهو في رعاية الشخص الذي أعطوه إياه.

قالت أوتاكو:

- لكن هل تظن أن الطفل مات حقاً؟

أشاح جيرو بناظريه بعيداً.

- في بعض الأحيان أعتقد أنه لايزال حياً، كما تعلم، ربما لايزال حياً.

- إنني واثق من موته.

- لو كان حياً، هل تعتقد أنني لو قابلته في مكان ما، هل تعتقد أنني سأعرفه.

- أنظري، لقد مات الطفل، دعينا نمتنع عن الحديث عن هذا الأمر.

لم تساور جيرو رغبة في الحديث مع أوتاكو عن أي شيء في الماضي، ليس تفصيلاً. ولم يكن الأمر متعلقاً بالطفل وحده.

- ٢ -

لم تكن دموع أوتاكو قد جفت بعد، ولذا استقلا سيارة أجرة من محطة أوداوارا. كان ركنا عينيها محمرين. لم يبد الأمر كما لو أنها قد بكت، فهي لم تبك حقاً، ولكنها بدت كما لو كانت قد انخرطت في البكاء، ربما كان الضغط المستمر على ذهنها وجسمها قد أثر على جفنيها. وبدا أن المرء عليه أن يقول شيئاً مقيتاً فحسب، فتمتلىء عيناها بالدموع.

أراد جيرو أن يرى محيا أوتاكو على نحو ما اعتاد أن يكون. كان أمراً مؤلماً بالنسبة له أن ينظر إلى ملامحها الهزيلة. وهكذا فإنه من جراء البحث عن أوتاكو التي كان قد عرفها في أوتاكو الماثلة أمامه، من جراء محاولة عدم رؤية أوتاكو الماثلة بين يديه، اكتسبت عيناه مظهراً موحياً، بالتعب. ولم يرغب في أن تشعر بأنه يحدِّق فيها، ولكنه لم يدر إلى أي شيء آخر ينظر.

علَّق الآمال على أنه قد يحس بالمزيد من أوتاكو القديمة في ملامحها، عندما ينتقلان من القطار إلى سيارة الأجرة، ربما ستبدو مختلفة في السيارة، حيث لايوجد غيرهما.

كانت رغبته في رؤية المحيا الذي كان يعرفه محتدمة للغاية إلى حد أن تعلات دقيقة كهذه وردت على خاطره بصورة طبيعية.

عندما يتردد صوت من رحاب زمن طويل مرة ثانية، بعد انقضاء الوقت، فإن البهجة والحزن معاً يصبحان قصيدة.

كان هذا شيئاً كتبه شاعر، لكن جيرو أحس بعدم الاقتناع، فما الذي تعنيه قصيدة على وجه الدقة؟

فيما سيارة الأجرة تمر بأطلال القلعة في أوداوارا، تطلع جيرو إلى أجمة الأشجار السامقة هناك.

- جيرو، هل تعرف من الذين أخذ الطفل!

قالتها أوتاكو في هدوء، ولكي تتحدث في هدوء كانت قد أقتربت منه.

لم يدر جيرو كيف يجيب عن هذا السؤال.

- دعينا نمتنع عن الحديث عن هذا الأمر.

دهشت أوتاكو، قالت:

- ماذا؟ أكنت تعرف؟ كيف اكتشفت جلية الأمر؟

- أبلغني أبوك. تلقيت رسالة تفيد أن الطفل مات.

- هو؟

- ربما قصد القول: (إن الصلات التي تربطكما قد انفصمت عراها). إنني على يقين من أن ذلك هو السبب في كتابته لي. في ذلك الوقت اعتقدت أن الأمر ربما كان راجعاً إلى معنوياته المنخفضة - فقد كنا في غمار الهزيمة في الحرب وكل هذه الأمور - وحدّثت نفسي بأنه ربما أحس بالذنب، وأنه ربما كان ذلك هو السر في أنه أطلعني على جلية الأمر.

- أتقصد أن أبي قد أبلغك بالأمر؟

قالتها أوتاكو متسائلة من جديد، كأنما عجزت عن تصديق ما كانت تسمعه.

عندئذ استندت بخفة على جيرو، فعجز عن تخمين السر في انجذابها نحوه على تلك الشاكلة، وما إذا كان ذلك راجعاً إلى أنها قد أصبحت تشعر بحميمية من نوع ما بينهما، أو لأنها لم تعد لديها الطاقة اللازمة لتحقيق تماسكها واعتمادها على نفسها.

استشعرت أوتاكو دفء جسم جيرو، فتركت جفنيها ينزلقان على عينيها.

انتظر جيرو أن تواصل أوتاكو الحديث، لكنها لم تحر قولاً.

غمغم قائلاً:

- لا بأس من استنادك عليَّ.

أومأت أوتاكو، لكنها لم تقترب منه أكثر، بل إن كتفيها تصلباً قليلاً، وظلت ساكنة في موضعها.

قالت، على مهل، وفي هدوء:

- لكن حتى إذا كان أبي أبلغك بالأمر، فإننا لا نعرف ما إذا كان ما أبلغك به صحيحاً. في غمار وجودي معك هنا على هذا النحو، فإنني أحس يقيناً بأن ذلك لايمكن أن يكون حقيقياً.

كان ذلك كهمسة عاشقة. وكانت ركبتا أوتاكو ترتجفان

تقريباً، وهي تجلس هناك مستندة إلى جيرو. ولكي تسيطر على هذه الرجفة، حاولت استحضار صور الطفلين اللذين تركتهما في دار سوميا، وتحدثت عن الطفل الذي انجبته من جيرو.

عرفت أنه يشفق عليها، ولهذا السبب فإن جزءاً منها حاول التماسك بعيداً عنه، حاول أن يقاوم.

رد جيرو:

- قلت هذا منذ وقت ليس بالبعيد، ولكن.. ما أبلغني به كان صحيحاً بصورة قاطعة.

تذكر جيرو استلام رسالة تفيد أن الطفل مات، ثم الذهاب للقاء والد أوتاكو. وكان قد أفلح في الحصول على عنوان العائلة التي تلقت الطفل، بل انه مضى إلى الدار لأداء طقوس الحداد، لكنه لم يقل شيئاً من هذا لأوتاكو الآن.

قال فجأة، وقد تردد صوته قوياً:

- لكنني لم أندم على انجاب الوليد آنذاك.

دهشت أوتاكو. بدا أنها قد تبتعد عنه لحظة، لكنها سرعان ما ازادات قرباً منه، كأنما توافق على ما قاله.

- حتى إذا كان قد ترك أثراً سيئاً على حياتك الزوجية..

هزت أوتاكو رأسها:

- لم يكن هناك شيء من هذا القبيل. ذلك ليس صحيحاً. لم يكن الأمر على هذا النحو.

كانا يغادران وسط أوداوارا، وينطلقان في شارع تحف به صفوف من أشجار الكرز.

قالت أوتاكو مستدركة:

- على الأقل لم يكن الأمر كذلك بالنسبة إلى سوميا. لست أعتقد أنني كنت سأجيء معك على هذا النحو، لو أن الأمر كان علي تلك الشاكلة.

ظل جيرو على صمته، حتى عندما مرا بالمنتجع الصحي في يوموتو.

استغرق الأمر وقتاً قصيراً على نحو غير متوقع للمضي بالسيارة من ميانوشيتا إلي كوران

قال جيرو:

- في آخر مرة قدمت إلى هنا ركبت القطار، وأذكر أنه قد استغرق وقتاً طويلاً حقاً. ولكن ذلك كان في الصيف، وكانت هناك تلك الكوبيات الرائعة التي تنمو في كل مكان بالمحطة، كانت جميلة.

- هل رأيت نرجسيات الأمارلس المزدهرة في الشارع هناك؟

كان هناك عدد من النُزل في كوران، شيدت بعد الحرب، وقد حُولت إلى دارات مما كان يطلق عليه اسم «الزيباتسو».وكان النُزل الذي قدما إليه إحدى هذه الدارات،

دارة تضم بقايا غابة قديمة في حديقتها. وأخذاً في الاعتبار طراز هذه الدارات، فقد بدت كما لو كانت تنتمي إلى نُزل.

كان بناة الدارة قد ترددوا في قطع الأشجار، التي كانت تنمو منذ الأيام التي كانت فيها غابة طبيعية تكسو الأرض. وكانت أوراق الأشجار تظل الغرفة التي تم المضي بأوتاكو وجيرو إليها.

لم يكن أي منهما يعرف أسماء الأشجار، ولكن الجلوس والتطلع إلى جذوع الأشجار البارزة إلى جوار الشرفة ساعدهما على الاسترخاء.

قالت وقد ساورها شعور بأن التوتر يفارقها، فيما هي تتطلع إلى محيا جيرو:

- المكان جميل هنا. أليس كذلك؟ لا، الأمر لا يشبه حلماً، وإنما يشبه الاستيقاظ من كابوس. كانت تلك طريقة حياة فظيعة.

تحدَّث جيرو بصورة عرضية:

- اخترنا مكاناً جميلاً. أليس كذلك؟

- بلى، هناك أماكن جميلة، في نهاية المطاف.

فميا أوتاكو تحدّق في الصخور العديدة في الحديقة، حدثت نفسها بأنها تود كثيراً أن تحضر طفليها إلى هنا، وحتى إذا كانت بسبيلها إلى الافتراق عنهما، فسوف يكون أمراً

جميلاً أن تحضرهما إلى مكان جميل كهذا، وأن تتركهما يلعبان كما يطيب لهما على امتداد يوم واحد، وعندئذ يمكنها أن تودعهما.

- عندما احترقت داري في الغارات الجوية، مضيت فاستأجرت غرفة في معبد بالريف، في موساشينو. وكان هناك رجل يعلم ترانيم مسرح النو كان قد اضطر كذلك لمغادرة داره، وقد وضع بعض حصر التاتامي في غرفة كانت تُتخذ مخزناً على الجانب الآخر من الحديقة، ويقطن هناك، وبين الحين والآخر كان العازفون على الطبول وشخص يعزف على الناي يقبلون إلى هناك، وعندما كنت أسمع تلك الطبول والنايات كنت أفكر فيك. ولم أكن أستطيع احتمال ذلك.

أفصحت عينا أوتاكو عن سرورها.

- هل كانت أمك معك في ذلك الوقت؟

- نعم، كنا ثلاثتنا هناك، أمي وأختي وأنا.

- متى تزوجت أختك؟

- أظن أن ذلك كان منذ أربع سنوات.

مضت أوتاكو تتساءل متى تزوج جيرو. ولم تكن قد طرحت عليه هذا السؤال بعد، وقد اعتزمت ألا تقول شيئاً على الاطلاق عن زوجته. واصل جيرو قصته:

- كان الكاهن في المعبد يتعلم بدوره الترنيم بأسلوب النو -

لابد أنه كان يعتمد على ذلك عندما جاء - وعندما أشدت بترنيمه، قال إنه كان فظيعاً في أداء الترنيم، وإنه كان على الدوام ينتهي باستخدام درجة الصوت التي يرتل بها السوترات.. وكنت أسمعه يهتف بتلك النداءات، ويترامى إلى سمعي قرع أعلى الطبول دوياً، وعلى الدوام كان ذلك يفزعني للغاية إلى حد أن قلبي كان يثب في موضعه. كنت كسير الفؤاد، وفوق ذلك كله كنت أعاني من سوء التغذية، وكان جسمي واهناً. وخطر ببالي أنه أمر عجيب ومدهش للغاية أنهم يواصلون قرع الطبول والعزف على النايات حتى ونحن نحسر الحرب. أتدرين ذلك؟ أقصد أنه ربما لم يكن هناك أي شيء آخر يمكنهم القيام به. ولكن على الرغم من ذلك.. فإنني أنا وأنت لم يكن لدينا ما يكفي من قوة الارادة للتفكير على ذلك النحو، لادراك أنه لم يبق أمامنا ما نقوم به إلا العزف على النايات. عندما خسرت البلاد الحرب، خسرت أنا وأنت بدورنا.

- كنت لا أزال طفلة. ولم أفهم أي شيء.

كررت أوتاكو قولها هذا، أضافت:

- لكنني أحسب أنك على صواب. لابد أنني أنا وأنت كان ينبغي علينا أن نعزف على نايينا معاً، وقد انتهت الأمور على هذا النحو لأننا لم نقم بذلك.

أقبلت الخادم مجدداً لتقترح عليهما المضي إلى الحمام.

وكانت تلك هي المرة الثانية التي تقوم فيها بذلك.

قالت:

- تأكدت من ملاءمة درجة حرارة الماء لتوي، وبالتالي يمكنكما..

- نعم، شكراً لك. لكني أخشى من أنني لم أحضر ملابس الاستحمام.

- سأجلب بعضاً منها إلى الحمام.

تحثت أوتاكو بعد أن غادرت الخادم.

- كم هذا محرج.. عدم احضار ملابس الاستحمام.. لسوف يمضون في التساؤل.

تضرج وجهها.

لم يكون قد اعتزما، عندما التقيا، المجيء إلى هاكوني.

كانا قد التقيا في جينزا، وتناولا غداء متأخراً، وفي وقت لاحق مضت سيرا على الأقدام إلى محطة شينباشي. وكان قد ألقى نظرة على جدول مواعيد القطارات على خط توكايدو، عندما كانت أوتاكو تشتري بطاقتها.

قال فجأة:

- لم لا نمضي إلى هاكوني؟

- اليوم؟ الآن تواً؟

بدا أنها قد أُخذت على حين غرة.

لم تكن لدى جيرو دوافع خفية في غمار اقتراحه أن يمضيا إلى هاكوني، ومن المؤكد أنه لم يكن لديه شيء يدعوها إلى التصلب على هذا النحو.

كل ما هنالك أن أوتاكو كانت نحيلة للغاية بصورة فظيعة والطريقة التي مضت تتردد بها، كأنما كانت خائفة من شيء ما. كان بوسع المرء أن يتبين في محياها إلى أي حد تعرضت أعصابها للضغوط الكثيفة. ولم يتمكن جيرو من حمل نفسه على توديعها هناك.

لكن لو أنهما ولجا الحمام، فإنه سيضطر إلى النظر مباشرة إلى جسم أوتاكو ،الذي نال منه التغير والتأثر،التطلع إلى جسمها الذي حمل أثاراً على نحو فظيع من زواج دم سبع سوات أو ثمان.

لم تكن أوتاكو قد غيرت ملابسها لترتدي «اليوكاتا» الذي قدمه النُزل عندما غادر جيرو الغرفة إلى الحمامات، لم تكن قد نزعت حتى جوربيها بعد.

- ٣ -

لم يحس جيرو بالميل حقاً إلى الاغتسال في النبع الكبريتي، ولذا فإنه بعد تدفئة جسمه في الماء، جلس على حافة الحمام،

وسمح لأفكاره بالتحليق بعيداً. بدا أن الماء الحار الذي انساب من الصنابير في المنطقة المستخدمة للاغتسال هو ماء عذب، ولكنه لم يحس بالميل إلى استخدام الصابون الذي قدمه النزل.

قالت أوتاكو:

- هل من المناسب أن أدخل الحمام؟

- بالطبع.

قالها جيرو، فدفعت الباب لينزلق جانباً قليلاً، ووقفت ممسكة به.

- عندما كنت أطوي قميصك وأرتب أشياءك، دخلت الخادم وقالت: أوه، دعيني أقم بذلك عنك، وامضى للانضمام إلى زوجك في الحمام. إنني لا أحب منهن القيام بذلك حقاً.

كانت لاتزال ترتدي ثوبها البنى الفاتح، وحملت «اليوكاتا» تحت إبطها.

تطلعت بلامبالاة تامةإلى جيرو، الذي كان عارياً، ولم يكن هذا هو ما توقعه جيرو على الاطلاق.

- إنه حمام، وهم لن يتركوك تغادرين من دون استحمام.

- حقاً.

ما إن أغلقت أوتاكو الباب، حتى انحسر عنها التردد في القدوم إلى الحمام.

لم ير جيرو أكثر من لمحة سريعة من لون بشرتها قبل أن يشيح بناظريه. كان بياض بشرتها جميلاً.

جلست أوتاكو ساكنة تماماً، وقد غاصت في الماء حتى رقبتها.

جلس جيرو ووجهه في الاتجاه نفسه، متطلعاً إلى الزهور البيضاء للبرسيم البري المنتشر فوق الصخور القريبة من النافذة.

رفعت أوتاكو كتفيها من الماء.

- في الحقيقة أنني قد حسبته أمراً غريباً. حيث لم يصادف أحدنا الآخر مرة واحدة، طوال الوقت الذي أمضيته مع سوميا، ثم في اللحظة التي افترقنا فيها، صادف أحدنا الآخر على هذا النحو. وقد بدأت في التساؤل عما إذا كان هذا النوع من الأمور يحدث في الدنيا حقاً، وشرعت في التفكير في أنه لابد قد تم ترتيبه بصورة إلهية. أقصد أننا كنا نقيم في طوكيو أيضاً. أليس ذلك صحيحاً؟ وأياً كان مدى اتساع طوكيو، فإنه في سبع سنوات أو ثمان يعتقد المرء أننا سنلتقي في مكان ما.

- لكن من يدري؟ ربما مرَّ أحدنا بالآخر على جانبي طريق ولم يلحظ ذلك فحسب، أو شيء من ذلك القبيل. ولكن ربما لاحظ أحدنا الآخر، ولكنه تظاهر بعدم الملاحظة، وكل ما هنالك أنه واصل السير، أو ربما انعطف في طريق جانبي أو شيء كهذا..

- ماذا؟ ما الذي تقصده بـ «أحدنا»؟ أتعني نفسك؟ أم تقصدني؟

- لم أقصد أن الأمر كان كذلك معنا.

- طيب، على أية حال، فإنني لم أخرج أبداً على وجه التقريب. أو بالأحرى إنني باعتباري امرأة لها أطفال لم يكن بوسعي الخروج.

قالتها أوتاكو مستدركة

تذكرت شعورها بالقلق، عندما تزوجت من سوميا، من أنها ستصادف جيرو في مكان ما، ومضت تتساءل عما ستفعله إذا حدث هذا.

تذكر جيرو رؤية نساء في عربات الترام والحافلات المزدحمة في نهاية الحرب، وقد غمرهن الزحام وسط من يهربون من الغارات الجوية، واللواتي كانت ملامحهن الجانبية أو أجسامهن من الخلف تبدو مثل ملامحها أو قوامها وشعوره كأنما اخترقت إبرة فؤاده. لم يستطع أن يحدد كم عدد المرات التي حدث فيهاهذا، وذلك على الرغم من أنه عرف طوال الوقت أن عائلة أوتاكو قد أُجبرت على النزوح وأنها تقيم في الريف.

ضحكت أوتاكو.

- عندما تقابل الناس، فإنك تلتقيهم دوماً في أكثر الأماكن

عادية، وقد واصلت التفكير في أنني إذا التقيتك فإن ذلك سيكون في موضع رائع حقاً. ولكن كل من رآنا مضى يضحك. أليس ذلك صحيحاً؟ لاننا قد اصطدمنا أحدنا بالآخر. وأشك كثيراً أنه بدا لقاء بين اثنين لم ير أحدهما الآخر على امتداد سبع سنين أو ثمان.

كانا قد التقيا على الرصيف في محطة شينباشي. وكانت أوتاكو قد بلغت بالفعل أعلى الدرج، عندما لمحت رجلاً يشبه جيرو وهو يركب القطار، وهكذا فقد أسرعت نحو الباب الذي كان يدلف عبره، فرأى أحدهما الآخر، ووثب جيرو هابطاً من القطار، فيما كانت أوتاكو تركبه، وهنالك أمام باب القطار ارتطم جسماهما، فيما كان الباب يغلق.

في يوم لقائهما رتبا أن يلتقيا مجدداً اليوم.

وضعت أوتاكو يداً على العظمة التي تعلو صدرها.

- لقد أصبحت هزيلة.أنظر إليَّ! وعلى الرغم من ذلك، فإنني أفضل مما كنت عليه قبل العودة إلى دار أبويّ.

- حقاً؟

أحس جيرو بالرقة القديمة تنجبس في أعماقه، الآن وقد ألفيا نفسيهما في الماء، الرقة التي يستشعرها الرجال نحو النساء اللواتي أنجبن لهن، ومع ذلك فإنه في الوقت نفسه، على وجه التقريب، بدا أن البشرة التي رآها هي بشرة امرأة جديدة، وأحس بالحيرة.

- فقدت الكثير من الوزن بعد أن افترقنا أيضاً، عندما مات الطفل. ولكن الأمر لم يكن على هذا النحو، ففي نهاية المطاف كنت صغيرة في ذلك الحين.

أدرك جيرو أنه لم يتذكر جسم أوتاكو بوضوح بالغ، وذلك على الرغم من أنه قد أعتقد دوماً أنه يتذكره.

- كنت صغيرة، وعلى النحو الذي كانت عليه الأمور في ذلك الوقت فقد ساورني الشعور بأنني الوحيدة التي تفعل شيئاً خاطئاً، كما لو أنني اقترفت خطيئة. وذلك هو السر في أنني تخليت عن فكرة العيش معك. أعتقد حقاً أن ذلك هو ما كان عليه الأمر. لقد فرّقت الحرب بين الكثير من العشاق، بين الكثير من الأزواج والزوجات.

كانت أوتاكو قد جُندت للعمل في مصنع لانتاج الأسلحة، والشعور بأن الجميع ينتقدها، والاذلال الذي استشعرته في غمار المضي إلى العمل وهي حامل يوماً بعد الآخر، كل ذلك كان فظيعاً للغاية بحيث أنها لم يكن بمقدورها تصديقه عندما تتذكره.

امتلأت عيناً أو تاكو بالدموع مجدداً.

- حتى الزواج من سوميا، كان ذلك خطأ نابعاً من الحرب، فلم تكن لديّ فكرة عن مسار الأمور. كل ما عليّ هو الحديث عن هذه الأشياء، فيشرع قلبي في الدق بقوة، تلك هي الحالة هذه الأيام. عندما كان سوميا يضربني أو عندما كنا نتشاحن

كان قلبي يدق عنيفاً في صدري، وكان يؤلمني كثيراً إلى حد أنني ظننت حقاً أنني سأموت إذا استمرت الأمور على نحو ما هي عليه.

خرجت أوتاكو من الماء، ضاغطة يداً على صدرها، وجلست عند أحد الصنابير.

- سحقت الحرب شبابنا سحقاً. ولكن بالنسبة لي، فإنني عرفتك على الأقل، أعرف أنني جعلتك تعانين، ولكن..

- لا، ليس ذلك صحيحاً.

- لقد قلت إنك تريدين أن تمنحى الناس فائدة الشك، ألم تقولي ذلك؟

- بلى، لقد أدركت مدى الضعف الذي أصبحت عليه عندما عدت إلى دار أبويَّ، وخطر ببالي أنني يتعين عليَّ النظر إلى الأمور بتلك الطريقة، وأنني لا أمل لي في التحسن إن لم أفعل ذلك.

- لقد كرهتك حقاً، في بعض الأحيان، ثم لمت نفسي على ما حدث، ثم لاحظت أنني أستشعر حنيناً حقيقياً إلى شبابي، ربما لأن حياة اليابانيين في ذلك الوقت كانت بائسة للغاية، وواصلت التفكير في أنه حتى في قلب حرب فظيعة كتلك، حتى في ذلك الوقت، فقد كانت لي حبيبة مثلك، أحسب أنك يمكنك القول إنني كنت أتشبث بك.

- طيب، جميل أن أسمع هذا.

وقفا جنباً إلى جنب يجففان نفسيهما.

فجأة استشعر جيرو رغبة ملحة في النظر إلى ظهر أوتاكو، من دون أن تدري ذلك. بدا غريباً له أنها لم تكن فضولية فيما يتعلق بجسمه، وأنها لم يصدر عنها ما يشير إلى رغبتها في النظر إليه. ربما كان ذلك راجعاً إلى حيائها الأنثوي، إلى طواعية النساء التي تجعل من الممكن بالنسبة لهن أن يعدن إلى الماضي.

أثرت حميمية أوتاكو مع جيرو لدى دخولها إلى الحمام فيه. وكان طعام العشاء ممتعاً بطريقة هادئة.

كانت لديهما غرفة مساحتها ست حصر وغرفة مساحتها ثلاث حصر، وقد حملا مائدة الطعام الخفيضة إلى هذه الأخيرة. وما أن انتهت الخادم من ترتيب منامتهما حتى رقدا، وكان الوقت لايزال مبكراً.

همست أوتاكو:

- دعنا نتحدث حتى الصباح. ولكنني لا أريد أن أتحدث عن بعض الأمور. أتوافق على ذلك؟

لف جيرو ذراعه حولها، واجتذبها إليه.

- هل يمكنك النوم جيداً هذه الأيام؟

- أوه، إنني مجهدة للغاية دوماً..

لم يكن جيرو واثقاً مما إذا كانت تنام جيداً لأنها مجهدة للغاية، أم أنها مجهدة للغاية لأنها لاتستطيع النوم.

قالت أوتاكو، وهي راقدة في سكون تام:

- ضمني مثلما اعتدت!

أحس جيرو بالحيرة قليلاً.

- إحم.. على أي نحو كان ذلك؟

ابتسمت أوتاكو.

- لا يمكنني تصديق ذلك. لقد نسيت. أليس كذلك؟

- وقد اعتدت أن تلزمي السكون التام.

- بالطبع، لم أكن أعرف شيئاً آنذاك.

أغمض جيرو عينيه، محاولاً استحضار صور لشوارع طوكيو وهي تحترق في غارة جوية. تذكر الجثث المهشمة. كانت تلك هي الطريقة التي استخدمها لكبح جماح رغباته.

استخدم الطريقة ذاتها عندما كانت زوجته تمرض، وقد وجدها طريقة فعالة. ذات مرة مضى مع صديق، بُعيد انتهاء الحرب، إلى مكان سيىء الصيت، وكانت المرأة هناك قد شرعت في الحديث عن كيفية فقدها عائلتها في غارة جوية، ولم يكن قد أكترث بها، ورأت أنه لم يصدقها، فشرعت في وصف الجثث مراراً وتكراراً، ولم يساوره شك في أنها قد رأت الأمور التي وصفتها، ولكن حتى على الرغم من ذلك، فإن

الناس لم تستجب لها بالضرورة. ومع ذلك فإن صور الجثث التي كان قد رآها بدأت تنبعث في ذهنه.

قالت المرأة:

- ما الخطب؟

رد جير في اقتضاب.

- لديَّ تحسس من الحرب.

من جديد أفلحت طريقته الآن، فيما هو يضم أوتاكو بالطريقة التي اعتادها.

تلمست أوتاكو بيدها في الظلام ساعية للوصول إلى وجنة جيرو، كما لو كانت تتساءل بدورها - ما الخطب؟

- ما الذي تفكر فيه؟

- أمور مقينة من الحر.ب

راحت أوتاكو تتساءل عما إذا لم يكن يتذكر زوجته.

مسّد جيرو شعر أوتاكو برقة.

القدوم فجأة إلى هاكوني، الرقود معاً ليلاً على هذا النحو، أحس جيرو بأن هذا كله طبيعي تماماً، كأنما كان كل شيء مخططاً له من قبل. ربما كان ذلك راجعاً إلى أن أوتاكو مطواعة للغاية، وذلك على الرغم من أنه لم يساوره شك في أن هدوءها راجع إلى حقيقة كونها مجهدة ومجروحة على نحو فظيع.

– ربما كنت سأكون معك على هذا النحو طوال الوقت، لو لم تكن هناك حرب. ألا تعتقدين ذلك؟

– لكننا التقينا في المصنع. وما كان يمكن أبداً أن تذهب إلى المصنع لو لم تكن هناك حرب.

– حتى لو لم نلتق في المصنع، فإنني أعتقد أننا كنا سنلتقي في مكان ما. إنني على يقين من ذلك.

كان جيرو يدرك أن رائحةشعر أوتاكو فريدة، وأنها رائحة لا تنبعث من أي امرأة أخرى.

ما الذي تغير في الشابة الهادئة التي عرفها؟ كيف تغيرت في غضون سنوات الزيجة السبع أو الثماني وفي غمار ولادة طفلين؟ أحس جيرو بالغيرة وبالغواية، ولكنه ملأ رأسه مجدداً بصور الجثث المهشمة في الحرب.

كان جسم أوتاكو هزيلاً للغاية بحيث لم يكن بمقدوره تركها في المحطة، والآن وصلت إلى الأمور إلى هذا. دمدم محدِّثاً نفسه إن هزالها مسؤوليته كذلك. وحاول أن يقنع نفسه بأن السبب في أنه ضمها لم يكن شعوره برغبة جديدة مزدهرة.

حتى بافتراض أنه لم يستشعر رغبة، فإن الفعالية القريبة من المعجزة النابعة من تخيل جثث الحرب بدت له مخيفة.

كانت أوتاكو تترك كل شيء لجيرو، كانت مرنة، ولكنه كان بمقدوره كذلك أن يستشعر القوة المنسابة من جسمها في يديه.

أحست بالاسترخاء، هذا صحيح. ومع ذلك فقد شعرت في الوقت نفسه بالعزلة، مثل وهج يحتضر.

كانت قد التقطت أنفاسها، عندما اقترح جيرو فجأة، في محطة شينباشي، أن يمضيا إلى هاكوني. هل كان التقاط الانفاس ذلك بلا معنى؟ وفي الوقت نفسه، كانت قد عزمت على مقاومته بقدر ما تستطيع - كانت الفكرة قد ساورتها فجأة، وخفقت في ذهنها كاللهب المضطرب - ولكنها عندما تعاود التفكير في الأمر الآن فإنه يبدو من المثير للشفقة حتى أن تفكر في مثل هذا الشيء.

رقدت ساكنة وقتاً قصيراً، ثم بدأت في النحيب. قرَّبت وجهها من وجه جيرو.فدهش لرؤية وجنتيها والدموع تغرقهما وجففهما براحته.

ضحكت أوتاكو، قائلة:

- إنني أبكي كثيراً. أليس كذلك؟ يندهش أبواي لذلك.

- نعم، لقد تأثرت أعصابك كثيراً حقاً. الطلاق شيء يصعب على أحد خوض غماره.

- ذلك ليس صحيحاً، ألم أقل لك من قبل إن كل شيء تمر به قبل الفراق هو الصعب؟ كل ذلك الاحتمال للأمور؟ إنه صعب للغاية بحيث إن كل الحبال تتعقد في نهاية المطاف، الأمر يبدو كما لو أن جسمك يطفو في الفراغ.

- انهيار زواجك يقع على كاهلي. وكما تعرفين، فقد كنت أبتهل من أجل سعادتك، وأنا بعيد وقابع وسط الظلال. ولكنني كنت راضياً عن نفسي أكثر مما ينبغي، وقد كان ينبغي أن أكون أكثر انتقاداً لذاتي.

- لم يكن ذلك خطأك حقاً. لقد قلت إن هناك بعض الأمور التي لا أرغب في الحديث عنها. ولكن هل يزعجك إذا تحدثت قليلاً عن النحو الذي كانت عليه الأمور قبل انفصالي أنا وسوميا؟

تلمست أوتاكو في الظلام باحثة عن يد جيرو. أضافت:

- لم أحلم حتى بأنني ستتاح لي الفرصة للحديث معك عن هذا كله، فلم يخطر ببالي أبداً أنني سأراك مجدداً.

- ٤ -

عندما استيقظ جيرو صباح اليوم التالي، كانت أوتاكو راقدة وظهرها نحوه، كانت ساقاها مقرفصتين قليلاً بإتجاه صدرها.

حدَّق من الخلف في الوضع الطفولي للغاية الذي أغفت فيه، وأحس بابتسامة واهنه ترتسم على شفتيه، مدَّ يداً، ولمس بخفة شعرها.

تقلبت أوتاكو لتواجهه، فدهش لحساسيتها، وجذب يده

بعيداً، لكنها كانت قد استيقظت من نومها.

لم تكن هناك فراغات بين الأبواب المنزلقة، وهكذا فإن الغرفة كان النور ينسل إليها على نحو يسير للغاية. رقد جيرو متطلعاً إلى محيا أوتاكو، فانبجس في أعماقه حب يشبه ذلك الذي كان يستشعر في الأيام الخوالي.

ساد في ذهنه الانطباع بأن محياها لم يتغير على الاطلاق.

أغمض عينيه، لكنه لم يحس بالرغبة في معاودة النوم، ولذا فقد نهض، ومضى إلى الحمام.

هل مضيت إلى الحمام بالفعل؟ إنك لم توقظني؟

- إنها التاسعة، كما تعلمين.

- التاسعة؟.. كم هذا محرج! لم أنم على مثل هذا النحو الجيد منذ دهور.

- طيب. ذلك أمر جيد. والبارحة أيضاً.. لقد أغفيت قبلي.. أليس كذلك؟ لابد أن الساعة كانت الثانية عشرة.

- تسع ساعات. أوه. إنني أحس بأنني في أحسن حال.

كانت أوتاكو تستمتع بالراحة التي حظت بها، ونهضت من الفراش على مهل.

- كنت تنامين وظهرك نحوي، ملتفة حول نفسك.

- هل كنت كذلك؟

- ربما هي عادة درجت عليها. لابد أنك تنامين وظهرك إلى سوميا.

جلست أوتاكو في موضعها وحدقت في جيرو.

- ترى ما مدى صحة ذلك.

مضى وقت طويل قبل عودتها من الحمام.

تنزه جيرو في الحديقة بينما كانت الخادمة تنظف الغرفة. استند إلى جزع شجرة سامقة، ووجّه حديثه إلى أوتاكو. وقد جلست والمرآة أمامها، عاكفة على وضع لمسات التجميل.

- أتجبين الذهاب إلى آشي - نو - كو؟

- آشي - نو - كو؟

- قد ينعكس جبل فوجي والأمطار الأولى التي هطلت عليه في البحيرة. ومن المؤكد أن الطقس جميل بما يكفي لذلك.

- والآن وقت الاعتدال الخريفي.

- مما سمعته، فإنك تمضين بالعربه المعلقة صعوداً من هنا، وبالحافلة إلى أسفل البحيرة، ثم تستقلين قارب القيام بجولة من هناك.

أطلت أوتاكو بوجهها من وراء المرآه.

- حقاً؟ أأنت ذاهب؟ إنني لا أرغب في التحرك. كل ما أريده هو البقاء هنا ونيل قسط من الراحة.

- حسنا، دعينا لانذهب إذن!

خطا جيرو متجهاً إلى الغرفة.

- من المؤكد أنك أخذت حماماً طويلاً.

- ليس هناك الكثير من المنتجعات التي يمكنك مشاهدة الجبال منها. كل ما هنالك إنني أجلس محدِّقة في الجبال. كنت أتساءل كيف سيكون الأمر لو أنني جئت إلى هنا معك في الأيام الخوالي. وحاولت التظاهر بأنني جئت معك آنذاك؟

قال جيرو، مشيراً برأسه.

- فهمت. على الرغم من أنه في تلك الأيام لم يكن بمقدور الرجل حقاً المضي إلى منتجع مع امرأه. هل كان ذلك ممكناً؟

- والآن، كل ما هنالك الرعاية، العزاء.

عجز جيرو عن الرد.

- لكن ذلك لا بأس به، فالأمور المختلفة ضرورية للناس في أوقات متباينة، كنت أفكر في ذلك في وقت سابق. وما هو ضروري بالنسبة لي الآن هو الرعاية والعزاء.

تناولا طعام الافطار في هدوء، على مهل.

قدمت أوتاكو الطعام، بعد انسحاب. الخادم، وبدت الحميمية الطبيعية النابعة من هذا غريبة تقريباً لجيرو.

من المؤكد أن جيرو قد أزعجته تلك الكلمات التي قالتها

أوتاكو. ولكن الأمر لم يكن كما لو أنهما قد أمضيا الليلة على نحو ما فعلا لأنه أحس بخيبة الأمل بسبب هزال جسمها، ولم يكن يخشى على الاطلاق أنه ستحدث تعقيدات مثيرة للقلق. على الأقل لم يكن بوسعه القول يقيناً إن أياً من هذا كان صحيحاً، ولكنه لم يفكر في أنه كذلك.

بالطبع، لو أنه كان قد جاء مع امرأة لم يعرفها إلا مؤخراً فحسب، وأمضى الليلة على ذلك النحو، فإن هذا الصباح كان سيكون بلا شك مربكاً، ومن المؤكد أنه ما كانت لتوحد تلك الحميمية التي استشعرها مع أوتاكو.

لكن هذا بدوره كان أمراً يصعب قوله.

- عندما افترقنا في ذلك الحين، كما تعلمين، اعتقدت حقاً أن الأمر قد انتهى. وقد يئست كلية. ولكن يبدو كما لو أنه هناك شيء مهم لايزال بيننا. وآمل أن نرعى ما هو مهم.

- إنك تتحدث بالألغاز.

- إنه يشبه لغزاً.

- لغز ليس من الممكن حله؟ أم لغز بالوسع حله؟

قالتها أوتاكو، وقد أمالت رأسها بخفة إلى أحد الجانبين، كأنما كانت تحاول تحديد أي الأمرين هو.

- عندما يلتقي اثنان مجدداً، بعد كل هذه السنين العديده، بعد أن يكونا قد افترقا، فإن مجرد علمهما بأنهما لم يكره

أحدهما الآخر كاف لجعلهما سعيدين، سعيدين على نحو لا سبيل إلى تصديقه.

- هذا صحيح. أليس كذلك.

استقلا حافلة انطلقت بُعيد الساعة الثانية، وترجلا منها في أوداوارا.

ركبا قطاراً متجهاً إلى طوكيو، مسرعاً في الاتجاه المقابل لذلك الذي سلكاه بالأمس، وتطلعاً من جديد إلى الثلوج الأولى على جبل فوجي.

- الأمر ليس مثيراً للاهتمام حقاً، فهناك قدر بالغ الضآلة من الثلج عند القمة. يمكنك رؤية ذلك الآن وقد تبددت السحب.

قالت أوتاكو، وهي تمس يد جيرو بصورة عرضية:

- أوه، لست أدري.. إنك لا تظن أن ذلك راجع إلى أننا رأيناه بالأمس؟

حتى التطلع إلى جبل فوجي لابد أنه يصبح مضجراً إذا كنت تشاهده طوال الوقت.

أدرك جيرو أن أوتاكو على استعداد للوداع.

- أشكرك كثيراً لإحضاري. لقد أمضيت وقتاً جميلاً حقاً. وأحس بأنني قد أتحسن الآن.

كانت أوتاكو قد وضعت كل قوتها في تلك الكلمات، فاربد

محيا جيرو.

- إنني أعني ذلك.

قالتها أوتاكو، آخذة يدي جيرو في راحتي يديها.

مضى جيرو يتطلع إلى الثلوج الأولى على جبل فوجي.

چونچي وكيريكو

أذنها أولاً، ثم حاجبها، ثم.. انداح جزء فآخر من الأجزاء المختلفة من جسم كيريكو التي كانت متزوجة بالفعل في خاطر چونچي، فملأ رأسه. كان يقطع الطريق بالتفكير عبر متتالية القبلات التي سينهال بها عليها في ذلك المساء.

يستغرق الأمر حوالي ساعة للذهاب بالقطار من كاماكورا الشمالية إلى شينباشي على خط يوكوسوكا. كان هناك ما يكفي من الوقت بالنسبة له ليتخيل عدداً من المتتاليات المختلفة إذا شاء، وطرق التقبيل المتباينة.

على الرغم من أن كلاً من چونچي وكيريكو كان يقيمان في كاماكورا الشمالية. فقد كانا كقاعدة عامة يلتقيان في طوكيو. وقد ساور كيريكو القلق من أنهما سيلفتان النظر إليهما إذا

شوهدا معاً في بلدتهما الصغيرة. وقد اعتمدا حذراً اضافياً تمثل في ركوب قطارين مختلفين. وفي كل مرة رتبا فيها اللقاء، كان چونچي يقترح أن يكون هو من يستقل القطار الأكثر تبكيراً وأن ينتظر. ولم تضطر كيريكو أبداً إلى أن تطلب منه القيام بذلك. وكان لايزال في مقتبل العمر، في سنى الدراسة. وبدا خائفاً من أنه ربما يكتشف عيباً ما في جسمها.

الأذن أولاً.. بدأ چونچي بأذن كيريكو لانه كان لايزال يشعر بالأسف حيال خيبة الأمل، التي كان قد أحس بها في المرة الأولى التي لمس فيها شحمة أذنها، لانه كان لايزال يأسف على أنها لم تثره. وكانت خيبة أمله من الحدة في تلك المناسبة إلى حد أن لون محياه لابد أنه قد تغير.

كانت كيريكو قد فتحت عينيها، وقال: «ما الخطب؟».

كان قد أبعد اصبعه عن اذنها في اللحظة التي مسَّ شحمة اذنها خلالها. ولابد أن ذلك بدوره قد بدا غريباً.

وضع چونچي أذن كيريكو في فمه مسرعاً، وكان وجهه قد احتجب في الشعر المنسدل على جانب رأسها، وغمره عبق الشعر.

- أتمنى ألا تفعل ذلك.

أمسك چونچي برأسها، فيما هي تحاول تنحيتها بعيداً.

كانت أذن كيريكو صغيرة ولينة، لكنها ليست لحيمة، وكان بوسع چونچي أن يضعها بأسرها في فمه، وتبدَّد شعوره بخيبة الأمل.

لكن الحقيقة المتمثلة في أن چونچي كان قد استشعر على الاطلاق دافعاً يحدوه إلى لمس شحمتي أذني كيريكو كان فيها شيء ملأه بشعور بالذنب، ذلك أن هذه الرغبة قد ارتبطت بالنسبة لچونچي باستثارة غير عادية كان قد أحس بها في مناسبة سابقة، عندما تلمس باصبعه شحمة أذن عاهرة.

لم يدر چونچي إلا بالكاد ما الذي كان يفعله، عندما قرص أذن تلك المرأة، شحمة أذنه الأولى. لم يكن الأمر راجعاً إلى أنه أعجب بشكلها وقرصها لذلك السبب، ولكن فيم كان الأمر إذن؟ لماذا عندها كان يستشعر مثل هذه الكراهية للذات على وجه الدقة، مثل هذا المقت الهائل لفكرة لمس أي جزء من امرأة على الاطلاق - لماذا تحركت يده إلى أذنها؟ لم يكن بمقدور چونچي نفسه الرد عن هذا السؤال.

غير أن الملمس البارد لشحمة الأذن الباردة تلك طهَّره في التو من دنسه. كانت شحمة الأذن مستديرة وريانة ،على نحو ما ينبغي لها أن تكون، كانت صغيرة بما فيه الكفاية لكي يستطيع چونچي اعتصارها بين طرفي اصبعيه الابهام والسبّابة، لا أكثر من ذلك، غير أنها أفعمته باحساس بجمال الحياة. البشرة الناعمة، الامتلاء اللون - كانت شحمة أذن المرأة شبيهة بجوهرة غامضة. وقد ظل نقاؤها بلا مساس هنالك، داخلها. حيث كانت تحتفظ بقطيرات شبيهة بالندى من جوهر الجمال الأنثوي. فانبعثت داخل چونچي عاطفة شبيهة بالحنين، ولم يكن قد عرف أي شيء له نسيج كهذا من قبل

قط، كان الأمر شبيهاً بملمس روح فتاة جميلة.

هزَّت المرأة رأسها في قسوة قائلة: «ما الذي تفعله بحق السماء؟».

حتى بعد أن غادر چونچي دار المرأة، لم يقل شيئاً لأصدقائه عن شحمة الأذن، ولو أنه كان قد فعل ذلك لكانوا قد اكتفوا بالسخرية منه. وعلى الرغم من أنه سيكون من الصعب عليه إعادة ذلك الشعور بالاستثارة إلى الحياة في أعماقه مجدداً، مجدداً أبدا، فإنه أصبح سره، وهو سر ربما سيبقى معه طوال بقية حياته.

على الرغم من ذلك، فإنه عندما تأمل چونچي كون رغبته في لمس شحمة أذن كيريكو قد ضربت جذورها في ذكرياته عن شحمة أذن عاهرة، فقد أحس بصورة طبيعية تماماً بمشاعر الذنب.

على الرغم من ذلك كله، فإنه شحمة أذن كيريكو قد خذلت توقعاته، فقد أحس بها بين أصابعه نحيلة ومهلهلة، بل انها افتقرت إلى نداوة معظم شحمات الأذن وملمسها الحريري، وبدت قاسية، وجافة. الأمر الذي جعل يجفل، واستبدت به حيرة بالغة، إلى حد أنه لم يخطر بباله قط أنه قد لا يستشعر أبداً الاستثارة التي كان قد أحس بها، وهو يلمس شحمة أذن تلك العاهرة، وأن لمس أجمل شحمات الأذن قد لا يحيى ذلك الانفعال.

بدأت عادة چونچي المتمثلة في تقبيل الأجزاء المختلفة من جسم كيريكو من اللحظة التي وضع فيها أذنها في فمه.

حتى ذلك الحين، كانت الأمور بسيطة، فقد كان لايزال غراً في أمور العشق، وغمرته تماماً الدهشة، التي أحس بها لدى اكتشافه أن بمقدوره أن يشبع بصورة كاملة تماماً كيريكو، التي تجتاز منتصف عمرها. وتوصل إلى فهم جاذبيته الذكورية للمرة الأولى من خلال اللذة التي استشعرتها كيريكو معه، وغاب منتشياً في غمار هذه اللذة.

كان چونچي قد اعتقد أن جسم كيريكو يتسم بالكمال تماماً، ولذا فقد تعين عليه أن يلهى نفسه، في التو، عما استشعره في أصابعه، أي التهلهل البائس لشحمتي أذنيها، وكان مدركاً كذلك للحقيقة القائلة إن البهجة المفعمة بالنشوة التي كانت كيريكو قد عايشتها، عندما كانت معه في البداية، قد تقلص انتشاؤها مؤخراً، وبدا الأمر كما لو أن محاولة احياء جذوة عاطفتها قد أعطته عذراً للمس أذنها.

ثم خلال لقائهما الثالث أو الرابع فحسب قالت كيريكو شيئاً غير متوقع.

- اعتدت، في بعض الأحيان، أن أتساءل عما إذا كان بمقدوري أن أضاجع رجلاً من دون الاضطراد للاكتراث بأي من تلك الصلات المتعذرة، مثل الزواج أو الحب، كما تعلم؟ أردت أن أجرب بعض الوقت، ولو مرة واحدة. ساورتني الأحلام عادة حول هذا.

بدا لچونچي كما لو أن حلم اليقظة ذاك قد تحقق من

خلاله، ولم يبد أن تفسيراً آخر يعد أمراً محتملاً. ساوره الشعور كما لو أنه دُفع من فوق صخرة دفعاً.

- أتعنين أن هذا كله كان لعبة فحسب بالنسبة لك؟

أنكرت كيريكو هذا بشدة، قائلة:

- ليست لعبة. الرجال قد يلعبون لعبة كتلك، قد يعبثون، ويمارسون كل شيء، لكن النساء لسن على تلك الشاكلة. إنني أنا على الأقل لست على تلك الشاكلة.

- لست أدري كيف يمكنك أن تقولي ذلك. ما قالته الآن تواً.. ما كان يمكن إلا أن تقصدي أنك تفكرين في هذا باعتباره لعبة. وإن لم يكن لعبة..

- لست أدري كيف أوضح الأمر. هناك شيء يتعلق به فحسب.. هنالك تلك الهالة من السرية.. ليست لديك حقاً أدنى فكرة كم من الضوابط والأعباء يتعين على امرأة في مثل عمري التعامل معها. أتعرف ذلك؟ وفي غمار ذلك الألم القاهر هناك سر. لكنني أدرك الآن أنه كان أفضل لو انتهى على نحو ما كان عليه.. أي حلم يقظة سري.

- أتشعرين بالأسف لمضاجعتي؟

ضحكت كيريكو من هذا الطرح الطفولي، المبتذل.

- توجيه سؤال من ذلك القبيل لي.. إذا كنت أشعر بالأسف لمضاجعتك! ألست تهين نفسك فحسب بهذا؟ حتى إذا أنتقدت

نفسي، وحتى إذا كنت أحس بالألم.. فإنني مع ذلك لا أرغب في القول إنني أندم على ما فعلت، فالندم أسهل التعلات على الاطلاق، وهو مجرد عذر للتهرب..

- أهذا كل ما في الأمر؟ أنني تصادف فحسب أن انتهى بي المآل إلى لعب دور البطولة أمامك في أحلام اليقظة السرية تلك التي تتراءى لك؟

- ألا تجد على الاطلاق أنه من الغريب أنني شرعت في رؤيتك على ذلك النحو؟ ألم يبد غريباً أن الأمر كله حدث بمثل هذه السهولة؟ إنني لم أرتبط بعلاقة عاطفية من قبل قط، كما تعلم.

- .....

- فكِّر في الأمر.. لقد حدثتك بأمر ابنتي الراحلة في المرة الأولى التي التقيتك خلالها..

كان هذا قد حدث في قطار ينطلق على خط يوكوسوكو، وكان چونچي قد حضر درساً في فن التصوير بالأسلوب الغربي في ذلك اليوم بدعوة من صديق له. وكانوا قد تعلموا رسم صور سريعة للأجسام الأنثوية العارية. كانت هناك أربع شابات أو خمس في الفصل، ولكن كيريكو كانت الوحيدة التي ترتدي زياً يابانياً، وكانت أكبر سناً من اليابانيات الأخريات، ولذا فقد لفتت نظر چونچي، وتبين أنهما كلاهما يقيمان في كاماكورا الشمالية، وهكذا فقد عادا في ذلك المساء معاً بالقطار. عندما أقبل جامع التذاكر للحصول عليها، أعطته

كيريكو النقود الضرورية لتغيير تذكرة چونچي من الدرجة الثالثة إلى الدرجة الثانية، قبل أن يستطيع أخراج نقوده، فقد كان من الأسرع بالنسبة لها أن تفتح حقيبة يدها الموضوعة على حجرها من أن يبحث چونچي في جيبه، لكن حركاتها أوحدت بأنها كانت تعتزم دفع النقود.

في وقت ما، بعد تجاوزهما يوكوهاما، فتحت كيريكو كراسة رسمها، وبدأت في رسم شيء ما. بدا لچونچي أن محياها قد ازداد جمالاً، فيما هي تراوح بين التطلع إليه والنظر إلى الورقة. كانا يجلسان أحدهما قبالة الآخر، فمال چونچي إلى الأمام ونظر إلى كراسه الرسم، كانت كيريكو ترسم وجهه. التقط الكراسة منها من دون التفوه ببنت شفة، وتطلع إليها لحظة أو لحظتين، ثم أخرج قلمه الرصاص، وبدا يضيف إلى الرسمة السريعة التي بدأتها، راسماً فوقها.

قالت: «مهلا، مهلاً. كف عن ذلك!»، واستردت كراسة الرسم، ولكن چونچي أحس بالحرج حيال رسم وجهه، ولذا فقد اختلس الكراسة، منها، وأضاف المزيد من اللمسات إلى الرسمة. مالت كيريكو إلى الأمام هذه المرة، ولكنها عجزت بصورة جلية عن الجلوس والمراقبة فحسب، ولم تستطع ترك القيام بالرسم له، فيما بدا، واستعادت الكراسة مجدداً، وشرعت في الرسم من جديد، تكررت هذه الحلقة ذاتها من الأخذ والعطاء مراراً وتكراراً، وبهذه الطريقة تواصل رسم وجه چونچي، بل ان ظلالاً قليلة غير ضرورية قد برزت. ولكن طوال

الوقت الذي رسما فيه وجه چونچي معاً، انبعثت في أعماقه عاطفة دافئة حيالها، بل انه بدا له أنه حتى الرسمة قد عبّرت عن هذه العاطفة. وكان قد كف عن الشعور بالخجل الذي استشعره في البداية من رسم وجهه، بل ان الرسم فوق الرسمة التي كانت كيريكو قد بدأتها أفعمه بالسرور، كأنما كانا يضعان يدي قلبيهما إحداهما فوق الأخرى.

- طيب، لقد انتهت.

قالتها كيريكو، وقد توقفت عن الرسم، وراحت تنقل ناظريها جيئة وذهاباً بين الرسمه ووجه چونچي، مقارنة أحدهما بالآخر. أضافت:

- إنها تبدو شبيهة بك إلى حد ما. أليس كذلك؟

- دعيني أرسم القليل!

- أين؟ حول العينين؟

- إنه وجهي.. إذا لم أنته منه بنفسي..

- إنك واثق من نفسك على نحو فظيع. أليس كذلك؟

- كلا، ولكن لماذا رسمت وجهي؟

- لاننا قادمان من درس للرسم، فيما أظن. ولكن كذلك لانني عندما بدأت الرسم، تواصل تذكيري بابنتي الراحلة، فقد كانت في العمر المناسب تماماً للزواج من شخص مثلك. وقد انجبتها وأنا في التاسعة عشرة من عمري، وكانت ابنتي الوحيدة.

- .....

- بالطبع، فكرت فيها حتى وأنا أتطلع إلى تلك المرأة النموذج. لم يكن جسمها جميلاً للغاية، بل انني لم أرد رسمها حقاً، لكن رسمك كان أمراً طريفاً.

- سيتعين عليك تركي أرسم وجهك في المرة المقبلة، بافتراض أن بمقدوري العودة رلى الدار بالقطار نفسه، عقب الدرس المقبل.

لم ترد كيريكو على هذا.

رفرف الحزن في عيني كيريكو، فيما هي تحدق في محيا چونچي، قالت:

- لو أن ابنتي كانت على قيد الحياة لكان بمقدورها مقابلتك أيضاً.

إنها لم تعرف الحب أبداً.. لقد ماتت على وجه الدقة عندما كان برعم زهرتها يشرع في التفتح. وأحسب أن ذلك لابد أنه كان خيراً لها.. ربما كانت تلك هي السعادة.

لم أعتقد أن الناس أمامهم أي سبيل لمعرفة ما إذا كانوا سعداء أم تعساء لدى موتهم. ألا تعتقد أن من يبقون يمضون قدماً فحسب، ويعتقدون ماطاب لهم.. وأنهم يقررون لأنفسهم ما إذا كان الأشخاص الذين ماتوا كانوا سعداء من عدمه؟

إن لك طريقة منطقية في التفكير على نحو غير بهيج.

أليس كذلك؟ قرب نهاية الشتاء، عندما كان الربيع يبدأ لتوه، اعتادت ابنتي الاستيقاظ في الصباح قائلة: آه، هذا أمر ممتع للغاية! ثم تمد ذراعيها. وفي غضون ليلة واحدة تتحول بشرتها فتغدو ناعمة كالحرير. ذلك هو العمر الذي ماتت فيه.

- .....

لدى عودتهما إلى الدار، في يوم درس الرسم التالي، اقترحت كيريكو ألا يمضيا مباشرة إلى محطة شينباشي. دعت چونچي إلى الذهاب معها إلى متجر كبير، وابتاعت له بدلة جاهزة، بدا أنها تعتقد أنهما سيلفتان الأنظار بصورة أكبر إذا ارتدى چونچي زيه المدرسي.

لم تبد الأشياء التي قالتها له كيريكو عاطفية للغاية كذلك، حتى عندما كانا في الغرفة التي مضيا إليها لينفردا بنفسيهما. قالت: «أسفة، كل ما في الأمر أنك في العمر المثالي للزواج من ابنتي». على الرغم من ذلك، فإنه في غمار شعورها باللذة عرف چونچي بهجة كونه رجلاً. كانت تلك يقظة تدفقت بالعنفوان. بعد بعض الوقت قالت كيريكو، بصوت مغناج يسدل ستاراً على شعورها بالخجل: «كنت أفكر في ذلك من قبل، عندما كنا نشتري الملابس، ولكن.. إنك طويل القامة. أليس كذلك؟ ضع ساقيك معاً للحظة..!» تلمست عقبى چونچي بعقبيها، ثم ضغطت بوجهها على صدره.

قالت: «أنظر، إنني لا أصل إلا إلى هنا!».

رقدت ساكنة، كأنما تملأ جوانحها باللحظة.

لم تحضر كيريكو درس التصوير على الطريقة الغربية في الأسبوع الذي أعقب ذلك، فاتصل چونچي بدارها، وطلب محادثتها.

- لماذا لم تحضري الدرس اليوم؟

- في الثانية التي سنلتقي خلالها، سيعرف الجميع بأمرنا.. الطريقة التي ستتصرف بها ستشي بنا، ليس هناك من سبيل لتمكنك من أخفاء الأمر.

رتبا اللقاء في مكان آخر في موعدهما الثالث، لكن كيريكو لم تحضر في الوقت المحدد، فاتصل چونچي هاتفياً من جديد.

بحلول الوقت الذي دس فيه چونچي شحمة أذن كيريكو في فمه، كان هو نفسه قد بدأ بالشعور بالضيق وعدم الارتياح. ألم تستدرجها فحسب حقيقة ما فعلاه في تلك المرة الأولى؟ ألم يكن ذلك هو السبب الوحيد في مواصلتها القدوم للقائه؟ ألم يكن چونچي هو الذي واصل اجتذابها عنوة؟ هل كان لها أي خيار في الأمر؟ بل أن چونچي كان بمقدوره الاحساس بأن جسمها قد قرب باحكام أكبر إليه مما كان عليه في البداية.

كان قد رسما وجه چونچي معاً، ثم رقدا وقد وضع كل منهما عقبيه بموازاة عقبي الآخر.. ترى هل كان ذلك نهاية اللذه التي استشعرتها معه؟ ألم تشعر منذ ذلك الحين بشيء إلا بألم متزايد، احساس دائب التعاظم بلوم الذات.

بدا كل شيء كما لو كان قد حدث تقريباً بمجرد لقائهما،

وهكذا فإن چونچي لم يكن قد فكّر على الاطلاق في زوج كيريكو. ولكن بعد بعض الوقت بدأ في الاحساس بالغيرة، وبهذه الغيرة داخله شعور بخطيئة.

سأل چونچي:

- كم يبلغ عمر زوجك؟

كانت تلك هي الكلمات الأولى التي قالها ولها أي صلة بزوج كيريكو.

- اثنان وخمسون. لماذا؟ هل لذلك أهمية؟

ليس باستطاعتي تخيلك وأنت تعيشين مع شخص في الثانية والخمسين.

- .....

- هل يمضي جيئة وذهاباً إلى طوكيو.

- نعم، إنه يفعل ذلك.

- ربما أكون قد قابلته في القطار.. ربما في المحطة.. أراهن أنني سأقابله في وقت ما.

توتر صدر كيريكو فجأة.

- لم تريد مقابلته؟

- لست أعرف أدنى شيء عنك.. عن ذهنك أو عن كيف تعيشين.. ليس لدىّ أدنى تأثير عليك. لقد ذهبت لرؤية دارك.. سراً.

- ماذا؟

- أعني.. أعتقد أنه من الأفضل أن ألقى نظرة على زوجك.

- لا، ليس بامكانك القيام بذلك! أنظر، لم لا يكف أحدنا عن لقاء الآخر. ارتجف صوت كيريكو، وتحدثت مسرعة:

- هل جعلتك تمرض حقاً إلى هذا الحد؟

- أمرض..؟

- نعم، إنني أعرف أنني قد تضررت، ولكني لم أعتقد أنك قد تضررت.. على الأقل ليس بهذا القدر. إنني أحدثك بهذا فقط لأنك أثرت هذا الموضوع، ولكن علاقتي بزوجي..

ترددت كيريكو في الحديث.

- علاقتك بزوجك ماذا؟

- إنها ليست على نحو ما اعتادت أن تكون عليه. وكما قلت قبلاً، فإن ذهني وطريقة معيشتي.. لا يبدو أن زوجي قد لاحظ على الاطلاق، لكنني تغيرت، فنحن النساء لسنا جيدات.

- ما الذي تقصدينه بلستن جيدات؟ ما الذي تعنينه بأنك تغيرت؟

لم تستطع كيريكو الرد على أسئلته. واصل چونچي تقبيل جسمها في كل موضع منه، بطرق متباينة، لكن كيريكو كانت تواصل احجامها، وأفعم كبحها لجماح نفسها چونچي بخواء شديد الاهتياج.

وما ان خيم عليه هذا الخواء، حتى غدا أمامه خيار أقل.. اضطر للاتصال هاتفياً بكيريكو.

ستجيىء بالقطار التالي على خط يوكوسوكا. واصل چونچي تخيلها، وراح يرسمها في ذهنه، واصل التفكير عبر متتالية القبلات التي سينهال بها عليها، متصوراً الأساليب التي سيستخدمها.. وأجفل لاكتشافه أنه بدا أنه يجد في ذلك متعة تفوق ما وجده عندما كان معها بالفعل. وبدأ في التساؤل عما إذا لم يكن مريضاً حقاً، تماماً كما قالت كيريكو. وبدأ في التشكك في نفسه.

في تلك الليلة أيضاً، بدأ چونچي بأذنيها. كان لايزال عليه أن يجد أي عيب في جسمها في مواضع أخرى غير أذنيها. كان لايزال يتحرك من موضع إلى آخر فوق جسمها، عندما دمدمدت: «ليس عليك القيام بذلك، كما تعلم». فجأة، عجز چونچي عن التحرك، لكن كيريكو استرخت. ساورها الشعور نفسه الذي أحست به في تلك المرة الأولى، عندما رقد وقد وضع كل منهما عقبيه إلى جوار عقبي الآخر. وعندما أدرك چونچي أن كيريكو قد تحدثت على هذه الشاكلة لأنها أشفقت عليه، انهلت الدموع فجأة من عينيه، وأبت التوقف. حدَّث نفسه.. أهذا هو ما يعنيه الافتراق؟ ومع ذلك فإن كلمات كيريكو القاسية بدا أيضاً أنها توحي بأن چونچي كان يفعل أشياء لم يفعلها زوجها.

المحتويات

١ - مقدمة المترجم ——— 5

٢ - ذراع واحدة ——— 47

٣ - الصمت ——— 83

٤ - يو ميورا ——— 107

٥ - أنّآ اليابانية ——— 121

٦ - البحر ——— 131

٧ - طيور العقعق ——— 137

٨ - صف من الأشجار ——— 143

٩ - طبيعة ——— 167

١٠ - قطرات مطر ——— 197

١١ - الثلوج الأولى على جبل فوجي ——— 211

١٢ - جونجي وكيريكو ——— 249

الذراع والسلك وقصص أخرى

ياسوناري كاواباتا

ترجمة: كامل يوسف حسين

إصدارات دائرة الثقافة والإعلام - حكومة الشارقة

إصدارات دائرة الثقافة والإعلام - حكومة الشارقة